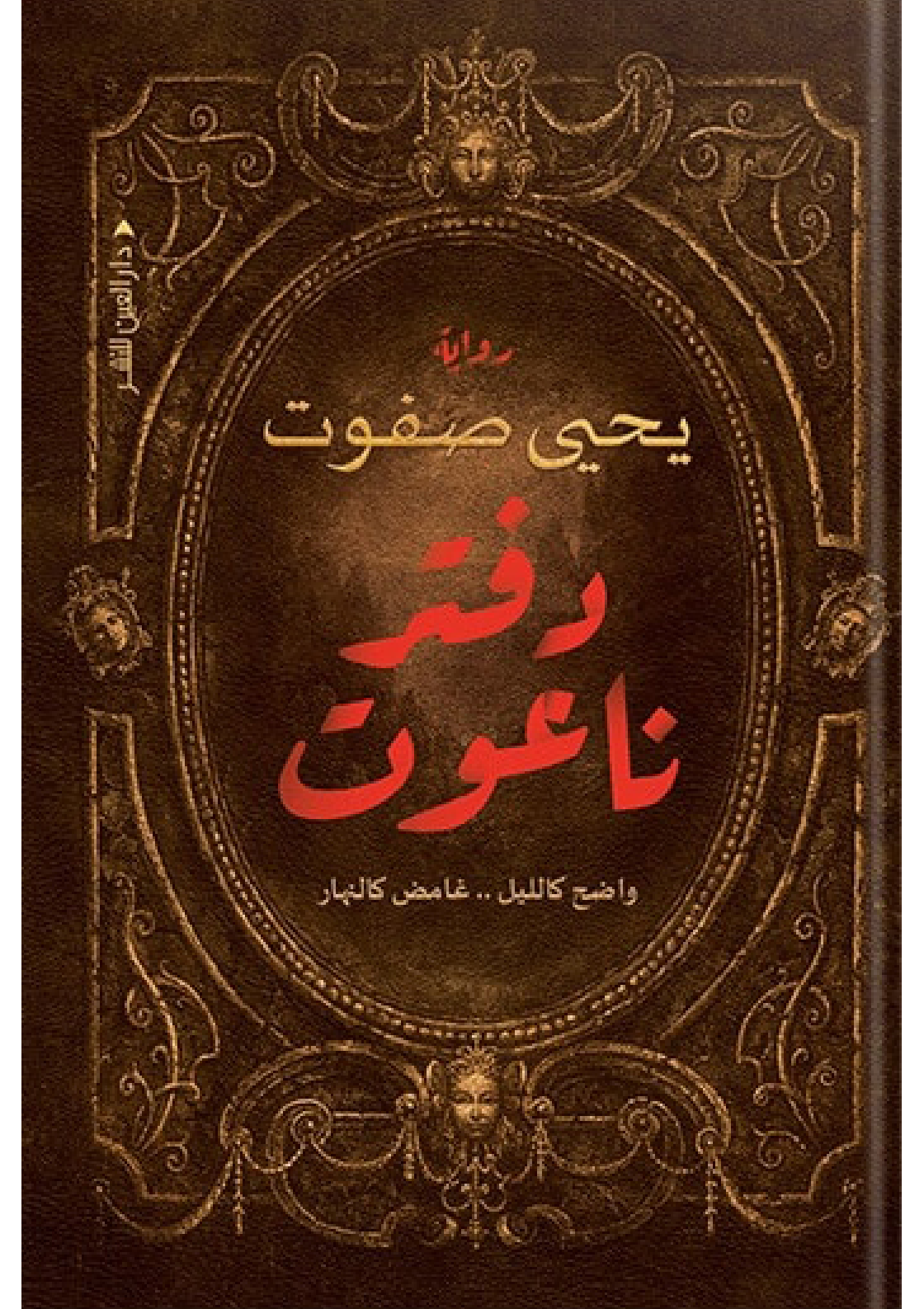

دار العين للنشر
رواية
يحيى صفوت
دفتر
ناعوت
واضح كالليل .. غامض كالنهار

مستوحاة من أحداث حقيقيّة

***

أيُّ تشابهٍ في الأسماء هو بمحض الصُدفة

***

ناعوت في المعجم هو ما يستحقُّ الذِّكر أو الوَصف

إهـداء

إلى

مَنْ أنهكته الحياة بألغازها، وحيرته الدنيا بآلامها

إلى

مَن يريد أن يعرف من نحن وأين سينتهي بنا الحال، من يرى أن الشتاء أدفأ من الصيف وأن الواقع قد فاق الخيال.

إلى

مَن يبحث عن الإجابة، دَعْنَا نرى عيوب الصورة...

حتى نرى الكمال.

سليم

كَم هي عجيبة، ابتسامة الأعمى!

أنظر الآن من خلف الستار، أزيح جزءًا بسيطًا منها؛ لأراقب ذلك الشاب الباسم الذي جاء بصحبة والدته. أرتدي نظارتي الطبية لأدقق النظر، أو أدّعي ذلك، فهي من دون عدسات، وأرى بكل وضوح أنه كفيف.

أنا لا أدّعي ضعف النظر، ولست بارد المشاعر - كما يصفني كُلُّ مَن يعرفني - لكني قررت يومًا أن أصنع خزانة للأحاسيس، صندوقًا من الفولاذ الأصمّ، وأضعها فيها. وحين تأتي اللحظة التي أفكّ فيها شفرتها وأفهم ما يحرك البشر، سأنقل ما فهمته لمن حولي، هذا لو ظل هناك أحدٌ قريبٌ مني ولم ينفر من غرابتي وغرابة أفكاري. سأنقل هذا السر الأعظم لمن كان تائهًا مثلي، مَنْ ظَلَّ يبارز مشاعره ويرقص معها رقصة الحرب، فيخسر أمامها جولاتٍ ويفوز بأخرى، حتى أنهكها وأنهكته.

لكن تلك الابتسامة التي لا تترك شفتي الشاب الكفيف، سرمديّة، كأنها كانت منذ الأزل، كأنها الأصل وكل ما جاء بعدها خُلق منها. ابتسامةٌ بها شيء لا يمكن تجاهله، قوة زوحيّة لا تُقاوَم، فأهزُّ رأسي متعجبًا، وأبتسم معه. ربما لأنه لا يأبه بما يظنّه الناس به، لا يهمّه مظهره ولا يسعى كي يصبح جميلًا في أعينهم. فهو ببساطةٍ لا يرى نظراتهم إليه ولا حكمهم عليه، لا يرى سوى الظلام حيث الجميعُ متشابهون، حيث الكُلُّ يشبهه.

هي عادةٌ لم أتخلَّ عنها؛ أسترق النظر إلى صالة الانتظار، أراقب المرضى دون أن يشعروا. فضول، حب استطلاع، استكشاف، تحدٌ لقدراتي التحليلية، لا يمكنني تصنيفها بالضبط، لكنها الأرجح كل ذلك مجتمعًا. فأنا طبيب متمرّس أستطيع أن أُشَخّص معظم الحالات من مجرد متابعة التصرفات ومراقبة اللفتات، وتلك العادة هي كالإحماء قبل الرياضة الشاقة.

من خلال فتحة الستارة الضيقة، ودون أن يلاحظني أحد، أجول ببصري في المرضى المتراصّين على كراسيّ غرفة الانتظار، الصالة الفسيحة التي جعلتها الإضاءة الزرقاء الكئيبة أشبه بصوان عزاء. وهو ما يجعلني أتساءل: "ما الفائدة من تلك اليافطة المبالَغ فيها والتي أزيّن بها المساحة التي تعلو باب عيادتي؟ (أ. د. سليم لقمان - جراحة مُخ وأعصاب. زمالة جامعة... ورئيس قسم... جامعة... وعضو...)"، إلى آخر الألقاب العديدة التي نِلتُها ولمّا أتجاوز الخمسين بعد. شهادات ودرجات علمية يعاني الكثيرون للحصول على أقل واحدة منها، لكنها كانت بالنسبة لي أسهل من معرفة سر الابتسامة أو السيطرة على الخوف.

فأنا لا زلت بعيدًا عن الانتصار على ذلك الشعور البدائي الذي يشلُّ حركتك وتفكيرك ليخلق

لك صورةً أكثر بشاعةً من الواقع. وليومنا هذا، ورغم الشهادات والألقاب والأبحاث، لم أنجح في التصدّي للخوف، بل ما يحدث هو العكس تمامًا. ففي أحيانٍ كثيرة تصبح الرُّوشتة - التي أنقشها على وُزيقات عيادتي الأنيقة مثل أبرع فنان سيريالي - هي مصدر ذعر مرضاي. وها هم لا ينفكّون يأتون يومًا بعد يوم، أعالج عشرة ليأتي غيرهم عشرون، لا أقترب من النجاح في أبحاثي ولا في ترويض الوحش.

كيف أستطيع إقناع العشرات الذين يملؤون الاستقبال خارج مكتبي بالصبر دون أن أعلم له نهاية؟ كيف أُقنعهم أنهم يعيشون داخل رؤوسهم أكثر من خارجها بينما أنا لا أعرف حدود العقل وإمكاناته؟ كيف أجرؤ على السعي وراء أخطر الأسئلة على الإطلاق؟ الرحلة التي تحتاج إلى قلب محارب لا قلب عالم، لأنه في أحيانٍ كثيرة تصبح الرحلة نفسها هي الخطر الأكبر، العدوّ الخفيّ الذي لا تتوقع من أين ولا متى يأتي ليجهز عليك.

واليوم، في هذه الليلة الباردة، أجد نفسي في حيرة تامة؛ لأنه في تمام العاشرة مساءً، من السابع والعشرين من فبراير... كنت في قمة عطشي.

التقطت الكوب الفارغ وذهبت لأملأه للمرة العاشرة من الثلاجة الصغيرة الرابضة بجوار باب مكتبي من الداخل. ألقيتُ نظرةً سريعةً على صالة الانتظار من خلف الستار فلم أجد سوى حالة واحدة: فتاة مُحجَّبة خَجول لا ترفع عينيها من الأرض.

تأملتها لبرهةٍ قبل أن أنزع نظارتي وأجترع ما في الكوب دفعةً واحدةً ثم أغلق الستارة وأضغط زرَّ استدعاء التمرجي.

- خلّي البنت تدخل.

أقولها لحظة دخول التمرجي الأصلع الستّيني، لكنه يغلق الباب خلفه ويقف دون أن ينطق بشيء. أسأله:

- مالك يا دوسري؟

التفت للباب من خلفه قبل أن ينظر إليّ قائلًا:

- أصل... مش عارف أقول لسيادتك أيه.

- تقول أيه في أيه؟

- معرفش دي جت منين دي، ولّا مين اللي جابها.

- هو أيه اللي معرفش جت منين؟ مريضة وقاعدة في عيادة. دخّلها أوضة الكشف

واخلّص.

- سيادتك مش فاهمني. الحالة دي مختلفة يا دكتور.

احتفظت بهدوئي المعتاد وأجبته رغم غيظي منه:

- ملكش دعوة بالحالة يا دوسري. اعمل اللي بقولّك عليه، ولّا عايزنا نبات هنا؟

ارتبك المسكين وازدادت حيرته لكنه استسلم في النهاية وخرج لينفذ الأمر. نهضت لألملم أشيائي وقد قررت المغادرة مباشرةً بعد فحص الفتاة. دلفت إلى غرفة الكشف لأجد الممرّض العجوز واقفًا كالتمثال عند الباب المؤدي لصالة الانتظار، يحدّق جاحظ العينين في الفتاة التي لا زالت على حيائها المريب. جلست الأخيرة على تزولّي الكشف دون حراك ونظرها مُسَلّط على الأرض.

- بتشتكي من أيه؟

سألتها وأنا أجذب الكرسي لأجلس بجوارها. لم تُجبني. قُشعريرَة عجيبة سرَتْ في جسدي وأنا أتأمل المشهد الصامت، بعد أن نجح توتر دوسري الملحوظ في إثارة خيالي. بطرف إبهامي حكّكت شاربي الصغير الذي يعاندني دائمًا ويرفض الظهور إلا في شكلٍ خَطٍّ رفيع، وقلت:

- إنتِ جاية لوحدك؟

وللمرة الثانية لم تُجبني فالتفتُّ إلى دوسري ظانًّا أنها خَجِلَى:

- اتفضل سيبنا إنت.

تلعثم التمرجي الضخم مترهل العضلات:

- أ... أسيبكم إزّاي يا دكتور؟ هتعمل أيه معاها؟

لا بُدّ أن شمرة وجهي قد تحولت إلى اللون الأرجواني وأنا أجيبه:

- مالَك يا دوسري؟؟ هَكشِف عليها.

ازدادت الحيرةُ على وجه دوسري قبل أن يقول:

- هتكشف على مين يا دكتور؟

كادت أعصابي أن تفلت وأنا أضع يدي على كتف المريضة:

- على المريضة دي! فيه أيه يا بني آدم؟

ثم جفلتْ مبتعدًا وأنا أحدّق في الفتاة.

- مش قُلتِلَك يا دكتور، المريضة دي مختلفة عن كل اللي جالنا قبل كده.

راقبت الفتاة وهي تميل على جانبها بالتصوير البطيء حتى استقرت على الترولّي. ظلّت على هذا الوضع دون حراكٍ لثوانٍ طويلة فاقتربت منها وأمسكت كفّ يدها. وما إن فعلت حتى تركتُها بسرعة. دقّة بسيطة على أناملها أكّدت لي ما قاله دوسري لتوّه:

- دي عروسة يا دكتور.

***

نظرت لساعتي فوجدتها قد تخطت الواحدة صباحًا. أبدلت ساقًا فوق الأخرى وعاودت الحملقة في المانيكان الخشبية التي ظلت مستلقية على جانبها فوق ترولّي الكشف.

"أيه حكايتك؟"، تساءلت قبل أن أدعك عينيّ من خلال إطار النظارة الخاوي وأتحقق من ساعتي مرةً أخرى. حسنًا، هذا يكفي، لن يأتي أحد ليأخذها. إن القصة بزمّتها مزاح سخيف.

لملمتُ أشيائي من فوق المكتب وحملتها على كتفي ثم اتجهت لباب العيادة. بحثت عن صندوق القُمامة فوجدته تحت نافذة منوّر السلم لكن قبل أن أنفّذ ما نويته أطرقت مفكرًا. أنزلت المانيكان من فوق كتفي وتأملت ملامحها الحزينة. لماذا يتكبّد أحد كل هذا العناء من أجل هذه المُزحة غير المفهومة؟

وإن كان هذا هو السر، فأين هم؟ أليس من الواجب أن يظهروا الآن وهم يضحكون؟ أليس هذا هو الهدف؟

هَزَزْتُ رأسي رافضًا لهذا التفسير.

كلّا، هناك سر آخر وراء تلك الدُميّة الخشبيّة.

استدرتُ لباب العيادة كي أضعها بالداخل ثم زفرت بحنقٍ بعد أن تذكّرت أن المفتاح يبقى مع التمرجي طيلة أيام الأسبوع.

التفتُّ للدُميّة قائلًا:

- شكلك هتيجي معايا البيت يا آنسة.

***

- نهلة... لو ما بطلتيش ضحك هشوف دكتورة تخدير غيرك يساعدني في العملية بكرة.

هكذا قلت لزميلتي المشاكسة وأنا أزجُّ بالمانيكان من الباب الخلفي لأضعها على أريكة السيارة. ركبت بعدها بجوار السائق الشاب الذي طلبته عبر تطبيق مواصلات شهير لأجده يحدّق مذهولًا في الراكبة المريبة. أغلقت بابي بعنف فانتفض واعتدل ليدير المحرك. نزعت عني نظّارتي عديمة العدسات ووضعتها في جيب سترتي، فيكفيه من العجائب تلك الجثة الخشبية الراقدة خلفه، وفي الوقت نفسه جاءني صوت نهلة من الطرف الآخر للهاتف:

- يعني عايز تفهمني إنك قعدت ساعتين متنّح لعروسة خشب؟

- أيوة يا ستّي.

- ودلوقتي أنت معاها في التاكسي؟

- نهلة...!! الساعة داخلة على اتنين وأنا خلصان، مش مستحمل هزارك. أنا بكلمك علشان أقولّك إني هسافر بالقطر، خلّيهم يستنوني في المحطة.

- خلاص خلاص، حاضر. بس... بس أهلها هيوافقوا تبات معاك لوحدها؟

telegram: @alanbyawardmsr

أنهيت المكالمة بعنف وقذفت بهاتفي بين ساقيّ ثم نظرت في مرآة السيارة إلى المقعد الخلفي حيث تجلس المانيكان الخشبية. لوهلةٍ تخيلت ملامحها ترتعش أسفل حجابها الذي ظَلَّلَ وجهها العابس، كأن هناك ما يخيفها. نفضت الفكرة من رأسي ثم التفتُّ للسائق الذي كان يتلكّأ في حيرة ونهرته بعنف آمرًا إيّاه بالتحرك. جفل مفزوعًا وأخفق أكثر من مرة في وضع غيار ناقل السرعة قبل أن يتحرك بالسيارة. وما إنْ فعل حتى صرفت بصري للطريق.

هناك شيءٌ ثقيلٌ في الهواء، شيءٌ موجود حولي يجعلني مُشوَّش التفكير. لقد تعمّدت عدم النظر في مرآة السيارة طيلة الطريق لكنني لا أستطيع التخلص من هذا الشعور.

أحدهم ينظر إليّ.

***

وصلت إلى بيتي بمصر الجديدة وصعدت إلى شقتي الفاخرة بالدور الأخير. حملت المانيكان على كتفي وأنا أدعو ألّا يراني أحدٌ من الجيران في هذا الموقف المشبوه.

- "آرثر كونان دويل".

هكذا نطقتُ مخاطبًا الباب، الذي ينفتح بهذه الجملة حين أنطقها بصوتي، ثم دخلت شقتي الهائلة ذات الأثاث الرَّماديّ الأنيق التي تطلُّ على حديقة شهيرة من نافذة بانورامية واسعة.

وما إنْ فعلت حتى سمعت احتكاك مخالب على الباركيه الرمادي الفاتح فالتفتُّ لأجد أليس تهجم عليّ؛ كلبتي ذهبية الشعر والطابع التي تعشقني، اللون الصاخب الوحيد في حياتي الهادئة. لم تكن حالتي تسمح كي أداعبها أو حتى أباشر احتياجاتها، فتجاهلتها وذهبت إلى المطبخ الأمريكي المفتوح مباشرةً لأجترع كوب ماء لعلّي أطفئ هذا الظمأ العجيب. وضعت الدُّمْية في الركن خلف أحد الدواليب ثم أمضيت دقائق سريعة في الاستعداد للنوم والتأكد أن أليس لديها ما يكفيها من الطعام والشراب كي لا تزعجني.

ذهبت بعدها لأقف أمام الباب الموصد، الغرفة الوحيدة إلى يسار المدخل.

ثوانٍ قليلة استغرقتها متأملًا باب الغرفة التي أبقيها مغلقة دائمًا، قبل أن أدق عليه برفق. رغمًا عني سرت في جسدي قُشَعْريرَة باردة. فأنا بالرغم من أنني أعلم محتوى الغرفة فإنَّ عقلي يعشق التلاعب بخيالي مع الأبواب المغلقة، خيالي الجامح الذي ليس له مثيل، دائمًا ما يصور لي سيناريوهات مخيفة خلف الأبواب؛ وخصوصًا لو ترددت في فتحها. الفوبيا التي لازمتني منذ صِغَري ثم توحشت بعد وفاة شقيقي.

أنين وألم وصراخ لا يترك الحناجر.

هَزَزْتُ رأسي لأنفض عن ذهني تلك الأفكار السوداوية وذهبت لغرفتي مؤجِّلًا هذه المعركة. يومًا ما أيتها الغرفة اللعينة، يومًا ما سأتغلب على خوفي، وأدخلك.

بحثت عن الأقراص المهدِّئة اليومية فلم أجدها في مكانها المعتاد فوق الكومود. ناديت كلبتي المزعجة فأتت إليّ وهي تهز ذيلها. ما إن سألتها عن الأقراص حتى فهمتني وخرجت هاربة. زفرت حنقًا وخرجت وراءها لأبحث عن الدواء الذي صارت تخفيه عني مُؤخَّرًا، لعبة سخيفة أعجبَتْ بها لسببٍ ما منذ أيام وقررت أن تمارسها معي رغمًا عني. رَفعتُ الكراسي ونظرت أسفل السجاجيد وفي النهاية وجدتُها بين كومة الغسيل. وقفت أليس في نهاية الردهة رافعةً أذنيها قبل أن تنبح مهددةً فتجاهلتها وذهبت لأنام. جاءت خلفي لعلَّها تستطيع اصطياد العبوة من يدي لكنني رفعتُها في الهواء لأغيظها وفتحتها لآخذ القرص.

لكنها كانت فارغة. سَبَبْتُ أليس مرةً أخرى وقذفتها بالعبوة الخفيفة لتنطلق هاربة. زفرت بحنقٍ واندسست في الفراش، وما إنْ فعلت حتى انتبهتُ إلى أنني قد نسيت أن أطفئ النور. وبما أنني كنت قد تخطيت مرحلة الإرهاق فلم أقوَ على النهوض لأغلقه. سحبت الغطاء فوق وجهي وأغمضت عينيّ.

تك.

فتحت عينيّ حين سمعت تلك التكّة لتفاجئني لوحة سوداء معتمة. أغلقتهما مرةً أخرى

هاتفًا:

- شكرًا يا أليس.

كنت أسمعها تعبث بطبق طعامها بالخارج.

مَنْ أطفأ النور إذًا؟

***

ليلة أخرى مليئة بالأحلام مرت عليّ، أو بالأصح بالكوابيس، وكل هذا بسبب تلك الكلبة المستفزة، فقد جعلتني لقمةً سائغةً لأعراض انسحاب المهدئ، الدرع الواقي الذي يحميني من...

مِنْ ماذا؟ لا أدري. ما الذي أهرب منه؟

غرف عمليات وسارينات سيارات إسعاف وأدوات جراحية ووجوه مرضى غائبين عن الوعي تحت تأثير المخدّر.

وأخيرًا ينتهي بي الكابوس عند الباب المغلق، دائمًا عند الباب اللعين، الشيء الوحيد الذي أصبحت أهابه لدرجة الرعب. فلم يعد هناك ما يُخيفني أكثر من باب غرفة العناية المركّزة الذي أغلق على توأمي، لحظة النهاية التي ظلت تتكرّر في مخيّلتي لأعوامٍ بعدها. ظللت أحدّق في الباب كالمشدوه بينما استمرت الأصوات تنهال على مسامعي، قادمةً من غرفة العناية نفسها. صياح وهتاف وأوامر طبية متعجلة نسيت معظمها رغم أنني أعرفها وقمت بدراستها كلها حتى النبوغ.

وها قد انقلبت النعمة نقمةً وصار عقلي القَذِ ذو الخيال الخصب مصدرَ أبشعِ مخاوفي.

وهكذا أمضيتُ ليلتي.

سويعات قليلة مما يشبه النوم استيقظت بعدها مُضطرًا. بالكاد استطعت القيام والوصول مترنحًا إلى المطبخ، أبحث كالمجذوب على زجاجة ماء أو كوب نصف ممتلئ. استندت على بار المطبخ أمريكي التصميم لأمنع نفسي من السقوط، وفتحت الثلاجة لألتقط أكبر زجاجة مياه وأجترعها دفعةً واحدة. أعلم أن العطش والغثيان من أعراض الانسحاب المحتملة، وهو ما جعلني أنهض من الفراش بحرص بعد أن حرمتني أليس من مهدئاتي. لكن ليس لهذه الدرجة، هناك علّةٌ ما بي.

ثم توقفت عند السؤال الأهم من كل ما سبق:

ما الذي أتى بالمانيكان عند الموقد؟ ألم أضعها في ذلك الركن عند الدولاب؟

حدّقت في وجهها الخشبيّ العابس ورسمت ابتسامة رمادية على شفتيّ. لقد كان سالم يقف نفس وقفتها، في نفس المكان، كل صباح، وهو يعدُّ قهوته. لسنواتٍ طويلة كان يشاركني دقائق سعيدة قبل أن نذهب إلى المدرسة، ثم الجامعة من بعدها. يبدو لي الآن ذلك الوقت وكأنه منذ ألف عام، جزء من حياة شخص آخر مات قبل أن أولد.

دقيقة أخرى تمر وعيناي لا تفارقان عينيّ الدُّمية الزجاجيتين. حككتُ شاربي الرفيع بأسناني السُّفلى ودعكت عيني لأفاجأ أنني أرتدي نظارتي عديمة العدسات. هل أصبحت متيّمًا بها لهذه الدرجة حتى صارت جزءًا من روتيني أفعله لا شعوريًا؟ نزعتها وحدقت بالمانيكان. هَزَزْتُ رأسي يائسًا من الوصول لليقين بصدد المكان الذي وضعتها به بالأمس، حتمًا كانت هنا، عند الموقد، فهي لم تتحرك من جرّاء نفسها بكل تأكيد.

استدرت لأستعد لِلّقاء الصباحي مع زملائي عبر السكايب، ثم تسمّرت مكاني دون حراك.

لقد رأيت لثوانٍ انعكاسًا لحركةٍ ما خلفي، أكاد أقسم بهذا، شيءٌ ما سقط وانعكست حركته على زجاج الوحدة التي تعلو الحوض. هنا حلَّ عليّ الوجوم. استدرت ببطءٍ لأواجه المانيكان وجُلْتُ بعينيّ في المطبخ الواسع، باحثًا عن مصدر ذلك الشيء الذي رأيته يقع بجوارها بطرف عيني ولم أجده.

هذا يكفي، هناك شيء غير طبيعي في هذه الدُّمية. انطلقتُ إلى غرفة النوم وذهبت لآتي بصندوق خشبي كان رابضًا في الركن. وضعته على كاونتر المطبخ الأمريكي العريض وأخرجت جهازًا منقوشًا عليه ثلاثة حروف: "أ. أ. غ."، جهاز قياس الترددات الدماغية. تأملت المانيكان للحظةٍ قبل أن ألصق سلكين يخرجان من الجهاز المعقد بجانبَيْ رأسها.

ترددت للحظةٍ وقد بدا لي مدى سخف ما أفعله. في النهاية هَزَزْتُ رأسي للمرة الثانية رافضًا هذا الخبال، وأعدتُ الجهاز إلى صندوقه ثم ذهبت لأستعدَّ لِلّقاءِ الأثيري.

أعراض انسحاب بكل تأكيد، أعراض انسحاب في منتهى القوة والغرابة.

***

أغلقت باب غرفة أليس عليها وعلى المانيكان اللُّغوب. جئت بكوب ساخن من الشاي ثم جلست أمام شاشة الكمبيوتر أراجع أوراقي في انتظار بدء اللقاء. هذه هي الحلقة التاسعة عشرة في المناظرة التاريخية بيني وبين بروفيسور ريتشارد ستيفنز، رئيس قسم الفيزياء بجامعة أمريكية عريقة وأيقونة الفلسفة الوجودية في الغرب في الوقت الحالي. مناظرات

ومارائونات فكريّة دسمة تبدو أنها لن تنتهي. كلانا منطلقه قوي وعلمه غزير وأمام توافر الموارد والدعم بكل أنواعه لريتشارد تقف قدرتي التحليلية كحصن منيع يجعل جميع سهام غريمي العزيز تطيش.

نقاشات عدّة، معظمها كان عبر الإنترنت، تناولنا فيها أكثر المواضيع الشائكة شهرةً، من أمثلة: من أين أتينا؟ ولمَ؟ معضلة الشرّ والارتقاء. وغيرهما.

وفي الحلقة السابقة انتهى النّقاش بيننا عند نقطة غاية في التشابك: هل الإنسان فعلًا محور الكون؟ هل خُلق كل شيء لخدمته أم هو جزء لا يُذكر من الفضاء؟

كثيرًا ما التقينا واتفقت أفكارنا على نتائج ونقاط علمية واضحة، فالحقائق لا تحتاج لبراهين كثيرة. لكننا كُنّا دومًا نختلف في منطق الأشياء. فريتشارد هو من أقوى المؤمنين بأن الإنسان ليس هو سبب خلق هذا الكون الشاسع الذي نحيا فيه وأنه ليس هناك حكمة خفية وراء الحياة بأكملها؛ وبالتالي ينفي وجود حياة بعد الموت. ومن ناحيةٍ أخرى استقبلت خجَجه - التي يلقيها دومًا بنبرته الهازئة - بابتسامتي الهادئة وبرودي المِهنيّ. فمرجعيّتي ليست دينية ولا علمية، بل مزيج من الاثنين، وهذا يجعلني غير متعصب لفصيلٍ بعينه وأكسبني شهرة واسعة حتى صارت لقاءاتنا تُذاع على قنوات إعلامية شتى ومنصّات عديدة، وصار يحضرها ويشارك فيها عدد لا بأس من العلماء.

وقد كانت الجولة الأخيرة لصالحي. ليس لأنني أهتم بالانتصار والتفوق العقلي على رجلٍ في قامة ريتشارد، فالزّهو ليس من شيَمي، بل وإنني أحيانًا كثيرة أجد عندي ما أقوله لأدحض به نظريات عديد من زملائي، لكنني لا أفعل. فأنا بالفعل لا أهتم، فإما أن أغيّر الكون أو لأصمت. لا أهتم إلا بشيءٍ واحد، وهو الوصول للإجابة. وهم لا يملكونها.

ما أفعله هو سعي صريح بلا أدنى مشاعر، مباشر لدرجة القسوة.

فالمنطق الذي يعتمد عليه ريتشارد وغيره في إثبات أفكارهم هو أن الكون أكبر من أن يكون موجودًا لخدمة مخلوقات هشّة متناهية الصِّغَر مثلنا. وهناك نظريات لكبار العلماء تقول إن هناك ما لا يقلُّ عن المائة مليار كوكب تماثل ظروفه كوكب الأرض من حيث الحجم والمناخ والتكوين والبُعد عن شمسه، وهذا في الكون المعروف لنا فقط. وبحسبة بسيطة يمكننا أن نتخيّل أنه من المستحيل أن نكون وحدنا وأن الكون لم يُخلق من أجل مخلوقات تشغل حيزًا لا يُذكر منه. ولو كانت هناك حكمةٌ ما من الخلق فهي بالتأكيد ليست كي يدخل البشر جنّةً ما أو يُلقون في نارٍ خُلِقت قبل وجوده.

ثم جاءت إحدى تلك اللحظات النادرة، اللحظات التي يصرخ فيها شيءٌ بداخلي يحثّني

على التمرد على ما تعلمته في الكتب وحفظته عن ظهر قلب، أن أترك قضبان القطار الممتدة أمامي وأسير حرًا. أن أبحث في ما وراء الآفاق وأغامر في أراضٍ مجهولة لم تطأها قدمٌ من قبل. إحدى تلك اللحظات التي أرى فيها الأشياء والمعضلات مجرد مجموعة من الحقائق والمكونات لو قمت بفكّها لهيئتها الأولية لرأيتها على حقيقتها. وهناك أمثلة عديدة لأطباء وعلماء استطاعوا تحويل ما قُرِئوه حروفًا صمّاء إلى عمل إنساني لا يخلو من معجزات، تلك القلّة التي خُلقت لتحلق طليقة. وحين حلّقت فوق التُرّهات والتنافس العقائدي/ العلمي، رأيت المشهد على حقيقته.

كان منطق ريتشارد قويًا تدعمه براهين ووقائع لا يمكن إنكارها. وكعادتي، جاء ردّي بسيطًا:

- صحيح أن الكون أكبر مما يمكن تخيّله وأن هندسة كل هذا الحيّز من أجل مخلوقات لا يمكنها السفر أبعد من جزء من مليار مليار جزء منه قد يبدو "لَعِبًا ولهوًا"، لكن هذا هو المقصود بالضبط.

- ما الذي تعنيه بالضبط دكتور سليم؟

هذا هو ما سألني ريتشارد بعربيته الفُصحى المكسرة. حمل وجهه الأبيض دائم الاحتقان الذي احتل الشاشة بأكملها تعبيرَ حيرةٍ حقيقية. أجبته بإنجليزيّتي المنمّقة:

- صديقي، الكون كبيرٌ بالفعل لأجسادنا المادية، ولو كان خُلِقَ كوعاء لنا لكان عبثًا ومضيعةً للمجهود. لكنه يا زميلي العزيز ليس وعاءً لأجسادنا، بل لإدراكنا، حيّزًا لوعينا الذي ليس له حدود مادية. الحيز الذي يكفي "بالكاد" لاحتواء خيالنا هو لا نهائي بالنسبة إلى أجسادنا المادية. حدود إدراكنا هي اللانهائية يا عزيزي البروفيسور؛ لذلك فالكون بأبعاده اللانهائيّة "بالكاد" يكفينا.

أسرع شيء في الوجود يا زميلي الفيزيائي الفَذّ ليست سرعة الضوء كما يخبرك علمك.

- وما هو؟

سألني باستخفافٍ ممتزجٍ بالغيظ فأجبته بكل هدوء:

- أسرع شيء في الكون هو "الفكرة".

كانت هذه هي خاتمة الحلقة السابقة والتي أذيعت على المنصّات والشبكات بجميع اللغات لتثير ضجة واسعة. خاتمة انتهت لصالحي. وقد كنت على عهدي الدائم: لا متفاخر ولا متواضع، فقط... بعيد، كأن من فاز بهذه الجولة شخص غيري. وهو ما تقبّله ريتشارد بغيظ

مكتوم وحاول بشتى الطرق اللجوء لنظريات ورؤى مختلفة، لكن منطقي كان لا يشوبه شائبة.

لم تُنهِ هذه النقطة الجدال بالطبع، فهي مُنازلة فكرية ستدوم ما دامت الحياة على الأرض، لكنها فتحت بُعدًا جديدًا للنقاش، وهو عن ماهية الوعي.

ما الإدراك؟ لو كان الأمر، كما يصوره المتشككون، بدأ من خلية واحدة أو جُزَيء واحد - سواء من طاقة أو من أي سبب آخر - وتطور حتى أصبح لدينا كل هذه المخلوقات، فكيف بدأ الإدراك؟ ما الذي جعل خليةً لا وعيَ لها ولا إرادة يصبح لديها كلاهما؟ هذا لو تغاضينا عن الكيفية التي ظهرت بها هذه الطاقة أو مصدر هذه الخلية الأوليّة.

والسؤال الأهم من كيفية بدء الوعي أو تطوُّره، هدفي الحقيقي من كل هذا، هو أين سيذهب هذا الوعي بعد الوفاة؟ أين ستذهب الذكريات وإلى أين ستئول الإرادة؟ إلى العدم؟

وهذا السؤال هو ما عكفتُ على البحث عن إجابةٍ له لسنوات، حُلمي الذي يستحيل الوصول إليه، لكن استحالته هذه هي التي تدفعني للمحاولة. واليوم سأظل صامتًا. فقد نجحت في الوصول بالمناظرة وهذا النقاش العلمي الرفيع إلى النقطة التي كنت أسعى إليها وعليَّ الآن أن أستمع. أو بمعنى أصح، لقد رميتُ بخيط سنّارتي ويجب عليَّ أن أنتظر.

جاءتني أليس تتدلّل فنهضتُ وعدتُ بها إلى غرفتها حيث وضعتُ لها الماء، ثم تركتها متمنيًا لها وقتًا سعيدًا مع المانيكان. أغلقت الباب عليهما وعدتُ لجهاز الكمبيوتر. قمت بتشغيل الكاميرا وتجهيز الخلفية: المدفأة التي تضيء بأنوار إلكترونية كأنها نار حقيقية واللوحة المعلّقة فوقها التي يُخرج فيها آينشتاين لسانه للفصوّرين.

رتبتُ أوراقي مرةً أخيرة قبل أن يتناهى إلى مسامعي ضحكة خافتة وكلام بلغة أوروبية غليظة. نظرت للشاشة لأجد أن زملائي من العلماء والأساتذة من مختلف جامعات العالم قد بَدَءُوا يلجُون إلى حساباتهم على منصّة التواصل. وجوه عديدة بدأت تظهر؛ القوقازي والبُنّي والأسود والشرق آسيوي. رجال ونساء من مختلف الأعمار والأعراق يرتبون أوراقهم ويثبّتون كاميراتهم ويتحققون من جودة نظام الصوت.

لكن كيف خرجت أليس من غرفتها؟ ألم أغلقها عليها؟ هل تعلمت أخيرًا كيف تفتح الأبواب وتغلق الأنوار؟

***

- الأمور ماشية مع المانيكان؟ ابتديتوا تاخدوا على بعض؟

هكذا جاء مزاح نهلة بصوتها الدَّسِم عبر الهاتف لكنني لم أجِبها، فقد كنت في شرودٍ تامٍّ وأنا في طريقي لمحطة مصر. طوال اللقاء الأثيري الذي حضرته فجر اليوم لم أتبسّ ببنتِ شفة. تابعت سير الحوار بين زملائي العلماء وهم ينتقلون من نقطةٍ إلى أخرى، يدورون في دوائر مفرَّغة حول البديهيات في محاولاتٍ خرقاء ومكشوفة لدحض المعتقدات الدينية. توقعت هذا ولم أتدخّل. لم أحاول إبداء الاعتراض أو حتى الاهتمام بما كان يُقال، فلم يهمني أيٌّ منه. أعلم جيدًا أنهم لا يسعون خلف الإجابات بل يسعون لتأكيد قناعاتهم وإقناع الآخرين به. لم يهمني لأنني أعدُّ نفسي فوق كل هذه التُّرّهات وهي ليست ما أسعى خلفه. وحتى نهاية اللقاء لم يقتربوا من المنطقة التي أريد اكتشافها، لم يلتقطوا الطُّعم بعد، لكنني ظللتُ على صمتي. فلو كنت أريد لهم التوغُّل في أحراش الوجودية الموحشة فأنا أريدهم أن يأتوا طواعية، أن يسير الحوار "أورجانيك"، كما وصفته لنهلة.

- يعني ما وصلتوش لحاجة في الآخر. ولا هتوصلوا. دول ناس بيجزوا ورا الترينـد والصّيت والشهرة، قليلون منهم اللي ممكن تقول عليهم علماء أصلًا. وإنت مش هينوبك منهم غير غوْجِة اللسان.

عدتُ لشرودي. ليس هذا ما كان يشغلني، شيءٌ ما يلوح في الأفق، خوف من مجهول، حدث ما يقترب أكاد ألمسه بأصابعي بينما تصرخ حولي المحاذير وتتراقص الأدلّة. لكنني لا أستطيع تحديدها بدقة. كل هذا بسبب الفهدْنات اللعينة وكلبتي السخيفة. وتلك المانيكان المريبة، هي لا تفعل شيئًا ليس له تفسير منطقي، لكنها لا تنفكّ تخطر على بالي.

- سليم؟

بلّلتُ شفتيَّ الجافَّتين من فرط الظمأ ثم انتبهت لصوتها الفخيم الذي اخترق الهاتف، وقلت غيرَ عابئٍ بسخريتها المعتادة ولا حتى بسؤالها:

- عارفة يا نهلة، لما تشعري إن فيه حاجة هتحصل قريب بس مش عارفة هي أيه؟

- حاجة أيه إن شاء الله؟

- ما هو أنا بقولّك مش عارف هي أيه.

- سليم، أنا لسّه مش فايقة ولا القهوة نافعة ولا النسكافيه نافع. وَصَلتِ المحطة؟

- لسه على كوبري أكتوبر.

- طيب أشوفك في إسكندرية.

أنهت المكالمة وعدت أنا لأتامل كلية الطب أسفل الكوبري. تذكّرت أيام الدراسة ووقفتي في حديقتها مع سالم ونهلة وبقية الزملاء. اعتصرتْ فؤادي قبضةٌ باردة وأنا أستدعي وجه شقيقي الذي كان صورة طِبق الأصل مني. كان مثلي، متوسط الطول عريض المنكبين. كلانا كان خشن الشعر دقيق الأنف ضيق العينين لكنه لم يُجارِني في إطلاق شاربي. كان يحلقه يوميًا ويسخر مني ومن شاربي الرفيع، زاعمًا أنه يجعلني أشبه بالنجم صلاح السعدني في مسلسل أراييسك.

كنت أعلم أنه كان يزيله كي يختلف عني، رغم أنه بالضبط ما كان يقوله عني وعن سبب إطلاقي له. لكني كنت دومًا المميز علميًا وفنيًا وحتى رياضيًا بينما عاش سالم في ظلي، ذنب اكتشفته وشعرت به بعد وفاته وسيظل يؤلمني ما دمتُ حيًا. لا، لم أكن أتعمّد الظهور على حساب أخي، فقد كنا توأمين في كل شيء، لكنه ما أسبغه ربي عليّ من النعم. فأنا لم أختبر شيئًا إلا وبرعت فيه، فلم أترك مجالًا له ليتنفّس، ليزدهر. ما كان سالم يتعلق بنشاطٍ ما حتى أشاركه فيه وأتفوق عليه.

هل كان لي يدٌ في مرضه؟ هل كتم في صدره ما توحّش حتى صار كيانًا سرطانيًا يأكل في جسده؟

هكذا ظل شيطاني يوسوس لي لأعوامٍ وجعلني ألجأ للمُهدّئات كي أخرسَه. وجاءت ليلة وفاة سالم لتجعل لهذه الوسوسة شكلًا آخر حتى أصبحت أعتمد اعتمادًا كليًا على تلك الأدوية.

هل كان بيدي فعل شيء لإنقاذ شقيقي؟ هل تقاعست؟

كان يحلم بقارب أنيق نقتنيه ونُبحِر به معًا إلى الغروب. كان هو الرومانسي من بيننا، لكن يا تُرى ما الذي كان يريد أن يبتعد عنه؟

أخرجني السائق من نفق الذكريات المؤلم هذا حين غمغم بشيء.

- بتقول أيه؟

- أنا مفتحتش بُقي سعادتك.

كانت الحيرة مرتسمةً على وجه السائق صادقةً فتجاهلته ونظرت في ساعتي. ثم لاحظت أنه لا يزال ينظر إليّ.

- هو سيادتك لابس نظّارة من غير عدسات ليه؟

ابتسمتُ له بسخافةٍ ونزعتُ النظارة كي أمنعه من التطفُّل، ثم نظرت من النافذة. لكن لم تمرُّ دقيقة حتى تناهى إلى مسامعي همهمةٌ أخرى فالتفتُّ إليه لأقول من بين أسناني:

- بيترطم بتقول أيه تاني؟

- يا فندم والله ما أنا.

قالها السائق العجوز بنبرةٍ مرتعشةٍ وهو ينظر في المرآة.

- هو أيه اللي مش إنت؟ ما الكاسيت مَطفِي أهوه.

أدار السائق رقبته المليئة بالتجاعيد بحركة سريعة كي ينظر إلى المقعد الخلفي، فالتفتُّ لأجد كيسًا بلاستيكيًا به شيءٌ مبهم.

- فيه أيه الكيس ده؟

لم يُجبني بل تخشَّبت ملامحه. مددت يدي لأفتح الكيس حيث وجدت ميكروفونًا فضيًا عتيقًا، من ذلك النوع الذي كان يُستخدم في الإذاعة في الستينيات. سألت السائق عنه فأجاب:

- ميكروفون الجامع عندنا في الحتّة، رايح أصلّحه والله يا فندم.

- هو فيه حد لسه بيستعمل الميكروفونات دي؟

قلتها ثم اعتدلت لأنظر أمامي فأجابني:

- معلش دي مقدرتنا. مش عايز أقول لسيادتك الميكروفون ده مهم بالنسبة لنا إزاي. الشيخ كل ليلة ساعتين أدعية لكل واحد باسمه. كل اللي له حاجة أو مريض أو تعبان من شيء، يقعد يدعيله ويوصّي أهل الحتة عليه لغاية الفجر. وبالميكروفون ده...

صمَتَ منتظرًا تعليقي لكني صَعَّرت له خدّي علَّهُ يتوقف عن أسلوب الاستعطاف هذا، فلو روى الصحراء بالماء لكان أفيَد من محاولة إثارة مشاعري. ظل ساكتًا لدقيقة قبل أن أسمع صوت الهمس ثانيةً. هنا لم أتمالك أعصابي وصحت فيه:

- مالك يا جدع إنت؟؟ فيه أيه؟

ارتبك السائق المسكين وهرب الدم من وجهه وهو يجيب:

- والله ما أنا سيادتك. الصوت جاي من الميكروفون.

بحلقتُ في وجهه محتارًا إن كان يجب أن أتجاهل تُرَّهاته أم أنبش أظفاري في سحنته

بسبب كذبه واستخفافه بي، حتى جاء صوت الهمس مرةً أخرى، وكانت عيناي في تلك اللحظة على السائق. لم يَكُن هو إذًا، فالتفتُ إلى الكيس. ثوانٍ طويلة مرت كالدهر وأنا أحدق في سماعة الميكروفون العتيق الظاهرة من فتحة الكيس، في انتظار أن أسمع مرةً أخرى ذلك الصوت الذكوري الهادئ. جفلتُ حين سمعتُ الهمس يخرج من الميكروفون المعطوب في نفس اللحظة التي أوقف فيها السائق السيارة. ثم علا فوقه نفير القطارات.

- وصلنا المحطة يا فندم.

نزلتُ من السيارة والتقطتُ حقيبتي من مؤخَّرتها ثم نظرت للميكروفون الرابض على الكنبة. أفكر. هل من الممكن أن يكون قد اختزن بعض الطاقة الاستاتيكية؟ هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.

- هوديه يتصلَّح يا فندم، متخُدش في بالك.

- اوعك توديه حتة. هشتريه منك وتجيبوا واحد جديد.

- كتَّر خيرك يا فندم. إمام الجامع غلبان وميقدرش على تمن الجديد. وبعدين هو بقاله كام ليلة...

- خلاص يا سيدي، مفهوم. اتفضل.

قلتُها وأنا أمد يدي للسائق ببضع أوراق من فئة المائتي جنيه، ثم التقطتُ الكيس الأسود واستدرتُ لأدخل المحطة وفي رأسي يتصارع ألف سؤال.

تصرخ حولي المحاذير وتتراقص الأدلَّة.

***

أين يولد اليأس؟ ما الذي يخلق الخوف؟

ومَنْ غيره؟

المخ بالطبع، أو العقل لو شئنا الدقة؛ لأنهما شيئا ن مختلفان تمامًا. ولو أضفنا إليهما "الذهن" لأصبح لدينا الثلاثي المسئول عن كل شرور الكون، ومحاسنه. لو شئنا الدقة لقلنا إن العقل البشري "هو" الكون ذاته. هذه هي قناعتي التي أؤمن بها بكل وجداني لكنني لم أتمكَّن حتى الآن من قياس قدرة هذا العقل على اختراق الحواجز. كان هذا موضوع البحث العلمي الذي بدأته منذ أعوام وشاركني فيه العديد من العقول الفذَّة من حول العالم. لكنني لا أملك الشجاعة أن أثق بحدسي بعد، لا أجرؤ على إطلاق سراح خيالي، لا أجرؤ على تحرير

المارد. فأنا لا زلت لا أثق به.

وأنا الآن في طريقي إلى الإسكندرية للمشاركة في أهم حدَث علمي هذا العام، تجربة قياس عقل مريض بعد وفاته بلحظات. مريض يئس الطبُ من معالجته وسوف يتم إيقاف أجهزة الحياة الاصطناعية اليوم بعد موافقة الأزهر وأهل المريض.

- في مع حضرتك قلم؟

هكذا سألتني لتنتزع عيني الملتصقة بالميكروفون القديم المختبئ في كيسه البلاستيكي إلى وجهها. كانت جالسةً على الأريكة المقابلة لي في محطة مصر، وفي يدها استقرَّ دفترٌ جلديٌ لونه بُنّي أنيق عليه نقشٌ بكلمة ما باللون الأحمر. أخرجتُ قلمي باهظ الثمن وأعطيتها إيّاه، وهو ليس من شِيَمِي، فأنا أعشق الأقلام.

- بس ده شكله غالي.

- مش مشكلة، مش إنتي رايحة إسكندرية؟

- عرفت منين؟

- خلّيه معاكي لغاية ما نوصل.

هكذا أجبتُها ثم أشرت إلى تذكرتها الرابضة بجوارها، فابتسمت متفهمةً قبل أن يدقَّ هاتفها المحمول.

تأملتُها لوهلة. لكنتُها مصرية لكن ملامحها ليست كذلك. عيناها خَضْراوان معقوفتان للخارج ثم لأعلى، ذات بؤبؤ واسع مثل القطط. جسدها دقيق؛ خصوصًا وأنها قد سحبت ساقيها أسفل منها وانكمشت في طرف الأريكة، وهي تتحدث مع مَنْ شعرتُ من طريقة كلامها معه أنه شقيقها الطفل. شعرُها بُنّي فاتح كثيف وأناملها الرقيقة تدق بالقلم الذي أعطيتها إياه على الدفتر الجلديّ الأنيق بعد أن أنهت المكالمة، وهي تفكر.

لم يَكُن مظهرها الملائكي المتناقض مع كل ما يحيط بها هو ما جذبني إليها، فلم يعُد بداخلي ما يكفي لجعل قلبي يخفق لجمال أنثى، ليس بعد كل ما رأيته، حتى لو كانت بارعة الحُسن مثلها. لعنة الأطباء، ولعنتي مضاعفة. لكنه كان بسبب نظراتها وبحثها في وجوه مَن يسيرون حولها، تتحرك شفتاها بكلمات كأنها تحاول أن تصف ما تراه. ليست فقط جميلة من الخارج إذًا، بل من الداخل أيضًا، فإيجاد معنى لهذه الفوضى التي تحيط بها ليس أمرًا سهلًا على الإطلاق. وحتى مجرد المحاولة، مغامرة. أدرك هذا تمامًا لأن هذا ما كنت أفعله في نفس اللحظة.

أدرك وجهي حين لاحظتْ نظراتي إليها، لا أريدها أن تسيء فهمي. شعرت أنها تتفحص ملامحي فلم أظهر لها أني أراها تفعله، تركتها تتجول بحرّية بين تضاريس ملامحي. شعرت برموشها تتحسس وجهي، كالأهداب، كأنها تريد أن تعرف خريطته. حتى وصلت إلى عينيّ، بالتأكيد تتعجب من ذلك الشخص مهيب الهيئة في بذلته الرسمية الأنيقة، ومظهره الذي يصرخ بالأهمية لكنه يرتدي نظّارة دون عدسات.

ابتسمت نصف ابتسامة وتجاهلتها، فقط لو يعرفون سر هذه النظارة.

عدتُ لأتأمل في وجوه المسافرين بدوري، فأنا أعشق السفر بالقطار لهذا الغرض بالتحديد: كي أراقب. لا يوجد اختلاف عن المرات السابقة، نفس الملامح المتربة والظهور المحنيّة. لا أسمع كلماتٍ جديدةً ولا ضحكاتٍ غريبة. كيان واحد متصل يسير إلى الهاوية.

هل خُلق الكون كله من أجل هذا الجنس الضعيف؟ من أجل تلك الدنيّيات التي لا تملك مخلبًا ولا جناحًا، تلك المخلوقات البائسة التي ليس لديها أية قدرات خارقة تُمكّنها من تحقيق أهدافها؟ ليس لديها سوى الأمل.

هل كان انتصاري على ريتشارد زائفًا؟

أطيل النظر إليهم، لعلّي أفهم.

كيف يمكن أن يكون ما يدور في رأسهم هو نفس ما يدور في رأسي؟

كيف يمكن أن نكون من نفس الفصيلة؟ نفس التطوُّر البشري؟

قد يراه البعض غروزًا، هذا الاختلاف الذي أراه بيني وبين من حولي، لكنني أراه لعنة. فهو يجعلني... بعيدًا. في البداية حاولت. حاولت إيصال أفكاري وطرح نظرياتي للعامة والخاصة، للمدنيين - كما يُطلق عليهم في الوسط العلمي شديد التطرف - وللعلماء. لكن في كل مرة أجد أنني في النهاية أكلم نفسي وقد انفضّ من حولي المستمعون. تعودت على نظرات الاستهزاء وهمسات التهكُّم، قبل أن يأتي غيظهم مني حين يهزمهم منطقي وطريقة تفكيري الفريدة.

تعودت على سكون الوحدة، حتى صار لحني الوحيد.

والقاعدة الأهم في حياتي صارت هكذا: لا تتكلم لو لم يكن كلامك هذا قادرًا على تغيير الكون، ولا تفعل لو كان فعلُك هذا مجرد حرق لسعرات حرارية ولا يُغيّر الأقدار.

لا، هذه ليست سلبية، بل استعداد للحظة المناسبة، للفرصة المواتية التي صار أكثر ما أخشاه ألا تأتي أبدًا، أن أكون واهمًا ويضيع العمر بلا طائل.

تحسّست كيس الميكروفون المعطوب وشردت للحظةٍ ثم هَزَزْتُه لعله يُصدر تلك الأصوات التي لم أتبين إن كانت بالفعل همسًا أم طاقة استاتيكية فائضة. ما احتمالاتُ حدوث هذا؟ في اللحظة نفسها، توقفت موسيقا بتهوفن التي كانت تنساب في كسلٍ من سماعات الإذاعة الداخلية ويصدي بعدها صوتٌ نسائي: "ركاب القطار رقم 2023 المتجه للإسكندرية، الرجاء التوجه إلى رصيف 3".

- القطر يا مستر جراي.

هكذا هتفت ذات العيون الخَضْرَاء قبل أن تنهض وتلملم أشياءها ثم توقفت والتفتت إليّ بنظرة اعتذار.

- معلش مش قصدي. مش عارفة ليه قلتلك كده.

"مستر جراي"، اسم غريب. غريب لدرجة شديدة التناسق مع ما أشعر به.

هَزَزْتُ لها رأسي وأخبرتُها ألّا تهتم، فقد نِعتُّ بما هو أقبح منه، وربما هذه هي من المرات القليلة التي أستحق فيها النعت.

ابتسمت في حرج قبل أن تعاود السير. ذهبت وراءها وصعدت القطار، عربة الدرجة الثانية وليست الأولى؛ كي لا يزيد التمييز الطبقي الفجوة بيني وبين الناس اتساعًا. جلست الفتاة مقابلةً لي، يفصل بيننا الممر، لكني شعرت أنه أكبر مما هو عليه، خط فاصل عرضه أميال وليس أمتار. ابتسمت لها في كياسةٍ وعدتُ للتأمل من النافذة، من خلف أسوار قلعتي.

telegram: @alanbyawardmsr

نعم، قد يراني البعض مغرورًا، لكنني ذكي بما يكفي كي أدرك أنها هبة من الخالق لحكمةٍ لا أعلمها، ذكي بما يكفي كي أدرك أنني لست ذكيًا بما يكفي. فرغم غزارة علمي وقدراتي الذهنية لم أستطع حتى الآن أن أدرك ما الإدراك نفسه. كيف يمكن لبروتينات وأحماض نووية ومعادن مخلوطة بالماء أن تأخذ قرارًا ما.

لكن الحقيقة العلمية تبقى، فـ "اللانهائية" واحدة، سواء في رأسي المزدحم بالعلم والمنطق، أو في رأس تلك الفتاة التي لا أعلم أبعادها. والكون بالكاد يكفي أيًا منا. انتصاري على ريتشارد في أمان.

أغمضتُ عينيّ وأنا أطارد تلك الفكرة. ثم جفلتُ حين خرجت من ذات العيون الخَضْرَاء صيحة غضب؛ ففتحت عينيّ والتفتُّ إليها.

- مبيكتبش. آسفة، شكلي بوّظتهولك. اتفضل.

هكذا قالت لي وهي تمد يدها بالقلم. لم تكن العربة ممتلئة ولم يكن هناك أحد بيننا؛ لذلك فقد كان حوارنا سهلًا، لكنني لم أكن منصتًا لها. هذا الظمأ العجيب، كيف يُفاجئني هكذا؟

- أنا عطشان كِدَه ليه؟ فجأة كده؟

جاء نداء آخر في الميكروفون لينهي ذهولها مما قلته لتوّي، لكنه لم يكن الصوت النسائي الذي سمعته منذ قليل، بل صوت ذكوري هادئ شعرت أنني سمعته من قبل.

"دكتور سليم لقمان، مطلوب في الاستعلامات للأهمية".

أطرقتُ مفكرًا قبل أن أهزَّ رأسي نفيًا. مهما كانت أهمية هذا النداء فلن أجازف بأن يتحرك القطار دوني. العملية التي تنتظرني في الإسكندرية ستُذاع على الهواء مباشرةً.

"دكتور سليم لقمان".

تكرر النداء. رميتُ ذات الشعر البُنّي الثائر بنظرةٍ خاطفةٍ لأجدها محدقةً بي بتركيزٍ قبل أن تسألني:

- الندا ده ليك؟

- أيوه.

- أنا عايدة.

يبدو أنها أحرجت لتسرعها بتعريف نفسها فقد احمرَّت وجنتاها حتى صارتا مثل ثمرة الرُّمّان. حاولت تهوين الموقف وبادرتُها وأنا أشير للاسم المكتوب على الدفتر والذي تمكّنت من قراءته لتوّي:

- "ناعوت"؟ اسم أسرتك ناعوت؟

نظرت لما أشير إليه وتحسست نقشًا لوجه امرأة مكرر أربع مرات حول إطار الدفتر. بدا لي أنها كانت تفكر لجزءٍ من الثانية قبل أن تجيب، وهي تضمُّه إلى صدرها كأنها تحميه:

- أيوه. ده دفتر والدي، الحاجة الوحيدة اللي ورثتها عنه وورثها هو عن جدي. كانوا بيكتبوا فيه خواطر. وصّاني إني أختار اللي أكتبه فيه بدقة، ودلوقتي مخزوني نضج وعايز يطلع.

أنهت كلامها بابتسامة عريضة، تفاؤل وإقبال على الحياة لا مبرر لهما. مططتُ شفتي وأومأت برأسي لأوحي لها أني فهمتها أو أنني مهتم بما تقوله. ثم سمعت النداء مرةً أخرى.

"دكتور سليم لقمان، ضرورة الحضور لمكتب الاستعلامات".

- يمكن عايزينك في حاجة مهمة.

- هيكون أيه يعني؟

لكنها مُحقّة. أخذت شهيقًا عميقًا ونظرت إلى ساعتي. لملمت أشيائي؛ الهاتف المحمول وحقيبتي الجلدية الصغيرة على عُجالة، فلربما لن أتمكّن من العودة في الوقت المناسب. لكن لو حدث هذا لاستخدمت تطبيق المواصلات كي أصل في ميعادي، هكذا طمأنت نفسي. غادرت القطار ومددت الخُطا بين جحافل المسافرين حتى بلغت مكاتب الموظفين. ذهبتُ للشباك وأدخلت رأسي لأتكلم مع إحداهم.

- أنا الدكتور سليم.

حدقت الموظفة الأربعينية البدينة في وجهي في بلاهة، ثم قالت دون أن تتوقف عن لَكّ العِلْكة:

- سليم مين؟

كظمت غيظي وأجبتها:

- فين مكتب الاستعلامات؟

- أهوه.

قالت بسخافةٍ وهي تشير إلى مكتبٍ خاوٍ بجوارها. أخرجت رأسي من النافذة الزجاجية وتأملت الكرسي المكسور والأوراق المتناثرة بين جدران الغرفة البلاستيكية. ازددتُ حنقًا من سماجتها فما أراه أمامي من ركام وكراكيب لا يصلح أن يخرج منه أي صوت.

- آدي المكتب. شوف مين اللي طلبك.

قالتها الموظفة باستهزاءٍ وهي تشير للمكتب الخاوي. التفتُّ إليها وقد احتقن وجهي وحككتُ شاربي الرفيع بأسناني السفلى؛ مما جعلها تبتلع العلكة رغمًا عنها. لكن قبل أن أنفجر في وجهها لمحت كيس الميكروفون القديم مُلقى على الكاونتر. لا بُدَّ أنني نسيته على الأريكة وعثر عليه أحدهم.

- إنتي بتهزِّري؟؟؟ أنا هيفوتني القطر بسبب...

- دكتور سليم!! القلم بتاعك.

التفتُّ لأجد ذات العيون الخَضْرَاء تركض في اتجاهي وهي ترفع قلمي عاليًا. لكني تجاهلتها وأدرت رأسي ببطء إلى السماعة المُدلّاة خارج الكيس.

والتي فعلت لحظتها ما لا يصدقه عقل.

هـو

زفر الغاياتي حنقًا وكاد أن يهشم هاتفه بين أصابعه السميكة حين توقف عن الرنين في أذنه. أطلق سيلا من السِّباب يصلح أن يملأ قاموسا جديدًا للشتائم قبل أن يعاود الاتصال مرةً أخرى. لكن نفس النتيجة، لا يُجيبه من اتصل به. نظر حوله للشارع الهادئ في ذلك الحي السكني الذي لم يُعكِّر بعد، ثم دار حول السيارة النقل التي جاء بها مع رجاله وهو ينظر في ساعته. لم يُخلف زبونه الغامض موعدًا له من قبل ولا يزال أمامه دقيقتان على الميعاد لكنه يكره أسلوبه هذا. يتصل هو به حين يشاء وحين يريد الغاياتي أن يكلمه لا يجيبه، كأنه يتعمَّد استفزازه وزعزعة هيبته أمام صبيانه.

لكن هيهات. مش الغاياتي. مش وحش الزُّعربَّانة اللي يتعمل معاه كده. مش...

بتر أفكاره حين هتف له أحد صبيانه لينبهه لوصولِ سيارةٍ ما. صرف بصره لنهاية الشارع ضعيف الإضاءة ليجد سيارةً تقترب منهم فأطلق سبَّة أخرى بلا سبب وتحفَّزت عضَلاته وهو يتقدم ليعترضها. ألقى سيجارته وفركها بقدمه ثم تسمَّر مكانه حين تعرَّف عليها: سيارة فيات بيضاء مصباحها الخلفي الأيسر مكسور. وهو ما كان سهلًا عليه رؤيته نظرًا لأنها كانت تسير بظهرها. توقفت السيارة أسفل عمود نور مظلم وأطفأ سائقها المحرك ثم فتح حقيبتها من الداخل دون أن ينزل منها.

لكنه على الأقل جاء في موعده. تبادل الغاياتي مع صبيانه نظرة سريعة قبل أن يبتلع غضبه ويحتقن وجهه عصفوريُّ الملامح، الذي لا يتناسب إطلاقًا مع روحه العدوانية، طفل رضيع غير مستأنس في جسدِ ذئبٍ قُطبيّ. ابتلع غضبه وأشار إليهم أن يَبدَءوا في تنزيل عبوات بلاستيكية يرتجُّ بداخلها سائل لزج من السيارة النقل. استند على مقدمة السيارة ليئنَّ أسفل جسده الضخم وبأعين دقيقة شبه منغلقة من أثر المخدر أشعل لفافة أخرى، وطفق يتابع رجاله وهم يملئون شنطة السيارة الفيات البيضاء بالعبوات. ثم تناهى إلى مسامعه موسيقا هادئة.

- وطُّوا صوتكم. هو مبيحبش الدوشة.

قالها لهم بنبرة رقيقة خفيضة لا تتناسب مع هيبته المصطنعة بينما تبادل الرجال نظرات تعجب حين تأكدوا أن مصدر تلك الموسيقا هي السيارة الفيات. بَدَءوا بعدها يتحركون ببطء وبأقل ضوضاء. بين كل حينٍ وآخر يرمون قائد الفيات بنظرةٍ سريعة مقتضبة سرعان ما تحولت إلى نظراتٍ قلقةٍ بعد أن لمحوه يرفع أنفه كأنه يتشمم الهواء وهو يلوِّح بإصبعه مع نغمات الموسيقا. تجاهل الغاياتي الموقف المتكرر لزبونه الغامض الذي يَئِس من فهم

تصرفاته، أخذ نَفَسًا عميقًا من سيجارته ودار ببصره في البنايات غير المأهولة الغارقة في سكونٍ مُقبضٍ ثم أطلقه وهو ينظر في ساعته.

الثالثة فجرًا مثل كل مرة، هذا الرجل منضبط كالساعة، هكذا قال لنفسه وهو يتذكّر مواعيده السابقة مع زبونه الغامض. صرف بصره للنوافذ المغلقة والبيوت المهجورة وطفق يتابع القطط الشاردة بعدم اهتمام. كلها لفتات ونظرات قد تبدو عفوية لكنه في حقيقة الأمر لا يكفُّ عن مراقبة سائق الفيات الذي قبع في كابينة القيادة مستترًا بالظلام.

إنه يتعمّد استفزازه، هو متأكد من هذا، وإلا فلِمَ لا يجيب اتصالاته؟ ولماذا لا يريه وجهه؟ أهناك من هو أخطر من الغاياتي وأكثر حرصًا على التخفّي منه؟ تلك الفكرة وحدها تجعله يعمل لسائق الفيات ألف حساب.

أشار إليه أحد رجاله أن المهمة قد انتهت فألقى السيجارة وفركها بقدمه في التراب كما فعل بأختها، قبل أن يتقدم لمقدمة السيارة الفيات البيضاء. توقف عند منتصف السيارة حين رفع قائدها يده ذات الشعر الأبيض الكثيف مشيرًا له أن تلك المسافة تكفي. تململ مكانه معترضًا لكن قائد السيارة فتح بابها ووضع ظرفًا أبيضَ مكتنزًا دون أن يُريَه وجهه. لمعت عينا الغاياتي ولاح شبح ابتسامة على شفتيه الدقيقتين، وهو يرى الكيس يستقرُّ أمامه على الأسفلت.

انتظر حتى أدار قائد الفيات المحرك وانطلق في الشارع الضيق قبل أن يُهرع ليلتقط الكيس. قام بعدّ النقود سريعًا بينما اقترب منه أحد معاونيه قائلًا:

- الراجل ده هيعمل أيه بالكمية دي كلها؟

رفع الغاياتي رأسه الحليق هائل الحجم غليظ الرقبة وغمغم بشرود:

- أكيد مصيبة.

***

في الصباح، في جراج للسيارات، كان سائق الفيات البيضاء يعاني في الخروج من الرَّكْنَة. تصبّب عرقًا وهو يتعارك مع عجلة القيادة كي تستجيب له رغم اعتدال الجو. استغرق ما يزيد على عشر دقائق قبل أن ينجح في الهرب من الفخ المستحيل الذي وجد سيارته فيه. ما إنْ فعل واستعدَّ للرحيل حتى ظهر هذا الكائن السخيف والمسمّى "السّايس".

- إنتَ حاسبت المعلم؟

قالها له الفتى الأسمر وهو يرمقه بشكٍّ ليجيبه السائق ببرود، صوته هادئ حيادي بلا

مشاعر:

- لا.

- يبقى كده خمسة جنيه.

- هو إنت عملت حاجة؟

- خمسة جنيه.

- أنا هحاسب على البوابة.

سأله بنفس الهدوء ليكرر السايس:

- خمسة جنيه.

تبادلا نظرةً طويلةً أنهاها السائق بابتسامةٍ غير مفهومة، قبل أن يُخرج ورقة بخمسة جنيهات ويعطيها له.

- مَرضي؟

لم ينتظر السايس لحظةً أخرى فقد انطلق ليضايق سائقًا آخر. راقبه سائق الفيات البيضاء وذابت ابتسامته ببطءٍ مخيف ثم تلفّت حوله، حتى وجد "المعلم" يتعارك مع سائق رفض دفع "الإتاوة". اتجه ليخرج من الجراج متعمدًا أن يمر بجوار المعلم الذي اعترضه قائلًا:

- خمسة جنيه يا باشا.

- أنا حاسبت الصبي بتاعك. إديته عشرين جنيه.

- طريق السلامة.

تقدم سائق الفيات ليخرج من البوابة ودار حول السور. توقف للحظاتٍ حتى بدأ المعلم يصيح في السايس الذي أعطاه الجنيهات الخمسة منذ قليل. لم يرحل إلا بعد أن تحولت إلى مذبحة.

هنا فقط تحرك مبتعدًا وعلى وجهه ابتسامةٌ كبيرة.

تذكّر ما فعله مع الفاياتي قبلها بساعات. كَم يسهل التلاعب بالبشر!

عايـدة

أسميته "دفتر ناعوت".

تحسّستُ بأناملي غلافه الجلدي السميك واسم عائلتي "ناعوت" المنقوش عليه باللون الأحمر الصارخ. ابتسمتُ حين وقعت عيناي على الوجه المنقوش عليه ثم قربته من أنفي لأنهلّ من رائحته العبِقة. فتحته لأتأمل أوراقه العجيبة، صفحاته المتباينة التي لم أرَ مثلها من قبل، لكنها تعطي للدفتر شخصيةً وسحرًا. شعرت حين وقعت عيناي عليه وسط مُتعلّقات أبي أنه يناديني، يخبرني أن الوقت قد حان أخيرًا لنلتقي.

"الحيرة".

هكذا قرأت الكلمة الوحيدة المكتوبة في منتصف الصفحة البيضاء شاحبة الاصفرار، قبل أن أنظر لمن كتبها، إلى الصورة الفوتوغرافية الفعلّقة فوق مكتبي. تأملت الرجل الأصلع الستيني ذا الشارب الكثّ، وابتسمت حين تذكّرت ضحكته العالية التي كان يرتجُّ معها جسده الضخم وترتجُّ معه أعمدة البيت وهو يخبرني أن الوجه المنقوش عليه – والذي يشبهني كثيرًا – يُشعِره أنه يراقبه دومًا، يُقيّم ما يكتبه. تركت الصورة لأغوص مرةً أخرى في خواطر والدي التي تركها لي في هذا الدفتر الأثري، مستمتعةً بغناء أم كلثوم الذي ينساب من سمّاعات أُذني. قرأت في الصفحة السوداء المقابلة لكلمة "الحيرة":

telegram: @alanbyawardmsr

"لا تستسلمي لها يا بُنيّتي، فالخيار الأول في الأغلب هو الأصح، ذلك الهاجس البدائي الذي يناديك حين ترين هدفك. ولهذا تفسير منطقي، من وجهة نظري، فاسمعيه لعلّه ينجيكِ في ليلةٍ حالكة. الخيار الأول يكون نتاج طبيعتك الفريدة، نتيجة مباشرة لتفكير طويل، دراسة مستفيضة وتأملات استوت على نار هادئة. ولهذا ففي اللحظة التي تقع فيها عيناك على الخيار الأمثل يرنو إليه قلبك رغمًا عنك. لكنك قد لا تأمنين لقرارك السريع هذا، بل تشعرين أنه الخيار الأبعد عن الصواب من شدة اعتيادك عليه، من شدة سهولته. ولو حدث أن ترددتِ، فستبدأ الشكوك تتوالى عليكِ وتتوه الصورة التي استقرّ عليها قلبك، ثم تتشابك الخطوط وتتكاثف العناصر الجديدة حتى يتعقّد الأمر تمامًا.

فقط عليكِ أن تثقي بنفسك، وافتحي الباب، فتردُّدك لن يغير ما يقبع وراءه".

أنهيتُ قراءة هذا الجزء مما كتبه والدي بقلم أبيض في إحدى صفحات الدفتر السوداء التي تسلّل منها لونها بحذر حتى صار باهتا كالرّماد. ثم التفتُّ، حائرةً، إلى فستان الحفلات الأزرق النفيس ذي البطانة الفضية، القطعة الفنية التي لا تُقدّر بثمن والتي تعود لبداية القرن العشرين. يقف منتصبًا في منتصف غرفتي - التي هي أقرب إلى مُخزن صغير - والمطلوب

مني أن أعيده لمجده الزائل.

لكن كيف يا عايدة؟ من أين تبدئين؟ وإلى أي اتجاه تلجئين؟ هل تحافظين على طابعه العتيق وذوقه القديم أم تُحدّثين في طرازه وتضيفين إليه من روح العصر؟ هل ترممين هيئته أم توقظين روحه؟

إنه أسوأ حالًا عن اليوم الذي جاء فيه، لا يعجبني على الإطلاق ما فعلته به ولا أعرف لمسعاي اتجاهًا. لقد نزعتُ جزءًا من البطانة وأضفت بعض "الستراس" اللامع عند الرقبة، لكنه لا يزال دون هُويّة. تدبّرت للحظات في خاطرة أبي ووضعت طرف قلمي على إحدى الصفحات البيضاء. استحضرتُ كلماتٍ هي السبيل الوحيد للخروج من مُعضلتِي.

لن أتردد. سأفتح الباب...

لكن قبل أن أخطّ حرفًا سمعتُ نداءَ أخي من الصالة. نزعتُ السماعة من فوق أذني والتقطتُ الدفتر وهُرعتُ خارجةً إليه. كان يجلس على الأريكة أمام رسمته التي ظل مُنكبًا عليها لأكثر من يومين.

- عطّان (عطشان) عايدة.

هكذا قال لي بمخارج ألفاظه المميزة فأتيتُ له بزجاجة مياه معدنية. لاحظت عبوس وجهه فجلست بجواره ووضعت ذراعي حوله قائلة:

- لسه زعلان؟ هو يوم واحد يا عيسى وهرجعلك تاني.

- أنوح (أروح) معاكي.

- إسكندرية برد عليك دلوقتي.

أشاح عيسى بوجهه عني بطريقته الطفولية التي لا تتناسب مع أعوام عمره الثلاثين، لكنها تُذيب قلبي. هو شابٌ شديد الوسامة رغم عينيه الخَضْرَاوَيْن المشقوقتَين وتفاصيل وجهه التي شكّلتها متلازمة دَاونْ لتعطيه طابعًا شرقَ آسيوي. انكبّ على لوحته وجال فيها بعينين شقّهما المرض باحثًا عن شيء ما فابتسمتُ له وداعبته بأصابعي قائلة:

- يا يَشو بقى، متخلّيش أمشي وإنت زعلان.

ضحك رغمًا عنه وازداد ضيق عينيه وهو يدافع عن بطنه من دغدغاتي المتلاحقة.

- بس عايدة، بس.

سحبتُ يدي ومسحتُ على رأسه في حنانٍ وأنا أتأمل ملامحه البريئة. شعرت بابتسامتي

العابثة تذوب وجاءت أخرى بدلًا منها، دافئة منكسرة. طفقت أتابع حواره الضاحك بعد أن كان حانقًا عليّ منذ ثوانٍ. روحٌ طاهرةٌ وقلبٌ نقيٌ تركه أبي في رعايتي قبل أن يرحل عن دنيانا في حادثٍ أليم، ليلحق بأمي التي سبقته ببضعة أعوام.

(ونِيه لخالتك بقى، كفاية إنك أجلتي جوازنا لغاية دلوقت)، هكذا صاح ماجد خطيبي السابق في وجهي واحتقن وجهه الدائري اللحيم ذو اللُغد الفخيم. وكانت إجابتي الحاسمة أن احتضنت شقيقي وحدّقت في عينَي ماجد في تحدٍّ. في النهاية أطلق سبّة ساخطة وتركني دون عودة. تركني مع شعورٍ قاتلٍ أنني لا أستحق، أنني لا أكفي، لكني سأثبت له وللدنيا أنني... سأثبت له ماذا؟ لم أعُد أدري.

كان يمكنني أن أطيعه وأضع عيسى في رعاية خالتي، أو أحد الدُور المتخصصة في رعاية تلك الحالات، وأتفرغ لحياتي وزواجي الذي طال انتظاره. لكنني خططت لحياتي بالفعل، رسمتها حول عيسى واحتياجاته. دراسة سريعة في كلية الفنون وكورسات مكثفة عن بُعد أعطتني ما يكفي كي أباشر عملًا في تخصص نادر. فمهمتي غير الاعتيادية هي ترميم وإعادة تأهيل التُحف والأنتيكات، وهو ما يدرُّ لي دخلًا معقولًا. هذا بالإضافة لمقال أسبوعي يُنشر في إحدى مجلات الفنون والثقافة يساعد في النفقات.

حياة هادئة الإيقاع خالية من العناصر الأساسية لأيّة فتاة، لأي إنسان لو شئنا الدقة. وها أنا ذا أراقب دُنوّ عقدي الخامس بلا لحظة ندم واحدة. ويبقى حُلمي الأكبر هو كتاب أنشره وأراه فوق أرفف المكتبات. أنقش فوق صفحاته خلاصة ما علّمتني الدنيا إيّاه في شكلِ حوارٍ فلسفيٍ بيني وبين القبح، حوار أقيمه مع مَنْ كان جميلًا وشوّهه الزمن. أنا أعلم يقينًا أن عيسى يتألم، فهو ليس غبيًا، فقط بعيد. يقف على جزيرةٍ وسط بحرٍ صاخبٍ هائج الأمواج، يشير إلينا على الشاطئ المقابل، يخبرنا أنه يسمعنا، يشعر بنا... لكنه بعيد.

ابتسمت حين وصلت لهذه النقطة، فهذه الخاطرة أوْلَى أن تكون أول ما أضعه في دفتر ناعوت. أمسكت بالقلم وخططتُ به حرفًا في الدفتر، لكنه لم يظهر. جَرَرْتُ خطًّا آخَرَ لكن بنفس النتيجة. هَزَزْتُ القلم ونظرت لمقدمته لأرى الحبر واضحًا فكررتُ المحاولة وللمرة الثالثة لم يرأف بي. زفرتُ بحنقٍ ونهضتُ كي آتي بغيره لكن حين نظرت في ساعتي هجم عليّ التوتر دفعة واحدة، فقد كانت عقاربها تشير للثامنة صباحًا. تركت القلم ودفتري على الأريكة، ونهضت تاركةً عيسى الذي اختطف القلم مني وذهبت لأستعدّ للنزول.

- عطّان (عطشان) عايدة.

قالها عيسى دون أن يرفع عينيه عن لوحته فجئتُ إليه بزجاجةٍ أخرى فالتقطها بلهفةٍ

واجترعها دفعةً واحدةً باستمتاع شديد. درتُ بعدها كالإعصار في الشقة عشرات المرات كي أتأكد من إجراءات الأمان وتوافر احتياجات أخي. ظللتُ أكرر عليه التعليمات والاحترازات بينما ظلَّ هو يهزُّ رأسه دون أن يترك قلمي الذي استخدمه في لوحته.

- الله، ما هو بيكتب أهوه!

هكذا هتفتُ حين رأيته يرسم بالقلم الذي كان يعاندني قبلها بدقائق، لكن عيسى لم يُعرني انتباهًا. انتهى من القلم وألقاه بجواره فالتقطته وجلست لأدوِّن الخاطرة في دفتري قبل أن تتسرب من رأسي، لكن القلم السخيف قرر أن يحرمني أنا بالذات من حبره. ألقيته بجواري متأففةً ومددت يدي لألتقط قلم رصاص ثم نظرت في ساعتي مرةً أخرى. نفختُ غضبًا وتوترًا وعقصتُ شعري البنِّي الكثيف خلف رأسي بعصبية وأنا أسبُّ المربية في سِرِّي. وما إن فعلتُ حتى قال عيسى مرةً أخرى:

- عطّان (عطشان) عايدة.

سمعت باب الشقة يُغلق فعرفت أنها المربية الخرساء. هببتُ من مكاني وهُرعت إلى غرفتي كي أجلب حقيبتي، ثم انحنيت لأقبِّل أخي الذي كان غارقًا في لوحته لشاطئ البحر. التفتُ للمربية التي خرجت من المطبخ بعد أن وضعت أشياءها هناك.

- هتخلّي القطر يفوتني يا خَضْرَا، كِدَه مش هلحَق أروح المجلة قبل ميعاد القطر. هاتي لعيسى يشرب وابتدِي جهّزي الغدا. هو عايز النهارده كوسة.

قلتُها قبل أن أقف أمام المرآة لأفكَّ شعري وأعيد تصفيفه، بينما هزت هي رأسها وضمت أصابعها لتقبلها كي توحي لي أني جميلة. ابتسمتُ لها وفعلت الشيء نفسه فأشاحت بيدها وأغلقت عينها اليسرى بنصف تغميضة كما تفعل حين لا يُعجبها شيء. كتمت ضحكتي وعدتُ لأتأمل وجهي وتأكدت من ثبات الكُحل الذي أحاط بعينيَّ الواسعتين، عيون القطط الفارسية الخَضْراء التي لا أعرف ممَّن ورثتها، فليس لديَّ أية جذور من هناك.

انتبهت إلى خَضْرَا التي جاءت لعيسى بكوب ماء فالتقطه وتجرَّعه بلهفةٍ قبل أن ينظر إليَّ ويقول:

- دكتونة (دكتورة) عايدة.

ابتسمت له ثم أعطيت مربيتنا العجوز توصياتٍ مشددةً لما يقرب من الدقيقة. هزت رأسها وهمهمت بلغتها الخاصة لتوحي لي أنها لا تحتاج لتوصية. التقطت بعدها المعطفَ الجلديَّ ونظرت لشقيقي مرةً أخيرة لأجده مستاءً من جفاف لسانه. تعجبتُ من تلك الحالة الغريبة

لكن في النهاية حسمت ترددي، وغادرت آملةً أن أتمكّن من المرور بالمكتب قبل ميعاد القطار، فهناك مَن يعتمد عليّ.

***

وصلت المجلة، الطابق السابع بإحدى بنايات وسط البلد، فوجدت الساعي العجوز، عمّ خليفة، ينتظرني على أحرّ من الجمر. فاليوم هو السابع والعشرون من فبراير، وهو بحاجة إلى المبلغ المالي الشهري الذي أستقطعه من دخلي له. تلألأت عيناه بدمعٍ غزيرٍ ودعا لي بالصحة والستر والحماية الإلهية حتى توزّدتْ وجنتاي خجلًا.

دفعة دوبامين رائعة.

أدرك تمامًا أن بداخل كُلّ منّا احتياجًا رهيبًا للآخرين، جُرحًا عميقًا ترك وراءه نُدبَة غائرة. حُلم ما، شخص ما، حاجة ما، مهما كان وضعك الاجتماعي أو المادي أو حتى النفسي، لن تسلَم من هذه القاعدة. وهناك حلقة وهمية حولك، لو اخترقها أحدهم، لو رَبّتَ على كتفك وقال لك إنك تستحق أفضل مما تظن، لانهارت دفاعاتك كلها وتحررت دموعك من سجنها. سيعود جرحك ليؤلمك. لكنه ألم مفيد، فأنت به تتطهر، تنظف جرحك الذي التأم دون عناية، نُدبتك التي سترتها أسفل زينتك.

- ربنا يفنينا جميعًا يا عمّ خليفة.

- يا بنتي، مبيفرحش بالفلوس إلا الفقراء. ربنا يديم علينا الصحة والستر، أهم نعمة.

"مبيفرحش بالفلوس إلا الفقراء"، جملة غريبة لكنها مشتني بقوة. أخرجت دفتري وقلمي لأدوّنها بينما سألني عمّ خليفة إن كنت أريد القهوة الفرنسية، مشروبي المفضل. أومأت موافقةً وذهبت لأختلي بنفسي في غرفة الاجتماعات، وضعت قلمي ودفتر ناعوت فوق الطاولة ثم عصرت ذهني كي أستجمع أفكاري.

مقالتي الأسبوعية تكون عن التُحَف التي أرممها، عن تاريخها وحالتها ووضعها قبل وبعد الترميم. وقد وعدت مديرة المجلة أن مقالة هذا الأسبوع ستكون مختلفة، وحتى هذه اللحظة لم أبدأ فيها. هذه هي المرة الأولى التي يأتيني فيها فستان مطلوب مني إعادته لأصله، فأنا لم أتعامل مع الأزياء من قبل ولا أعرف ماذا أكتب عنها. لكن لا مناص، يجب أن أنهي المقال اليوم.

فتحت الدفتر على صفحة بيضاء فصفرّة وقرأت في منتصفها:

"المساواة. هل المرأة في حاجة للمساواة مع الرجل؟ وهل هو لصالحها؟".

وفي الصفحة السوداء المقابلة لها، بخطٍ أبيض أنيق:

"لو أنت مخلوق فضائي وقمت بزيارة الأرض في الخفاء، ثم وقفت من بعيد تراقب جنس البشر. برأيك مَنْ سيكون الأهم؟ مَن يأتي بالغذاء أم مَن يضمن استمرارية الجنس؟

في نظري المرأة أرقى من الرجل والمساواة معه ظلم لها من عدة زوايا. وإلا فلِمَ سنأتي يوم القيامة، اليوم الأهم في حياة كل المخلوقات، ويُنادَى علينا بأسماء أمهاتنا؟ وليس هذا فحسب، بل بدءًا من تلك اللحظة سنُعرف بهذا الاسم، للأبد

النفس أنثى، الروح أنثى، الحياة كلها أنثى".

ابتسمت من حذاقة والدي، كيف لم أفكر في هذا الموضوع بهذا الشكل من قبل؟ قلبت الصفحات إلى أول صفحة بيضاء خاوية ووضعت طرف القلم عليها ثم بدأت أتخلّل شعري بأصابعي وأجدله حولهم، أفكر. تدبَّرت قليلًا فيما أريد أن أكتبه ثم قررت أن أصف الفستان وتاريخه، بعد أن أدوِّن أولًا ما قاله عمّ خليفة. لكن الكلمات لم تظهر. التقطت قلمًا آخر من فوق مائدة الاجتماعات ووضعت رأسه على الورقة وقد بدأ الشك يتلاعب بي.

ثم فتحت فمي عن آخره غير مصدقة. إنه لا يكتب هو الآخر. ما الذي حدث لأقلام الدنيا؟

- مش ممكن!

جفلتْ وطار القلم من يدي ثم التفتُّ لقائل هذه الجملة كي أصرخ في وجهه، لكني تخشَّبت مكاني حين رأيت خطيبي السابق، أثقل الأشخاص ظِلًا في التاريخ. لا يكفيه أنه قد تركني بأكثر الطرق قسوة، لكنه تعمَّد أن يتعاقد مع نفس المجلة ويصبح أهم وكيل لها كي يستمرَّ في مضايقتي.

- هو أيه اللي مش ممكن؟

كان صياحي بعد أن استعدتُ صوتي ثم أردفت:

- مش هتبطَّل طريقتك دي؟

رفع يديه عاليًا بطريقته المسرحية المستفزَّة ورسم إحدى ابتساماته السَّمِجَة على وجهه الكالح مُتضخِّم التفاصيل، وجهه الذي يوحي لي دومًا أنه سينفجر في أي لحظة.

- هبطَّل والله هبطَّل. بس مش بقدَر أداري سعادتي لما بشوفك يا فنانة. وإحنا بنشوفك كل يوم؟

لا بُدَّ أن وجهي قد احتقن وأنا ألملم أشيائي بعصبية؛ فقد أنزل ذراعيه ودخل الغرفة قائلًا:

- والله أبدًا، مش هتمشي. لازم تطمنّيني عليكي. (أبطأ كلماته التالية عن قصد) وتطمنيني على ياشو.

هنا صرختُ فيه بأعلى صوتي:

- ملكش دعوة بعيسى يا ماجد. واتفضل وسّع علشان أمشي.

- خلاص يا عايدة بقى. (قالها بصوتٍ منخفضٍ وهو يتلفّت حوله في قلق)، آسف يا ستّي. اقعدي بقى.

- لأ أنا ماشية.

اعترض طريقي للمرة الثانية وقال:

- يعني أكتبلك اعتذار رسمي. أهوه يا ستي.

انحنى ليلتقط القلم الذي سقط مني وجذب ورقةً من فوق المائدة والتفت إليّ.

شيءٌ ما جعلني أنتظر. لاحظ أني قد توقفت لأرى ما يفعل فأسند الورقة على الحائط وكتب: "آسف". ثم دار ليعطيني إيّاها وهو يضمُّ شفتيه ليمنع ابتسامته السمجة من السطوع، منتظرًا رد فعلي.

لو كنتُ في ظروفٍ أخرى لأمسكتُ الورقة وحشرتها في حنجرته التي تجعله يشبه طائر اللقلق لكني فعلت شيئًا أربكه. التقطتُها منه وقرأتها على مهل. لم يَكُن ما كتبه هو ما جذب اهتمامي، بل لأنه نجح في الكتابة بالقلم الذي كان لا يعمل منذ دقائق. ولتزداد حيرته وجدني أمدُّ إليه يدي بالقلم الآخر - الذي كان لا يعمل أيضًا - وأقول:

- اكتبلي حاجة تانية بالقلم ده.

حدّق في وجهي دون فهم.

- معلش، أصلي بحب كلامك.

ثم صحتُ فيه:

- ما تكتب!!

جفل من صياحي ثم مطّ شفتيه ممتعضًا وهو يلتقط القلم ويضعه على الورقة. راقبته بفضولٍ وترقُّب، وما إن خطّ به نصف حرف حتى خطفته منه وقلت:

- ما أنت بتعرف تكتب أهوه.

ما كان منه إلا أن رمى الورقة في الهواء وتركني قائلًا:

- لسّه مجنونة زي ما إنتي.

لم أعِره اهتمامًا واصطدت الورقة في الهواء. حدقت في الخط الممدود على الورقة قبل أن يدخل عمّ خليفة ويسألني عما يحدث. فما كان مني سوى أن أطلب منه نفس الشيء. هزّ رأسه متعجبًا لكنه أطاعني. والنتيجة التي توقعتها هي ما وجدتُها أمامي على الورقة. لقد خطّ خليفة جملةً كاملةً عليها بقلم فشلت تمامًا أن يجعله ينصاع إليّ.

- متبقيش قاسية على نفسك يا بنتي. مَحدّش بياخد كل حاجة ولا بيبقى كويس في كل حاجة.

شكرتُ خليفة وأنا أنقل بصري بين الورقة والكتابات التي تملأ دفتري، فربّتَ على كتفي وغمغم:

- ربنا يحميكي يا بنتي. يا طبيبة القلوب.

تركت المكتب دون أن أنتبه إلى زملائي المحررين الذين وصلوا لتوّهم ولا إلى مديرة المجلة التي نادتني لحظة وصولها مكتبها. كل ما كان يجول بذهني هو سؤال واحد: لماذا ترفض الأقلام أن تطيعني؟ ما الذي يحدث؟

***

دخلت محطة مصر لأجد أمامي مشهدًا أنساني الدفتر والأقلام والكلمات كلها: حشدًا مَهيبًا من البشر يسير ككتلةٍ واحدة، طوفان من الأجساد، كأنه "التِّيه العظيم". تباين خرافي في الأعراق والأشكال لا يوجد إلا في مصر، طيف من الألوان يُلهب حسّي الفني ويستفزُّ كلماتي. منهم مَن ينحدر من أصول تركية أو فارسية فتوهَّج وجهه من لهيب أغسطس، ومنهم من لفحته شمس أفريقيا أبًا عن جدّ فبات يشعر بالألفة والسّكينة في حَرّ مصر القائظ. منهم قمحي اللون ذو أنف وشموخ إغريقي واضح، وآخر برونزي يلمع مثل الآبنوس كفُحاربي أمريكا اللاتينية. وهناك القوقازي الذي لا يشعر ببرودة فبراير، بل بألفةٍ وحنين معها وشوقٍ طاغٍ للأمطار والغيوم.

تشكيلة نادرة من البشر يجمعهم لسان واحد، وهَمٌّ واحد: الوصول لوجهتهم سالمين من المهالك والصعاب التي تترصّدهم في رحلتهم على متن القطار. الجميع عيونهم على قضبان حديدية تمتد إلى مرمى البصر في انتظار الحدَث السعيد وهو "وصول المارد الحديدي".

مشهد أراه كلما جئت إلى هنا، يتكرر على أرصفة القطارات أكثر مما اهتممت بإحصائه، لكنّ

شيئًا ما يحثّني على تسجيله. فمهمتي قد بدأت، ملحمتي الإنسانية التي سأدوّنها كتابا. كنت أرى في كل مشهد لوحةً ما، عمل ربّاني يخلو من العيوب، فقط لو رأيته بقلبي، لو نزعت عنه زينته وأقنعته. ثم تأتي موسيقا سيمفونية لبتهوفن من نظام الصوت الداخلي للمحطة لتصبغ المشهد كله بلونٍ مخمليٍ راقٍ.

حاولت أن أقوم بدوري.

وزّعتُ ابتساماتي دون حساب، ألقيتُ بكلماتي الوَدودة في كل اتجاه، لكن المشهد كان أكثر قسوة من الحجر، أقوى من أن تُجمّله موسيقا أو تُليّنه كلمات. الوجوه متربة والأكتاف محنية، حتى الأطفال كانوا يفزعون لو اقتربت من أحدهم أو مددت يدي إليه بقطعة حلوى، كأنهم يهابون الهواء ذاته ويرتعدون من أقل شيء. أردتُ أن أحتضنهم، أحتويهم بين ذراعيَّ وأحميهم من كل شيء. لكني أعلم أنني لو فعلت سأكون نشازًا باهتًا وسط قعقعة المطارق.

رومانسيّة أكثر من اللازم، ربما. حالمة لدرجة السذاجة، ممكن. شاعرية، أفلاطونية، مثالية، غير واقعية، كل هذا جائز، لكن من المؤكد أنني لن أكون بلا قلب. لن أكون صنمًا آخر يتحرك على رِجلين ويمر بجوار المكلوم دون أن أحاول التخفيف عنه، دون أن أداوي جراحه. وإن لم أستطع فسأبقى بجواره حتى يهدأ روعه ثم أنقل ما يشعر به إلى الدنيا، أصرخ بدلًا منه، صوتي عوضًا عن صوته الذي لا يستطيع ترك حنجرته.

ألهمني المشهد وموسيقا بتهوفن التي تذيعها الإذاعة الداخلية؛ فأخرجتُ القلم الرصاص ودفتر ناعوت ذا الأوراق البيضاء التي قاربت على الاصفرار والأخرى السوداء الكالحة. نهلت من رائحة العنبر الثريّة التي تشعُّ منه ثم شرعت في تدوين تفاصيل هذه اللوحة الإنسانية. وما إنْ وضعت سِنّه على الورقة حتى انكسر. كظمت غيظي وبحثت في حقيبة يدي على قلم آخر فلم أجد. نظرت حولي لعلّي أجد مَن ينجدني من هذا الحظ العاثر وقد بدأ شعور خانق يتسلل إليّ.

ثم لمحته.

يجلس في طرف الأريكة المقابلة لي، عكسي تمامًا.

تبًا. أنا بالفعل شاعرية لدرجة البلَه. أيجب أن أصنّف كل من أراه؟ لكن هذا الذي يجلس أمامي، إنه... غريب هذا، كيف أصفه؟ ليت القلم يحنو عليّ لأرسمه بكلماتي، لكنني سأحاول تذكُّر ملامحه لتدوينها فيما بعد. في أواخر الأربعينات، متوسط الطول، أنيق، شعره قصير خشن يمتزج فيه الأبيض مع الأسود كزغاء أمواج البحر في عتمة الليل. له شارب رفيع يكاد لا يُرى وعيناه عميقتان، هائمتان في شيءٍ ما كأنه لا يرى ما يحدث أمامه. أو ربما بالعكس،

ربما يرى ما يحدث بكل تفاصيله، بصورةٍ مختلفة عني. على شفتيه شبحُ ابتسامة، ساخرة، متعالية، كأنه يفهم ما لا يفهمه أحد ويرى مدى حمق الجميع.

كيف يبتسم وهو قاطبٌ حاجبيه؟ ربما ليست ابتسامة من الأساس، ربما هي رسمة نحتها الزمن على شفتيه لتبعد عنه الفضول. أما اختياره في ملابسه التي تتماشى مع لون شعره، أشعر أن هناك كلمةً واحدةً فقط تليق به.

"رَمَاديّ".

"مستر جراي"، هكذا قررت أن أطلق عليه، هو النعت المناسب له تمامًا.

يتحسس كيسًا أسودَ راقدًا بجواره بحركةٍ لا شعورية حتى لاحظ نظراتي. التفت إليّ لجزءٍ من الثانية وزاد من ابتسامته بمقدار محسوب قبل أن يعود كما كان.

طلبت منه قلمًا فأعطاني واحدًا قيّمًا وأخبرني أنه سيستعيده في الإسكندرية بما أن وجهتنا واحدة. شكرته وانتبهت إلى هاتفي، رنَّة عيسى المميزة، فجلست لأجيبه. سألني شقيقي عن مكاني وحالي وأخبرته بالتفاصيل بكل صبر. ابتسمت حين نعتني بالطبيبة للمرة الثانية دون أن أفهم لهذا سببًا، لكن عيسى له "شطحات" عديدة. تذكَّرت عطشه وأوصيته بالإكثار من شرب الماء كي لا يُصاب بالجفاف وبالالتزام بالتعليمات ومساعدة خَضرًا، ثم أنهيت المكالمة بوداعٍ دافئ.

هل أنا بالفعل أسعى أن أكون ممتازة في كل شيء؟ هل كان عمّ خليفة مُحقًّا؟ هل أخشى الإخفاق؟

لاحظت أن "مستر جراي" يرمقني فأخبرته أن أخي شديد القلق عليّ والتعلُّق بي، فابتسم دون تعليق. عدتُ لأصبَّ اهتمامي بالدفتر وما أنوي كتابته وعاد هو لمراقبة الناس. وفي اللحظة نفسها يدوّي صوت نسائي فى ميكروفونات المحطة معلنًا وصول القطار المتجه للإسكندرية. مددتُ بصري لرصيف القطار حيث هُرع الناس لاستقبال الوحش المعدني العجوز.

أسرعت للرصيف رقم 3 لأكون أول من يصعد العربة. تهادَى القطار وأبطأ سرعته بالتدريج حتى استقرَّ في مكانه أخيرًا كأنه أسلم روحه. صعدت لعربة الدرجة الثانية واتخذت مجلسي بجوار النافذة. نظرت من النافذة وحاولت استدعاء ما شعرت به آنفًا، تلك التفاصيل التي أسرَتْني. لكني فوجئت بتفاصيل أخرى تنهال عليّ بلا رحمة بعد أن انتبهَتْ حواسّي إلى الواقع المخيف الذي أراه أمامي. بماذا أبدأ في التدوين؟ فالصورة التي تنبض بالحياة والموت أمامي لهي أكثر ازدحامًا وأعلى صوتًا من أن أختصرها في كلمات.

هل أبدأ بمعاناة الناس في الوصول لهذا القبر المعدني العملاق، بصراعهم كي يلحقوا أماكن للجلوس، أو حتى الوقوف؟ هل أبدأ بذلك الفسنُ الذي يعاني في صعود السلم دون أن يرأف أحد بحاله حتى كاد أن يبتلعه الشق بين القطار والرصيف؟ أم بتلك الأم الشابّة التي انزوت مذعورةً في ذيل الركاب، تحمي رضيعها بين ذراعيها ببسالةٍ يحسدها عليها أنبل الفرسان؟ هل أبدأ بوصف تلك الأسرة الصعيدية السمراء المكوّنة من أبٍ هزيلٍ مرهق الوجه وزوجته التي يبدو المرض عليها واضحًا. يذودان عن طفليهما الأسمرين طوفان البشر كي لا ينسحقا أسفله.

فجأةً بعد أن كنت حائرة في العثور على بداية مناسبة لكتابي طيلة الشهور الماضية، أصبح لديّ بدل المقدمة أربعة. هل أبدأ بكلمات أبي؟ أم بوصف معاركي الضارية لترميم ما هوى الزمن عليه بمطرقته دون رحمة في شكلِ حوارٍ مع القبح والأحزان؟ هل أوصف الفستان الأزرق الأثري أم ما أراه الآن أمام عيني، تلك اللوحة الواقعية القاسية؟

لا أدري ما الذي جعلني أنظر إلى مستر جراي لأجده يتأمل الناس حوله مثلي. ثم التفت لينظر إليّ. لا يدري أيٌّ منّا ما يجول برأس الآخر، لكنه اكتفى بإعطائي ابتسامةً هزيلةً ونظر بعيدًا.

ثم أغمض عينيه.

وفعلت أنا الشيء نفسه.

تخيّلت الإيقاع البطيء لحركة القطار وهو يستيقظ من سَباته وتتصاعد نبضاته وهو يتحمس للهروب من سجنه داخل المحطة. لكنه كان خامدًا كالجيفة، كأنه يتعمّد أن يصيب الركاب باليأس من الخلاص.

تحسستْ بيدي المسند المعدني أمامي، ذلك الذي يتشبّث به المسافرون ويصل أجسادهم بالقطار، كشريان واحد، حبل سُرّي يحمل معه أملًا ضعيفًا في النجاة، في حياة أخرى، هناك، في نهاية الرحلة. استشعرتْ الملمس واستمعتْ لحكاياته عمّن تعلق به قبلي من الركاب. استقبلتْ نسمة الهواء الباردة الغالية التي تسللت من النوافذ لتحنو على الجلود وتجدّد الأنفاس المهمومة.

فتحت عيني لأجد مستر جراي لا يزال في حالة استشعار عالية، مغمض العينين. فأغلقت عيني مرةً أخرى، وأنصتُ.

ليس فقط لصوت القضبان الرتيب شديد البطء أسفل الوحوش المعدنية حولنا، ولا الثرثرة

التي لا طائلَ منها، ولا حتى نفير القطار الذي كاد أن يُصيبني بالصَّمَم دون أن تبذر منه أي حركة تشير لنيّته على الرحيل. بل لهذه النغمة المنخفضة التي تطفو بين هذا كله، والتي خنقت موسيقا بتهوفن وانبثقت مكانها. شحذتُ تركيزي كله ونقَّحتُ الأصوات التي تنهال على أُذني وبحثت عن هذا الأنين الخافت.

إنها تنتحب في صمت، تلك الأم الشابّة التي تضم رضيعها إلى صدرها لتذود عنه أوجاع الدنيا.

هو يدمع في كبرياء، ذلك المسنُّ الذي يرفض كل شبر فيه هذه الرجّة المؤلمة التي تكاد تُفكّك مفاصله العجوز وهو ينسحق بين الأجساد.

وهذا صوت أنفاس الطفلين الأسمرين، يحدقان في ذعر في هذا الجيش الذي يكاد أن يشقَّ أباهما نصفين دون أن يتخلّى عن العمودين المعدنيين. يبتسم الطفلان لملاكهم الحارس الذي حاول أن يبدو متماسكًا أمامهما وهو يذود عنهما طوفان البشر.

لا بُدَّ أن أكتب ما أشعر به، هكذا جاءني الهاتف المُلِحّ، لا بُدَّ أن أدوّن تلك المشاعر قبل أن تخبو ويتوه مذاقها ككل شيء في هذا الزمان. يجب أن أُعيد تشكيل تلك الأحاسيس لأُخفي القبح منها وأبرز الجمال، لا بُدَّ أن أفعل لأنه سيصير مخزوني الذي سيولد بشكلٍ جديدٍ حين أجلس أمام القطَع الفنية الفانية وأنا أنفخ فيها من روحي. فتحت عينيّ لأجد أنهما تدمعان رغمًا عني فأسرعت بوضع طرف القلم على الورقة وجررتُ خطًّا.

خرجَتْ مني صيحة غضب وعضضتُ على أناملي غيظًا. فتح مستر جراي عينيه هو الآخر حين سمع صياحي وتداخلت معه أصوات أخرى لتشوّه الصورة السمعية التي كان غارقًا في تفاصيلها. تساءل عن تلك المجنونة ذات العيون الخَضْرَاء التي احمرّت وجنتاها خجلًا وغضبًا. رَفعتُ القلم وتلعثمتُ معتذرةً على ما حدث له.

وكان ردّه عجيبًا. فقد تجاهلني تمامًا وبلّل شفتيه وهو يقول:

- أنا عطشان كده ليه؟ فجأة كده؟

أنزلتُ القلم في استغراب لكن ما إن انتبهت للنداء الصادر من ميكروفون الإذاعة الداخلية حتى أدركت ما شغله عني. فهم ينادون عليه، "دكتور سليم لقمان".

أخذ نَفَسًا عميقًا ونظر إلى ساعته ثم لملم أشياءه على عُجالة. وبما أن القطار كان لا يزال متوقفًا لسببٍ لا يعلمه إلا الله فقد كان نزوله منه سهلًا.

لكنه نسي القلم معي.

نزلتُ خلفه وناديتُ عليه لكنه كان يمد الخُطى بين جحافل المسافرين حتى بلغ مكاتب الاستعلامات. ذهب للشباك وأدخل رأسه ليتكلم مع الموظفة. ترددتُ للحظةٍ ونقلت بصري بين القطار الثابت بجواري وبين دكتور سليم، أو "مستر جراي". حسمتُ رأيي وركضتُ إليه. اقتربت وناديتُ عليه وأنا أرفع القلم عاليًا.

وكانت تلك هي اللحظة التي دوّى الرعد فيها ليزجُّ أنحاء مصر كلها.

ومن بعده انفتحت كل أبواب الجحيم... حرفيًا.

هـو

أمام عمارة قديمة في حيّ شعبيّ مزدحم أوقف صاحب الفيات البيضاء سيارته أسفل نافذة مغلقة تسدّها قضبان. التقط آخر عبوات الوقود سريع الاشتعال وكيسًا بلاستيكيًا منتفخًا ثم أغلق السيارة ليدخل العمارة المكوّنة من ثلاثة طوابق والمبنية بالطوب الأحمر. نزل البدروم وريض في الإضاءة الضعيفة يُرهف السمع. تأكد أنه لم يتبعه أحد ثم فتح باب الشقة حيث استقبلته أصوات إعلانات تلفزيونية. مد يده ليضيء نور الصالة الضيقة ليتخلص من ضوء التلفاز القديم، الذي اشترك مع الأتربة العالقة في الهواء ليعطي المكان هالةً سيرياليةً كئيبة.

شقة متناهية الصِغر. إلى يمين الصالة مدخل مفتوح لمطبخ صغير به أقل القليل من الأدوات. بعد المطبخ باب لغرفة أصغر منه بها سرير فقط، ثم حائط يربض أمامه بيانو متهالك. في الجهة المقابلة للمدخل يمتدّ ممرٌ مظلم بطول أمتار أربعة ممتلئ عن آخره بأشياء تعوق الحركة فيه بسهولة، كأن من وضعها لا ينوي استخدامه سوى كمخزن. إلى يسار المدخل غرفة مضاءة بمصباح زيت وقد جاء منها صوت:

- مين؟

سألت المرأة العجوز التي استندت على قائم فراشها المعدني. أن السرير المتهالك وهي تنهض لتخرج من غرفتها إلى الصالة.

- أنا يا أمي.

كان رده بنبرته الهادئة وهو يضع الكيس فوق الطاولة التي تتوسط الصالة والعبوة نصف الممتلئة أسفلها. تحسست المرأة طريقها فتقدم إليها ليقودها إلى الطاولة.

- أنا عارفة طريقي، أنا عارفة طريقي. حمد الله على السلامة يابني. طوّلت عليّا المرة دي.

- معلش يا أمي. ما بشغليش عنك إلا الشديد.

- ربنا يهون عليك كل شديد، معلش يابني. كثر خيرك برضه. إنت ربنا عوضني بيك عن عيالي اللي زهيتي ولا سألوا فيّا. ربنا يسامحهم. بس الدنيا لسه فيها خير.

- خير؟

قالها هازئًا فأردفت:

- طبعًا، إوعك تبطّل تفكر كده. الطيب بيشوف كل الناس طيبين. وأنت أهوه، سِبْت حالك ومحتالك وجاي تراعي واحدة عامية لا من لحمك ولا من دمك.

أطرق ولم يُعقّب فغيرت الموضوع قائلة:

- جبت الدوا؟

حانت منه التفاتةٌ للباب الخشبي القديم الذي يظهر بالكاد فى نهاية الممر المظلم، ثم التفت إليها وتغيرت نبرة صوته ليستبدل بالهمّ حماسًا غير حقيقي وقال:

- جبتلك الدوا. وجبتلك حاجات تانية كتير. هفرِّجك.

تحسّست بيدها الكيس والذي بدأ هو يفرغ محتوياته. ثم نظر في الساعة ليتلاشى الحماس المزيف دفعةً واحدةً ويحلّ عليه الوجوم. تركها تستكشف ما جاء به وتشكره عليها قطعةً قطعةً وذهب للبيانو القديم الرابض في ركن الصالة الرطبة. لقد كان هذا البيانو السبب في وجوده هنا، كان هو ما سمعه يئنُّ في عتمة الليل منذ سبعة شهور بالتمام والكمال. هو ما دلّه على تلك العجوز الحانية التي نهشها المرض وأظلمت حياتها بالوحدة، أكثر مما هي مظلمة، بعد أن هجرها أبناؤها.

جلس أمام المفاتيح المتشققة وتحسّسها بأنامله قبل أن ينظر في ساعته مرةً أخرى.

- مالَك يابني؟

تجاهل سؤالها وظل يتابع عقرب الدقائق قبل أن يضغط على أحد المفاتيح. ثم أغلق عينيه.

وفي نفس اللحظة التي صرخت فيها النغمة اهتزَّ البيت والحي، بل القاهرة بأكملها إثر الانفجار الفرؤع. لطمت العجوز على صدرها واستندت على ظهر الكرسي العالي وهي تصيح:

- يا لهوي، زلزال؟؟

لم يُطمئنها الزائر الغامض، ولم يُجِبْ تساؤلاتها، بل بدأ يعزف. عبس بشدة وأحكم إغلاق عينيه كأنه في حالة نشوة وشجن قبل أن يستحضر مشهدًا ظلّ يخطط له لشهور.

بدأ يتخيل تفاصيله، صرخة صرخة. يعلم أنه لم يَكُن لدى ركاب قطار الإسكندرية ولا أيٍّ ممّن كانوا على الرصيف 3 أدنى فرصة.

ابتسم.

مقطوعة حزينة، عالية النغمات، يعزفها بكل وجدانه.

يعلم أنهم لم يحاولوا حتى أن يَنجُوا بحياتهم البائسة. ولو أبطأ الزمن حتى يتخيّل تفاصيل ملحمته، لرأى تلك السحابة البرتقالية المتوهجة التي تنتقل من عربةٍ لأخرى وتنساب بين مقاعد القطار كثعبانٍ هائل. نيران تزداد حجمًا مع كل ما تلمسه، مع كل من تضمّه إلى جحيمها المستعِر دون أدنى مقاومة منه.

أطاعته مفاتيح البيانو وذابت بين أصابعه، استسلمت لمشاعره الجيّاشة التي جعلت دموعه تتلألأ في عينيه في تناقضٍ مؤلم مع ابتسامته.

يحدّق في أعينهم جميعًا، المسافرين، لا يرى فيها ذعرًا أو حزنًا... أو أملًا.

لا يرى إلا الرغبة في الخلاص.

ترتفع نغمات البيانو لتنحر في صدر العجوز العمياء فتبكي في صمت.

وتزداد ابتسامته عرضًا حتى بدأ يبكي معها.

حازم

الحياة فرص، فهي لن تقف عليك، ولن ترحم الضعيف. الحياة هي أن تأكُل قبل أن تُؤكَل، والبقاء فيها للأقوى، فإما أن تكون فريسةً في هذه الدنيا، أو صيادًا.

حِكَم علمتني إيّاها دروس قاسية، أرشدتني إليها بكل غلظة وفجاجة حتى صارت نواميس أؤمن بها وأبرع في تطبيقها. وفي المقابل خسرت الكثير، سواء الترقية التي تأخرت، الشمعة التي تلطّخت، أو الصحبة التي تُبدِّلت، لكنني الآن أصغر ضابط في الداخلية يصير مليونيرًا. وهذا ليس سوى البداية، ولو وقف أحد في طريقي، سأسحقه.

ولقد حُبِيتُ بمواهب وصفات أعانوني على الوصول لما أنا فيه الآن، مميزات تعلمت أن أستغلها لخدمة مصالحي الشخصية فقط. وَاهِمٌ ضعيفٌ هو مَن يؤمن بغير ذلك، سأدُجّ مَن يعتقد أن هناك قضية تستحق التضحية من أجلها، كل ما تعلمناه في الكلية وما تربينا عليه من مُثُل ليس سوى شعارات جوفاء. كُنْ لنفسك فقط.

فأنا عملاق، حرفيًا، طولي يقترب من المترين من العضلات والإرادة. قلبي لا يعرف الخوف، مهاراتي في التعامل مع الأسلحة بأنواعها لا تُضاهَى، ولديّ عقلية استراتيجية تُمكِّنني من التعامل مع أي خطر. حين كان اسمي يُذكَر لعدوٍّ أو عنصرٍ إجرامي كان يرتجف. حتى قررت يومًا أن أتوقف عن القتال، رميتُ سلاحي واستدرتُ عائدًا حين أدركت أن صراع الحق والباطل ليس به جانبان فقط. حين أدركت أن اللون الرَّمادي هو السائد، أن المحارب في هذه الدنيا هو الخاسر، أن الخيانة والخسّة والمصلحة الشخصية أصبح لها أسماء أخرى، أصبح لها أقنعة أكثر جمالًا.

telegram: @alanbyawardmsr

أين ذهب ضميري؟ هكذا سألتُ نفسي، فأجابتني: لقد قتلته، فتوقفت عن السؤال.

والسبب؟

... ليلة سقطت فيها كل الأقنعة.

وها أنا ذا أمسك بفرصة جديدة، "مصلحة شخصية" أسميتُها "خَيَازًا"، فلو لم آخذه لاقتنصه غيري. فأنا صياد ولست فريسة.

أقف بقامتي الفارهة منفردًا بأحد زملائي في تراس فيلّا وهبة بالقاهرة الجديدة، أنتظر رده على عرضي، عملية مضمونة سيجني مَن يُسهم فيها أرباحًا هائلة. انحنى عليّ رائد الشرطة الثلاثيني كثيف شعر الوجه والأذرع ذو الملامح الأفريقية المتضخمة هامسًا لي:

- مش عارف يا حازم. هقولُه، بس معتقدش إنه هيدفع أكتر من خمسمية وتلاتين مليون.

وبعدين مينفعش تغيّر اتفاقك بالمنظر ده. إنت مش قلت خمسمية وعشرين؟ الناس دي مش هبلة برضه.

هرشت في فَوْدَيّ الكثيفين كعادتي حين أريد الإيحاء بالتفكير، فقد كان هذا العرض جزءًا من خُطة مُحكَمة. حين يدرك الممول الأكبر في هذه العملية أن هناك تعديلات حتمية في المشروع أكثر ربحًا من أصله سيرضخ لطلبي كي لا تئول لغيره. وحينها ستصبح عشرةُ الملايين الإضافية عشرين.

كان ضيفي يتابع الخفير الذي كان يختلس إلينا النظر، ذلك الفلاح الأسمر الذي ظل يروي شُجيرة الليمون لأكثر من ربع ساعة، حين انتبهت إلى صوت أمي يأتي من خلف البيت. ظهرت بعدها بصحبة طفل وطفلة أسمرين يحملان أصيصَي زرع. تبدّلت ملامحي. طفقتُ أتابعها ببنيتها الرقيقة وشعرها الكستنائي القصير الذي غزاه الأبيض وامتعضت مغتاظًا من ردائها البسيط. فهي لا تريد التمتع بما وضعته تحت قدميها من ثروات، لا تنفكُّ تثير حنقي بكلامها عن زمن كنّا فيه أكثر راحةً، وفقرًا. تنحني لتحفر بمعول صغير عند السور وتشير لطفلَي الخفير كي يضعا حملهما في الحفرة.

- ها يا حازم، قلت أيه؟

ألنتُ ملامحي وفككتُ عقدة حاجبيّ الكثّين مرةً أخرى لألتفت إلى زميلي الذي لا يصل إلى كتفي:

- مافيش مشكلة. هاتهم وربنا هيبارك يا عمّ عوني.

تردد عوني للحظةٍ ونقل نظراته المُتشكّكة بيني وبين الخفير الأسمر وهو يقول:

- هو الجنايني ماله؟ عمّال يبصلنا كِده ليه؟

التفتُّ إلى الخفير الأسواني رفيع البنيان لأجده يراقبنا فناديته.

- فيه حاجة يا رجب؟

وكأنه كان ينتظر السؤال، رمى رجب الخرطوم وهُرع إلينا.

- حازم باشا، بفكّر جنابك بس.

- تفكرني بأيه؟

سألته وأنا أجلس واضعًا ساقًا فوق الأخرى. رمى الضيف بنظرة محرجة فشجعته قائلًا:

- قول يا رجب. عوني زيّ أخويا.

- بس يا حازم باشا...

- انجز يا رجب.

تنحنح وهو يقترب ليهمس:

- بفكّر جنابك بحالة الجماعة. كنت وعدتني هتكلملها حد في مستشفى الشرطة.

- ماشي يا رجب. زُوح انت.

قلتُها وأشرتُ له بالذهاب ففعل ووجهه محتقن من الإحراج. التفتُ مرةً أخرى لأمي التي كانت لا تزال توجه طفلَي رجب في صبرٍ وحنانٍ لأفضل طرق زراعة الورد، لكنه لم يمنعها من أن ترميني بنظرة جانبية نارية. رجب تربّى وترعرع في بيت آل وهبة كأنه فردٌ من العائلة فقد كان جده خفير جدي رياض باشا وهبة، الذي كان حكمدار القاهرة في يومٍ ما. توارثت أجيال أسرته المهمة بعد أن جاؤوا من أسوان وانتقلوا مع العائلة أينما ذهبنا. أمي نفسها تعامل رجب كأنه ابنها الثاني وأبناءه كأحفادها. لكن رجب لا ينتقي الأوقات المناسبة للسؤال، دومًا يلحُّ ويُكرِّر.

- عايز أيه ده؟

- مراته عندها مرض مش عارف أيه. قصة كِدَه بقاله بيزنّ عليها شهور. سيبك. هتعرف تقنع الألوسي بنسبتنا الجديدة؟

- ما بلاش طمع يا حازم. اللعب مع الناس دي مخيف. كفاية خمسة في المية. ريحتنا هتفوح.

- لا مش كفاية. قولُه بس ومَلِكش دعوة. هو عارف إن المكسب في العملية دي مش فلوس بس.

هكذا أجبته بكلّ ثقةٍ ونهضت لأودعه. بعد رحيل عوني وقفت عند باب الڤيلّا أرمق رجب لأجده يتفادى النظر إليّ. كنت على وشك أن أنادي عليه لأنهره على إلحاحه لولا أن سمعت أمي تناديني:

- وبعدين معاك يا حازم؟

تنهدتُ بعمقٍ وانتفخ صدري العريض وأنا أتقدم إليها محاولًا المزاح.

- وبعدين معايا يا تيسير هانم؟

تأمّلتني لوهلةٍ كأنها تبحث في ملامحي الغريبة عليها عن ابنها قبل أن تقول:

- عمرك ما كنت أناني كده. ده إنت يوم ما دخلت كلية الشرطة رجعتلي وقلتلي: "أخيرًا هعرَف أجيب حق الضعيف". أنا فاكرة الكلمة دي كويس لاني بصّيت لأبوك لقيت على وشّه فرحة وفخر مشفتهاش عليه من ساعة ما الوزير كرّمه.

- المحاضرة بتاعة كل يوم. عايزة أيه يا أمي؟

قلتُها بضجرٍ فهزت رأسها وصاحت غاضبةً في تناقضٍ هزلي مع بنيتها الضئيلة. انتصبت متأهبةً توبخ ابنها الذي لا تصل إلى وسطه، هي الوحيدة في الكون التي لا تهابني:

- المحاضرة اللي بتفكّرك بأخوك رجب. أيه اللي حصلّك وغيّرَك كِدَه يا بن اللّوا عزيز وحفيد رياض باشا وهبة؟ الواد يا عيني بقاله شهور بيتحايل عليك علشان مراته العيانة. خلّي عندك دم وشوف لها مكان في مستشفى الشرطة.

ما الذي غيّرني هكذا؟ يا ليتني أستطيع أن أخبرك يا أمي.

***

احتدم النقاش بيننا طيلةَ اليوم وامتد لليوم التالي حتى وصل لطريقٍ مسدود. تطلب مني سرعة الاستجابة لمطلب رجب بينما تمسكت بموقفي وإرجائه حتى الانتهاء من العملية الحالية، فأنا لا أريد أن ألفت لي العيون بأي صورة. فما كان منها إلا أن قالت إن "العمليات المهمة" لا تنتهي وكذلك حججي وأعذاري. في النهاية نهضت من أمام مائدة الغداء لأتركها في التراس وقد اغرورقت عيناها بالدموع. نهضت هي الأخرى وألقت بالمنشفة على المائدة، وهي تهدد بأنها ستساعدهم بمالها الخاص.

- حازم بيه!

التفتُ لمصدر النداء لتقع عيناي على ضابط أسمر برتبة رائد ينزل من سيارته أمام البوابة. يرفرف بذراعيه على جانبيه كمحاولةٍ بائسةٍ أن يبدو أعرَض جثةً في تناقضٍ مثيرٍ للشفقة مع بنيته شديدة الهُزال.

- جِجي باشا، مباحث عامة.

هكذا عرّف نفسه قبل أن يُدخل يده من بين قضبان البوابة ليصافحني. بحلقت في وجهه لثوانٍ طويلة.

- حد يقول على نفسه باشا برضه؟

- لا أنا اسمي كده.

- اسمك حِجّي باشا؟

هز رأسه ببساطة جعلتني أتحكّم في نفسي بسرعة كي لا أبتسم. يا له من اسم عجيب، يليق بصاحبه الأكثر عجبًا. مددتُ يدي لألتقط كفّه لكن حِجّي كان قد سحبها وأدخلها في فتحة أخرى. وما إن رأى يدي الممدودة في الفتحة الأولى حتى جذب يده ليسلم عليّ. كنت قد أخرجت يدي بالفعل وذهبت بها إلى الفتحة الثانية. عاد حِجّي للفتحة الثانية وهكذا ظللنا نطارد بعضنا حتى أنزلت يدي واحتقن وجهي الضخم من سخف ما يحدث.

- استنّى يا حِجّي بيه، خلّيني أفتح البوابة الأول.

أنزل يده محرجًا وانتظر حتى فتحت البوابة ووقفت أمامه بجثتي التي ترتفع فوقه بما يقترب من نصف المتر. لوهلةٍ تأملته قبل أن أضغط على حروفي قائلًا:

- هتقول حاجة ولّا هتفضل ساكت يا حِجّي بيه؟

أنزل يديه من جانبيه وهتف:

- أيوه صحيح. العميد الشناوي عايزك.

- أيوه صحيح؟ وبتقولها ببساطة كده؟ العميد الشناوي مساعد رئيس المباحث؟ ومَحدّش كلمني ليه على الموبايل؟

هز حِجّي كتفه وعلى وجهه ابتسامة بلهاء غير مبرّرة، فأشرت للسيارة الرابضة أمام البوابة مستسلما.

- الشناوي مرة واحدة؟ ربنا يستر. اتفضّل يا حِجّي بيه، هَزوح معاك.

قلتها وفتحت باب سيارة حِجّي لكن قبل أن أركبها لمحت أمي ترمقني من عند غرفة رجب بنظرةٍ تنضح باللوم. هزت رأسها ولوّحت بكفّيها كأنها تخبرني أن الغرفة خاوية، فزفرت في ضيق والتفتُّ إلى زميلي قائلًا:

- متعرفش العميد الشناوي عايزني في أيه؟

- بيقولوا فيه حاجة حصلت في محطة مصر.

***

دلفت غرفة الاجتماعات الكبيرة، وخلفي حِجّي باشا هذا، لأجدها ممتلئةً عن آخرها.

صمتت القاعة والتقت النظرات علينا. على المنصة يقف عميد شرطة أبيض الوجه يشوبه بعض الحمرة ذو شعر رمادي مُصفف بعناية. العميد الشناوي، بحجمه الذي يضاهيني ضخامةً إلا من امتلاء خفيف حكم به سنه. بجواره لمحت ضابطا متوسط الطول وسيم الملامح عريض الفك والمنكبين برتبة مقدم يقف مواجهًا الحضور. أعرفه حق المعرفة، ذلك الرأس الحليق صغير الحجم الذى يرتكز على رقبة غليظة أعرض منه وتلك النظرة الحادة. منعم الكاشف، ذفعتي وزميل وحدة مكافحة الإرهاب الذي يُذكّرني وجوده أمامي الآن بترقيتي التي تأخّرت حتى يئست منها. يذكّرني بأشياء كثيرة كنت نسيتُها.

telegram: @alanbyawardmsr

التقت نظراتنا لجزء من الثانية ظننته دهرًا قبل أن يرفع منعم ذراعه مفتولة العضلات ليشير لنا بالجلوس دون جلبة. داريتُ حنقي منه وانصعت مخترقًا الصفوف مُحدِثًا فوضى لا بأس بها بحجمي الضخم. ظل جِجْي ملتصقًا بي كرضيع الحوت مع أمّه وسط همهماتٍ واعتراضاتٍ من الموجودين. ما إن اتخذنا مجلسنا حتى أشار منعم للعميد الشناوي كي يكمل ما كان يقول وتراجع بكياسة تاركًا له دفّة الحديث.

- ملخص سريع للباشوات اللي لسّه مشرّفينا دلوقتي: من ساعة حصل حادث قلب الدنيا. رصيف كامل في محطة مصر ولّع باللي فيه. كان فيه قطر واقف حصلت فيه برضه إصابات ووفيات. التحقيقات لسه فى أولها ومفيش لغاية دلوقتي دليل مادي نستند عليه يثبت الشبهة الجنائية أو يقول إنه نتيجة إهمال.

توقف عن الكلام فنهضت واتجهت لباب القاعة.

- رايح فين يا سيادة الرائد؟

سألني العميد الشناوي بصوتٍ اختلط فيه الغضب مع الغلظة فتسمّرت مكاني والتفتُّ إليه:

- واضح إن الرائد جِجْي ناداني بالغلط سيادتك. أنا فى جهاز المشروعات. مليش علاقة بالحوادث دي.

- اقعد مكانك تاني يا سيادة الرائد.

قالها الشناوي بحزم فأطعته وجلست مكاني وسط المزيد من الهمز واللمز. تقدم المقدم منعم ليسكتهم بحزم قائلًا:

- وبعدين؟ إحنا فى مدرسة؟ مش عايزين صوت يا بهوات.

انتظر حتى سكنت القاعة وتراجع لموقعه وهو يومئ للعميد الشناوي. رغم فارق الرُّتب فإن كاريزما منعم حفظت له هيبته بجوار رئيس القطاع. أخذ الشناوي نَفَسًا عميقًا وهو يشير

للحائط الأبيض خلفه:

- شغّل البروجيكتور يابني. وطفّي النور. مقدم منعم، اتفضل اشرح.

أطفأ أحد الضباط النور وأدار الآخر البروجيكتور بينما تقدم منعم ليقف في منتصف المنصّة بجسده الشبيه بلاعبي كمال الأجسام، قائلًا:

- دي صور للحادث. طبعًا كلنا شفناها على النّت وفي التقارير. معظمها زي ما إنتوا شايفين مناظر صعبة لناس بتتحرق.

استمر عرض الصور شديدة الحساسية والعنف حتى شعر أن الضباط قد اكتفوا إن لم يكن بعضهم على وشك القيء، قبل أن يأتي سؤال من أحد الضباط برتبة رائد ليشتّت انتباههم:

- الوفيات قَدّ أيه سعادتك؟

- ملكش دعوة!!

هكذا صاح المقدم منعم قبل أن يستطرد:

- مَحدّش يقاطعني. الموقف مش مستحمل.

ابتلع الضابط الإهانة دون أن يحاول الاقتصاص لنفسه وتحول المكان إلى لوحة صامتة.

- أكمّل ولّا حد عايز يقاطعني تاني؟ الموضوع كارثي لأبعد الحدود. أنا تم تكليفي من السيد مساعد الوزير علشان أقود وحدة تحقيق منفصلة. التحقيق الأساسي هيقوده العميد الشناوي شخصيًا. مهمتي أنا ووحدتي هتكون تتبع خيط رفيع جدًا. عايزكم تركزوا معايا في الفيديو اللي جاي ده. هات الفيلم الأخير يابني.

فى تركيز تام شاهد الضباط الفيلم الذي لا تتعدى مدته دقيقتين والذي جاءت نهايته لتصيبهم بالذهول.

- خلاص اطفي البروجيكتور وولّع النور.

قال منعم ثم ضم قبضتيه واستند عليهما قائلًا:

- المرة دي يا بهوات عندنا خيط.

***

- منعم.

توقف منعم وسط الممر واستدار إليّ.

- فيه أيه يا حازم؟؟ هتجري ورايا لغاية المكتب؟

مططتُ شفتيّ كاظمًا غيظي وقلت:

- أنا عايز أعرف أنا عملت أيه؟ ليه طلبتني؟

استكمل منعم سيره قائلًا:

- مش أنا اللي طلبتك. شوف عملت أنهي مصيبة وزغّلت مين علشان يجيبوك معايا. وفي القضية دي بالذات.

- عظيم، يبقى أستأذن أروح أشوف شغلي.

قلتُها وأنا شبه أركض وراءه رغم فارق الطول.

- هو بمزاجك يا سيادة الرائد ولّا أيه؟

هكذا زمجر منعم بعد أن توقف مرةً أخرى. بهتُّ من رد فعله وأنا مَنْ أنا في هيبتي وحجمي، فتوقفت قائلًا بزمجرةٍ مماثلة:

- جرى أيه يا منعم؟ إنت ناسي إننا دفعة واحدة؟ بتتكلم كِدَه ليه؟

تأملني منعم للحظةٍ ثم أشار لكتفي قائلًا:

- مش شايف على كتفك نجوم يعني. يا ترى ليه؟

ازداد احتقاني وبحثت عن ردٍّ أفحم به زميلي القديم لكنني لم أجد ولم يستفزّني منعم أكثر من هذا. أمسك مقبض الباب الذي وقفنا أمامه، الباب الوحيد الذي لا توجد عليه لافتة توضح منصب صاحبه.

- تعالَ معايا.

أطعته على مضضٍ ودلفت خلفه ثم أغلقت الباب.

- اقعد.

قالها منعم ثم اتخذ مجلسه على أحد الكرسيين المتقابلين أمام المكتب وأشار للآخر. منعتني كبريائي من الانصياع لأوامره على الفور، لكني أعلم أن الموقف لا يحتمل مشاحنات فجلست قُبالَته على مضضٍ وسألته بتحفُّز:

- إنت ماسك أيه بالظبط؟ وليه مفيش على بابك يافطة؟

نهض منعم وذهب لوحدة الأدراج الوحيدة في ركن الغرفة شبه الخاوية. نزل ليجلس القرفصاء حتى يصل إلى الدرج السفلي وفتحه. التقط ملفًا جلديًا أسود سميكًا ثم نهض ليعود مكانه. ألقاه بيننا قائلًا دون أن يعير لسؤالي بالًا:

- الملف ده مليان قضايا وكوارث زي بتاعت القطر، قضايا اتفتحت واتقفلت ميت مرة خلال الڤص قرن اللي فات. وكل مرة تتحفظ لعدم وجود أي خيوط تدل على إن الحوادث دي بفعل فاعل.

نظرت للملف دون أن أمدّ يدي إليه كأنني أخشى أن يلدغني. تحسّس منعم كلمة "المايسترو" المكتوبة عليه ثم مد يده ليفتحه ويداعب الأوراق والصور المتراصّة بنظام بداخله وهو يفكر. رماني بنظرةٍ طويلةٍ كأنه يقيم أمرًا ما قبل أن يتخذ قراره ويدفع بالملف السميك ناحيتي. ترددتُ قبل أن أمدّ يدي لكن نظرةً صارمةً من منعم مصحوبة بإيماءة واثقة جعلتني ألتقطه.

- المايسترو؟

تساءلت بخصوص العنوان الغريب فأومأ منعم برأسه كي أجاريه وقال:

- موسيقا بيتهوفن عامل مشترك بينهم كلهم. سيبك من الاسم. خد لك نظرة سريعة.

تصفّحت الملف السميك على عجالة ووجدت فيه تشكيلةً من حوادث قديمة: قطار الصعيد، عبّارة السلام، احتراق أتوبيس، مبانٍ تهدمت فوق رؤوس سكانها إثرَ انفجارٍ ما، قاعة سينما أو مسرح احترقت بمَن فيها... إلخ. وصلت للجلدة الأخرى بسرعة وأغلقته سائلًا:

- مش فاهم!

- الحوادث دي كلها مرتبطة ببعضها يا حازم. وحادثة القطر كمان.

- علشان الموسيقا؟!

سألت مستنكرًا فحدّق في وجهي لوهلةٍ قبل أن يُطلق شهيقًا أجشّ ويقول:

- الحقيقة أنا مكنتش أتمنى تكون دي أول قضية تشتغل عليها معايا.

- اشمعنى؟

- لأنها من نوع القضايا اللي ممكن تقلب حياتك كلها.

- يبقى أرجع قسم المشروعات.

- انسى.

قالها منعم بقسوة وهو يرجع بظهره العريض ليستند على الكرسي. فار دمي مرةً أخرى وقلت:

- أنسى؟ ليه إن شاء الله؟ مش إنت لسه قايل إن مش إنت اللي طلبتني.

قال منعم ببرود:

- حازم، أنا أكتر واحد عارف شمعتك وأصلك الطيب. أكتر واحد عارف تاريخ عيلتك والخسارة اللي خسرناها لما اتحولت بالشكل ده بعد المهمة إيَّاها. بس واضح إنك زعّلت ناس مهمة منّك ونقلوك معايا هنا. ومتسألنيش مين، لأني معرفش.

- لو أنا ريحتي فاحت زي ما بتقول ما قدمتونيش ليه للمحاكمة؟

قلتُها وأنا أرتجف من الإثارة والغضب لكنه أجابني بهدوء:

- يمكن حد لسه شايف فيك أمل. زيّ ما أنا لسه شايف.

أطرقت ولم أعقّب بعد أن سكب فوق بركاني أطنانًا من الثلج.

- روح مسرح الحادث يا سيادة الرائد ووافيني بالتطوُّرات لحظة بلحظة. وافتكر اللي شُفته في آخر فيديو، ده أهم حاجة، امشي ورا الخيط ده.

نهض ليضع الملف مرةً أخرى في وحدة الأدراج وهو يقول:

- ولو تاخد رأيي، وجودك هنا في الأغلب هو آخر إنذار ليك يا حازم.

انتفضتُ واقفًا بعنفٍ لأغادر. لم أعطِ التحية لقائدي الجديد الذي تابعني ببرودٍ حتى أغلقت الباب خلفي. استقبلني جِجي لحظة خروجي فتأفّفت وتجاهلته متعمدًا لكنه ركض ورائي وهو ينادي عليّ. قطعت ردهات المديرية بخطواتٍ سريعةٍ غاضبة علّها تبرد ناري، لكنني لم أهدأ إلا حين أصبحت في جراج السيارات. وهناك دارت في رأسي أفكار عديدة.

مَن الذي رشحني للانضمام لوحدة منعم الغامضة؟

وكيف سأتمكّن من تدبير أمر العملية الأكبر والأهم في حياتي وأنا خارج إدارة المشروعات؟ بماذا سأخبر المموّلين؟ والأخطر من ذلك هو مَنْ لجأت إليه ليشارك بنصيب الأسد، ذلك القرش الأبيض الذي لا يرحم.

لا مفرَّ إذًا، لُنْهِ قضية القطار هذه بأسرع وقت قبل أن ينفجر كل شيء في وجهي.

انتظرت خروج حِجّي من مبنى المديرية وبدأت أستعيد في ذاكرتي محتوى الفيديو الذي ذكره متعم.

هناك رجل وامرأة تركا القطار وغادرا الرصيف على عُجالة، قبل الانفجار بثوانٍ. مصادفة ليس لها سوى تفسير واحد.

هـو

على جانب الطريق قبعت السيارة الفيات البيضاء. جلس سائقها أمام المقوّد يتابع على شاشة هاتفه المحمول فيديو وضعه أحد الناجين من حادثة القطار على إحدى المنصّات الشهيرة. فيديو مدته لا تزيد على الدقيقتين يُرى فيه سليم وهو ينزل من القطار وخلفه بثوانٍ تنزل عايدة. أوقف عرض الفيديو ورفع عينيه إلى الطريق أمامه. جزّ على أسنانه. اعتصرت قبضتُه مقوّد السيارة وبدأ يتحرك بها مرةً أخرى.

هذ الغضب الذي يشعر به. كيف أفلتا من قبضته؟ كيف سمحا لأنفسهما أن يخرجا عن النص؟ أن يُفسدا إيقاع سيمفونيته المثالية؟ كيف؟؟

بدأت سيارته تكتسب سرعتها ومعها يزداد غضبه.

ثم التقطت عيناه شيئًا. هذا الجرو الصغير الذي يعرج بجوار الرصيف. كَمْ هو مسكين، هذا الجرو، كَمْ يتألم من الجوع والوجع، وكم سيتألم في حياته. وكم هو غاضب. انحرافة بسيطة من مِقوَد السيارة سمع بعدها صريخًا واهنًا لم يستمر سوى ثوانٍ. أوقف السيارة بعدها بأمتار ونزل عائدًا. صاح أحد المارّة أنه دهس الجرو مُتعمّدًا وأيّده آخر بسِبابٍ ولعناتٍ أطلقها على السائق. لكنه لم يهتم. رفع الجرو المحطم برفق ووضعه على الرصيف. انحنى ليجلس أمامه على ركبتيه. أخذ يمسح على جثته بحنان قبل أن تسيل دموعٌ صامتةٌ على وجهه وتسقط عليها. مشهد جعل مَنْ كان حانقًا عليه منذ ثوانٍ يراقبه في ذهول.

إنه يتحدث معه.

سليم

يقولون إن سائق القاطرة تعمّد قيادتها بسرعة عالية وقفز منها قبل أن تصطدم بالقطار. يقولون إن هناك عبوات وقود مخصوص سريع الاشتعال كانت متراصّة في نقطة التصادم وهي ما فتحت أبواب جهنّم.

يقولون إن هناك وحشًا طليقًا بيننا.

مَن يفعل شيئًا كهذا؟ كيف يمكن لعقلي، درعي الذي يحميني من جنون العدم، أن يفسر هذه الوحشية؟ كيف يمكنني أن أتعايش مع مثل هذه الفوضى والعشوائية؟

أخُلق الكون كله فعلًا لمخلوقٍ واعٍ قادر على ارتكاب هذا الجنون؟

في المستشفى الذي أعمل به – والذي كان قريبًا من الحادث – انقلب الحال تمامًا. عربات إسعاف تنقل المصابين وأخرى تُهرع لإحضار المزيد بينما عكف طاقم الأطباء والممرّضين على استقبال الحالات وسط الفوضى والذعر الذي أصاب الجميع. حتى الموظفون، تركوا مكاتبهم ومَهامَّهم للمساعدة في احتواء الكارثة التي لفظت قُبحها في أروقة المستشفى.

النار. الذوبان. الصُراخ... والرائحة. آباء دامعو العيون منقطعو الأنفاس يبحثون عن بقايا أبنائهم. أمهاتٌ منهاراتٌ في ركنٍ يحتضنّ الجدران. إخوة ذاهلون عاجزون عن التصرف أو حتى التفكير.

مشهدٌ قاتلٌ للآدميّة.

في وسط كل هذا كنت أقف كالتمثال، الدماء تلطّخ بياض ردائي ونظرتي التائهة في الوجوه الملتاعة تبحث عن أجوبةٍ لأسئلةٍ لا ترحم.

وقلبي كأنه صُبَّ من حجر.

لماذا لم ينفطر من هول ما رأيته؟ لماذا لا أشعر بشيء؟ كيف لا أبكي دمًا مع الأهالي الثّكالى؟

فقط عقلي هو الذي كان يعمل بكل طاقته حتى كاد أن ينفجر، حيرةً وغضبًا. عبثًا حاولتُ العثور على السّكينة كي أفهم ما يحدث، حاولتُ الثبات وسط الارتباك الذي ساد استقبال الطوارئ وامتدّ لجميع طوابق المستشفى. كنتُ دومًا ممن يرفعون المنطق فوق كل شيء، مُعتدًا بآرائي، فَخُورًا بقدرتي على التحليل. قائد حربي لجيش من فرد واحد، بسلاح واحد: العقل. لكن كيف سيبرر لي هذا العقل ما حدث أمام عينيّ؟ مَن يفعل شيئًا كهذا، ولماذا؟

لماذا؟؟

انزويتُ مبتعدًا عن العيون، تقهقرت إلى ركنٍ ضعيفِ الإنارة، ووقفت شاخص البصر. ثم ضممتُ قبضتي وضربت صدري، أريد إنعاشه، لعلّه ينبض من جديد. لكن لا شيء، كأني ضربت جدارًا أصمّ. خَدرٌ لعينٌ يسيطر على كل شيء. هذا ليس أمانًا، تلك الحيادية الرمادية كالصقيع، بل سجن، قضبان تحبس كل المشاعر ولا تفلت منها التنهيدات. شعور خانق كالدفن حيًا.

ضربت صدري مرةً أخرى. نفس النتيجة. كأني صعدت فوق حطام أطلال مهجورة لا حياة فيها وناديتُ بأعلى صوتي.

تدريجيًا بدأ كل شيء يفقد معناه ولم يغد أمامي إلا أن أغادر، أهرب، أنفذ بجلدي وعقلي قبل أن يُسلِم نفسه للجنون. لكن قبل أن أضع قراري هذا رهن التنفيذ، قبل أن أنتزع عن جسدي المنهك درعه الأبيض وأمزقه ألف قطعة، قبل أن أصرخ في وجه الجميع أن كل شيء قد صار عبثًا وخبالًا لا معنى له...

لمحت بطرف عيني ذلك الشيء الذي يقع على الأرض بجواري. بحثت حولي كالمجذوب محاولًا رؤيته، لكنه كان قد اختفى.

ولم يترك خلفه سواها.

شَعرُها البني ذو الصِّبَغ الذهبي ثائرٌ مذعور وعيناها الخَضْراوان تتباينان مع الخلفية الحمراء كالدم من أثر البكاء. تحاول مواساة وتهدئة أهالي المرضى، تحتضن أمًا هنا وتُربّت على كتف أبٍ هناك، تبكي في صمت لبكائهم وتئنُّ لآلامهم. تفعل ما أعجز أنا حتى عن تخيُّله. كيف يمكنها فعل هذا؟ من أين أتت بهذه القوة؟ هذه الروح الهشّة قد تحولت أمام عيني إلى محاربة أسطورية، رغم جراحها لا تزال تنهض، وتواجه الموت.

كان مشهدًا... مَهيبًا، مدهشًا.

ظللتُ أراقبها حتى خارت قُواها، حتى نضب مخزونها من الشجاعة والتحمل. كقُطَيطة مبتلّة مذعورة، تقهقرَتْ بظهرها إلى ركني القصيّ، دون أن تراني بجوارها. مسلوبة الإرادة، جلست وهي تراقب الملحمة الكابوسية التي تحدث أمامها، عيناها الواسعتان جاحظتان من هول ما رأته ولا تزال تراه. حتى التقت بعينيّ. وللمرة الثانية في ساعاتٍ قليلةٍ التقينا على شيءٍ واحد. على نغمةٍ واحدة.

لم تشعر بتلك اليد التي امتدت لتجعلها تقف ولا بالممرضة التي كانت تصرخ بها سائلةً عن

حالها. وسط كل هذا الهزج والمزج لم تز سواي، لم تعرف غير وجهي، وبه تشبثت كي أمنحها شيئًا من الأمان.

لكن كيف أعطيها ما لا أملك؟

ما إن رأتني حتى انهارت في النحيب بصوتٍ عالٍ، كأنها طفل يلتقي بأبيه بعد أيام من اختطافه، فأسرعت إليها لأسندها كي لا تنهار مرةً أخرى. انتزعتها من الممرضة وجذبتها إلى إحدى غرف الرعاية المُركّزة المغلقة. لو كان هناك منطق في كل هذا حتمًا ستكون هي مصدره، سأعتني بها حتى لا أفقد الخيط الرفيع الذي يربطني بالواقع. جعلتها تستلقي على السرير وشرعتُ في فحصها سريعًا. بضعة رضوض وعُسر تنفُّس إثر الدخان والتوتر، هذا كل ما أصاب جسدها، أما روحها، فليس لدي أية خبرة لمداواتها.

اصمدي يا فتاة، اصمدي كي لا تنهار قلعتي.

- اسمك أيه؟

- عايدة.

أجابتني وعيناها متشبثتان بكل تفاصيل وجهي، كأنني مُخلِّصها. نعم، عايدة، كيف نسيت؟ فيما يبدو أنني لم أكن مُنصتًا من قبل. لكنني لستُ مُخلِّصك يا عايدة، لست مخلصًا لأحد. ربما الأمر في حقيقته عكس هذا، ربما جئتِ أنتِ لإنقاذي.

- كان ممكن تهربي يا عايدة، ليه عملتي كده؟ ليه فضلتي وسط النار؟

- مكنش ينفع... الغلابة... الطفلين الصغيرين... حرام... حرام.

- العالم كله بيتحرق. إنتِ مش هتنقذي الناس كلها. ده تهوُّر.

- لأ، هنقذهم. يا إما أموت وأنا بحاول!

هكذا أجابتني صارخةً من بين دموعها قبل أن تنهار مُجدَّدًا وتدخل في نوبة من النحيب الهيستيري. حتى المحاربون الأسطوريون، لهم قدرة على التحمُّل، بعدها يصبح سقوطهم مُروِّعًا. جذب الصراخ انتباه طاقم الطوارئ فاقتحم أحدهم الغرفة لأستقبله بأمرٍ سريع.

- اتنين مللي ميدازونين بسرعة.

امتثل الممرض للأمر وقام بحقنها حسب ما سمع. وكان آخر ما قالته عايدة قبل أن تترك أناملها يدي وتهوي بجوارها:

- فين الرح... رحمة؟

ثم ذهبت في شباتٍ عميق بعد أن تركتني مع أصعب سؤال.

حـازم

- متقلقش يا عوني. اتفاقنا زي ما هو.

هكذا همستُ عبر الهاتف وابتعدتُ كي أتكلم براحتي. حولي ازدحم محيط محطة مصر بالضباط ورجال للدفاع المدني والمطافئ والطب الشرعي، وفي وسط كل هذا لم يختر محدثي سوى هذا التوقيت لإصابتي بالتوتر.

- ماهو أنا لازم أفهم يا حازم. إنت دلوقتي مزنوق مع منعم في قضية ما يعلم بيها إلا ربنا والله أعلم هتخلص منها إمتى.

- القضية دي مش هتاخد غير يومين بالكتير. عندنا ڤيديوهات وشهود يسدوا عين الشمس. ومعانا خيط هيوصلنا للجاني في خلال ساعات.

telegram: @alanbyawardmsr

- ومين قالك إنك هتعرف ترجع تاني لجهاز المشروعات لما تخلص؟ الموضوع شكله إتشم يا حازم والناس عايزة فلوسها.

هتفتُ بعصبية وكدت أن أهشّم الهاتف بين أصابعي الغليظة:

- فلوس أيه يا عوني؟ إنت بتهزَّر؟ الفلوس دي اتوزعت على مِيت واحد والباقي دخل خزنة الوزارة. وبعدين مين قال إن الموضوع إتشم؟ بقولَّك أيه، جمِّد أعصابك واعقل.

- والألوسي يا حازم؟ الراجل ده مفيش حاجة بتستخبى عليه ومش هيسكت لو المشروع راح لغيره.

- هو عرف إني اتنقلت؟

لم أنتظر ردَّه بعد أن ظهر جِجّي أمامي من العدم، مثل عِفريت العُلبة. يحلق بذراعيه الهزيلتين بجانبه كي يبدو أكبر حجمًا وهو يَقطِّب حاجبيه محاكيًا نمط المحقق الحَذِق صعب المِزاس. أنهيتُ المكالمة مضطرًا واستقبلته قائلًا:

- يَلّا بينا يا كورومبو.

قطَّب جِجّي حاجبيه محاولًا فهم التعليق لكنني سبقته إلى مسرح الحادث، وما إن دخلت المحطة حتى تخشَّبت مكاني كالتمثال. فقط عيناي هما كل ما استطعتُ تحريكه فى مقلتيهما والقفز بهما من وجهٍ لآخر. فقد تحولت محطة مصر إلى موقعة حربية. ولم يَزِلِ البحث عن الضحايا وانتشال الجثث جاريًا.

أفراد من الدفاع المدني ينقلون الحطام ويزيلون آثار الانفجار والدماء وينقلون الجثث.

ممرضة تدفع ترولّي يرقد فوقه جزء علوي لشخص ما مغطى بملاءة بيضاء بينما تتدلى يداه المتفحمتان من الجانبين. طبيب يسابق طاقم المسعفين ليحقن إحدى الحالات بمحلول ما وينتقل لمصاب آخر ليفعل نفس الشيء. أسرة ثكلى تبحث عن فقيدهم وسط عشرات الحالات المماثلة لعائلات فقدت أفرادا منها.

كل هذا شلّ تفكيري ورجّه رجًا، فأنا لم أكن مستعدًا لهذا.

ثم لمحت حِجّي بطرف عيني يقف أمام الحائط المصمت خلف مكتب الاستعلامات المحترق، بلا شيء يفعله. اقتربت منه لأنتزعه من شروده لكني لاحظت ما ينظر إليه. آثار الحريق واضحة، كأنّ هناك انفجارًا صغيرًا قد حدث في تلك البقعة بالذات، أو ربما كان هناك إحدى عبوات الوقود عند ذلك الجدار. تأملت الظّلّ الذي تركته النار على الحائط، والذي كان زميلي الأبلَه ينظر إليه، يشبه كثيرًا الجناحين، كأنّ طائرًا ضخمًا كان واقفًا لحظة الانفجار أمام الحائط مباشرةً وترك هيئة ظله عليه وهو يهمُّ بالتحليق وسط السواد الذي خلّفته النيران.

انتزعني حِجّي من شرودي حين تفتّق ذهنه عن شيءٍ بذهنٍ وأخذ يكرر وهو ينظر حوله:

- كارثة، كارثة.

لويت شفتيّ ممتعضًا، وقد قررت أن يكون هذا ردّ فعلي الدائم لكل ما يقوله حِجّي أو يفعله، وقلت له بطرف أنفي:

- سألت عن موظفة الاستعلامات؟

- مش لاقينها.

انقطع حديثنا حين انتبهت إلى هذا الجسد متناهي الصِّغَر الملفوف في ملاءة ويحمله رجل مسكين وهو يعبر بجواري. هذا التعبير المرتسم على وجه الأب المكلوم، لا أعتقد أنني يمكنني أن أنساه ما دمتُ حيًا. كأن الصدمة التي مرّ الأب بها لتوّه قد حفرت نفسها على عظام وجهه لتغير ملامحه إلى الأبد. شعرت مع جمود ملامح هذا الأب أنه لم يبتسم في حياته قَطّ. لم يَعِش قط. كأن فقدانه لطفله بهذه الطريقة جعله يشعر بأنه قد شرِقَ منه معنى حياته ذاتها.

تسلّل إلى قلبي شعور مُقبِض، شعور بالضآلة أثار حنقي وغضبي أكثر مما كنتُ عليه. ثم أخرجني حِجّي من حالتي تلك حين بادرني قائلًا:

- آه صحيح. عرفنا هُويّة الراجل اللي نزل من القُطر.

لوهلةٍ تأملت وجهه غير مصدّق البساطة التي قال بها تلك المعلومة الصادمة ثم استدرك لاغادر قبل أن ألكمه.

سليم

أين الرحمة؟

لا. لم أنسَ هذا السؤال. كنت أقف في نفس المكان، في نفس الرداء، أرجو نفس الرجاء، لكن أصغر بأعوام، سنين لم أعُد أستطيع أن أحصيَها. ليلة من تلك الليالي التي تمضي تاركةً وراءها شخصًا مختلفًا عمَّن بدأها. ليلة سمعت فيها، في نفس المستشفى وفي القسم ذاته، النداء في الميكروفونات يطالبون الأطباء بسرعة الذهاب إلى غرفة سالم، شقيقي وتوأمي، كل مَن تبقَّى لي من لحمي ودمي على وجه هذه الدنيا. أذكر كيف قطعت ردهات المستشفى غدوًا حتى وقفت عند هذا الباب المزدوج بالتحديد، ذلك الذي ترقد خلفه عايدة الآن، أنتظر اللحظة التي سيظهر فيها مَن سيخبرني بمصير أخي.

حاولت بكل ما أوتيت من قدرة أن أتحكَّم في أعصابي، وحين تأكدت أنني لن أنجح دفعت الباب المزدوج ودخلت. لاحظَتْ نهلة - والتي كانت وقتها مساعدة استشاري التخدير - اضطرابي وجحوظ عيني في اللحظة التي اقتحمت فيها الغرفة. بكل جرأة وقوة صاحت في الأمن أن يسمحوا لي بالدخول بعد أن كانوا سيمنعونني حين رأوا حالتي.

- وسِّع يا جدع إنت، خلُّوه يدخل! ده دكتور الحالة.

هُرعت إلى أخي لأجده يعاني في التنفس بعد أن توقف الجهاز عن ضَخِّ الهواء في رئتيه. أمسكت يده وتَلَفَّتُّ حولي مذعورًا ودموعي تسيل بلا حرج. كانت فوضى عارمة. لم يعرف أحد ما حدث بالضبط ولا كيف توقف الجهاز. صرخت في التِّقنيّ أن يُسرع بإصلاحه ولكن الممرضة هتفت أن كابل الكهرباء الخاص به مقطوع ولن يتمكنوا من استبداله في الوقت المناسب.

حاولت إنعاش سالم بشتى الطرق لكن محاولاتي العشوائية المذعورة لم تنجح إلا بخلق المزيد من الفوضى والتوتر. ثم دخل الغرفةَ رئيس القسم ودكتورُ الحالة الحقيقي ليأمر الممرضين أن يأخذوني للخارج. قاومتهم بضراوة حتى أمسكت نهلة بيدي واحتضنتها كي أستجيب لها. نقلت بصري بينها وبين أخي فوجدت أن وجهه قد صار أزرقَ وعيناه الجاحظتان تنظران إليَّ مستنجدة.

تيقَّنت أنه كان يلفظ أنفاسه.

وكانت تلك هي اللحظة التي شعرت فيها بشيءٍ ما يحترق في عقلي، ماس كهربائي شرَرٌ في رأسي ليصيب أماكن منه بالشلل ويجعل أخرى تدبُّ فيها الحياة. كان الألم والحرقة

الكامنان في صدري على وشك الانفجار، ثم من دون سابقة إنذار... فقدت إحساسي بكل شيء. كالمَسيّر مسلوب الإرادة استسلمت لنهلة وهي تقودني خارج الغرفة وخارج عالم الأحياء.

تاركًا ورائي كل الألوان... إلى عالمٍ رَمَادِيّ.

وقفت في الردهة أحدّق في الباب المغلق، منعزلًا تمامًا عمّا يحدث حولي. عقلي يصور لي خلفه أبشع المشاهد.

كلًا لم أنسَ هذا السؤال، "أين الرحمة؟"

***

انتزعت نفسي من نفق الذكريات المظلم والتفتُّ إلى نهلة التي جاءت لترتمي بجواري منهكة وربّتت على ساقي بطريقتها الرجولية المحببة. تأملت وجهها الذي شكّلته الأيام وظلمته السنون فصار ممتلئًا كثير الثنايا، يُخفي أكثر مما يُظهر. لكنه جميل، بكل تفاصيله القوية وابتسامته الحقيقية. وجاءت الغُوَينات الطبية المهولة التي استقرت على طرف أنفها العريض لتعطيها هيئةً وَقُورةً مثيرةً للطمأنينة. وقد ذكّرني هذا بنظارتي فبحثت في جيوبي حتى وجدتُها ملطخة بالدماء، لكنه لم يمنعني أن أضعها فوق أنفي. نظرت إلى نهلة عبر إطارها الفارغ فابتسمت لي وقالت:

- أديك لبستها، هِديت خلاص؟

أومأتُ لها فنهضْت لتتخلّص من البالطو الذي جعلته الدماء قرمزي اللون، وهذبت شعرها القصير المنكوش على عُجالة مستعينةً بزجاج الباب كمرآة. فالمرأة مرأة مهما كانت الظروف، حتى لو كانت لواء أركان حرب مثل نهلة. جلست مرةً أخرى بجواري وتأملتني بدورها وهي تحاول الاحتفاظ بابتسامة هزيلة.

- أنا لسّه مش مصدقة إنك كنت هتبقى واحد من الجثث المتفحمة دي!

أسندتُ رأسي على الحائط خلفي وأجبتها:

- ولا أنا.

- مين يصدق إن ميكروفون خربان ينقذك من الموت. دي حكاية ولا في الأفلام. مش يمكن كان واصل بمصدر كهربا أو بطارية؟

لم يَكُن هذا هو حاله لكنني لم أعلق. وكيف أفسر لزميلتي العزيزة أن جهازًا معطوبًا من دون أي مصدر طاقة قد دفعني للنزول من القطار والاستجابة لندائه الغامض، كيف وأنا

الكامنان في صدري على وشك الانفجار، ثم من دون سابقة إنذار... فقدت إحساسي بكل شيء. كالمُسَيَّر مسلوب الإرادة استسلمت لنهلة وهي تقودني خارج الغرفة وخارج عالم الأحياء.

تاركًا ورائي كل الألوان... إلى عالمٍ رَمَاديّ.

وقفت في الردهة أحدّق في الباب المغلق، منعزلًا تمامًا عمّا يحدث حولي. عقلي يصور لي خلفه أبشع المشاهد.

كلّا لم أنسَ هذا السؤال، "أين الرحمة؟"

***

انتزعت نفسي من نفق الذكريات المظلم والتفتُّ إلى نهلة التي جاءت لترتمي بجواري منهكة وربّتت على ساقي بطريقتها الرجولية المحببة. تأملت وجهها الذي شكّلته الأيام وظلمته السنون فصار ممتلئًا كثير الثنايا، يُخفي أكثر مما يُظهر. لكنه جميل، بكل تفاصيله القوية وابتسامته الحقيقية. وجاءت العُوَيْنات الطبية المهولة التي استقرت على طرف أنفها العريض لتعطيها هيئةً وَقُورةً مثيرةً للطمأنينة. وقد ذكّرني هذا بنظارتي فبحثت في جيوبي حتى وجدتُها ملطخة بالدماء، لكنه لم يمنعني أن أضعها فوق أنفي. نظرت إلى نهلة عبر إطارها الفارغ فابتسمت لي وقالت:

- أديك لبستها، هِدِيت خلاص؟

أومأت لها فنهضت لتتخلّص من البالطو الذي جعلته الدماء قرمزي اللون، وهذبت شعرها القصير المنكوش على عُجالة مستعينةً بزجاج الباب كمرآة. فالمرأة مرأة مهما كانت الظروف، حتى لو كانت لواء أركان حرب مثل نهلة. جلست مرةً أخرى بجواري وتأملتني بدورها وهي تحاول الاحتفاظ بابتسامة هزيلة.

- أنا لسّه مش مصدقة إنك كنت هتبقى واحد من الجثث المتفحمة دي!

أسندتُ رأسي على الحائط خلفي وأجبتها:

- ولا أنا.

- مين يصدق إن ميكروفون خربان ينقذك من الموت. دي حكاية ولا في الأفلام. مش يمكن كان واصل بمصدر كهربا أو بطارية؟

لم يَكُن هذا هو حاله لكنني لم أعلق. وكيف أفسر لزميلتي العزيزة أن جهازًا معطوبًا من دون أي مصدر طاقة قد دفعني للنزول من القطار والاستجابة لندائه الغامض، كيف وأنا

نفسي لا أجد له تفسيرًا.

دكتور سليم لقمان، سرعة الذهاب لمكتب الاستعلامات للأهمية.

هكذا نطق وأنا واقف بجواره عند مكتب الاستعلامات، أمام الموظفة الذاهلة. وهو بهذا النداء لم ينقذني فقط، بل أنقذ معي تلك المسكينة الراقدة بالداخل. دعكّت نهلة عينيها الواسعتين من أسفل عويناتها وتثاءبَت قبل أن ترمقني بنظرةٍ سريعةٍ لتجدني مُحدِّقًا في غرفة التجهيز.

- مين اللي جوّه؟ حد تعرفه؟

- حاجة زي كده.

أجبتُها بشرودٍ لتقهقه بطبقة صوتها العالية قبل أن تبتر ضحكتها وتحدق في وجهي قائلةً بجدية مباغتة:

- هو أيه اللي حاجة زي كده؟ أكيد حد تعرفه، أومال هتكون قاعد هنا ليه؟

أعطيتها ابتسامةً واهنةً قبل أن أنهض متجهًا إلى الغرفة حيث ترقد عايدة، ووقفت ببابها. كَم أكره الأبواب المغلقة، كم تثير بداخلي قلقًا وترقُّبا لا حدود لهما، حتى لو كنت أعرف ما الذي ينتظرني خلفها. كلما ترددت أمام باب ما حتى يبدأ الزمن يُبطئ نفسه وتزداد رهبتي وخوفي من مجهول ينتظرني خلفه. إرثٌ لعينٌ اكتسبته منذ وفاة سالم، شعور قميء لا أتغلب عليه إلا بالمهدِّئات ولا يعرفه عني أحدٌ إلا نهلة.

هو الجانب السلبي الوحيد لقدرتي الذهنية الفائقة.

لا ليس الوحيد... فهناك الوحدة القاتلة.

حاولت السيطرة على شعوري هذا وتصاعُد توتُّري حتى جاءت يدٌ من خلفي لتفتحه لي. التفتُّ إلى نهلة لأجدها تشجعني بابتسامة أبوية وهي تفتح لي الباب، لكن قبل أن أدلف أنتبه لمن يناديني.

عملاق يناهز المتر وتسعين سنتيمترًا عظيم الجمجمة كَثّ الحاجب والفَوْدَيْن ظهر خلف نهلة. بجواره يقف آخر هو نقيضه في كل شيء. كلاهما في أواخر الثلاثينات لكن الثاني رفيع البنية دقيق الأطراف، رغم أنه يفرد ذراعيه بجانبه كي لا يظهر كذلك. مشهد كارتوني مثير للسخرية. الضخم لديه تلك الطلّة الرسمية غير الوَدودَة والقصير يبتسم لنهلة ببلاهة.

- خير؟

كان سؤالي وأنا أعطي عايدة الفارقة في شباتٍ عميق نظرةً سريعةً وأغلق الباب لأحول بينها وبين أعينهم.

- رائد حازم وهبة ورائد حِجّي با... الرائد حِجّي. وقتك يسمح بدقيقتين؟

تبادلت مع زميلتي نظرةً ذات مغزى استدارت على أثرها قائلةً بنبرةٍ عمليةٍ حازمة:

- دكتور سليم، أتمنى تحصّلني بسرعة. الدنيا مقلوبة والليلة لسه في أولها. هسيبكم أنا.

لاحظت اهتمام حِجّي هذا بنهلة وهي تعبر بجانبه دون أن تلاحظ وجوده. انتظرت حتى غادرَتْ وأشرتُ لأريكة الانتظار بوجهٍ جامد. جلس حازم بينما استند جِجّي على إفريز الباب وهو يتابع نهلة بانبهار، التي كانت تصيح وتوَجّه طاقم التمريض والأطباء الشباب بصوتها الحاد. غمغم بعدها حِجّي بشيءٍ لنفسه قبل أن ينتبه إلى حازم الذي بدأ الكلام بصوتٍ أجشّ غليظ.

- إحنا عارفين الوقت صعب والدنيا مقلوبة، بس الساعات الأولى للنوع ده من الحوادث بيبقوا في غاية الأهمية. كل ما الوقت ما بيمُرّ كل ما التفاصيل بتقع من الذاكرة.

- كلامك مظبوط، اتفضل، أقدر أساعد إزاي؟

أجبته وأنا أجلس بجواره. حَدّق حازم في وجهي لوهلةٍ قبل أن يقول:

- طبعًا مَحدّش يقدر ينكر إنك كنت بطل النهارده، أرواح كتير أنقذتها، بس...

صمت للحظةٍ محسوبةٍ قبل أن يضيف بنبرةٍ أكثر عمقًا:

- إنت كنت رايح إسكندرية، وزَيّ ما عرفت من زمايلك هنا إن كان عندك عملية مهمة هتتذاع من خلال محطات فضائية وعلى منصّات عالمية، دكاترة وعلماء كبار مِستنّيينك، منهم دكتورة نهلة (قالها وهو يشير إلى الردهة حيث ذهبت الأخيرة). تقوم تسيب كل ده، وقبل القطر ما يطلع بتواني، تنزل وتسيبه. ممكن أعرف ليه؟

- نادوا عليّا في الميكروفون.

قلتها وأنا ضع ساقًا فوق الأخرى.

- كان فيه مشكلة معينة؟ مين اللي كان عايزك؟

ترددتُ للحظةٍ، فتلك نقطة صعبة الشرح، قبل أن أقول:

- الحقيقة.. مش عارف.

- بمعنى؟

حانت مني نظرةٌ خاطفةٌ لغرفة التجهيز التي ترقد فيها عايدة قبل أن أجيبه:

- هقولّك.

حكيت للضابطين ما حدث عند مكتب الاستعلامات، فنظر حازم إلى زميله كي يستعين به فوجده لا يزال يتابعُ نهلةَ من بعيد. هنا اعتلى وجهَ حازم تعبيرٌ بالحنق من زميله لانشغاله عن حوارهما معي قبل أن يحوّل نظره إليّ مُجدّدًا ويقول:

- يعني حد نادى على اسمك في الميكروفون وجري؟

- سيادتك برضه مفهمتنيش. ده كان ميكروفون خربان. ومكنش واصل بالكهربا من أساسه.

- يعني كان بيتكلّم لوحده؟

- معرفش.

هكذا أجبتُه وأنا أمطُ شفتيّ. كنت أعلم مدى سخف ما أقوله، وأنه سيزيد من سوء موقفي، لكنها الحقيقة ولا يوجد لديّ ما أخفيه. على حازم هذا أن يكتشف السر بمفرده، فأنا لديّ ما هو أهم؛ ولذلك فقد نهضت قائلًا:

- سيادتك عندك موظفة الاستعلامات، ممكن تسألها. معلش أستأذنك علشان الدنيا مقلوبة.

- مفهوم مفهوم. بس سؤال أخير. في الفيديو كان فيه واحدة نزلت وراك من القطر. مين دي؟

بصعوبة منعتُ نفسي من النظر إلى غرفة تجهيز العمليات وقلت:

- معنديش فكرة.

شعرت بعيون حازم تتابعني وأنا أبتعد كي أنضمّ إلى نهلة في أرض المعركة.

- جامدة قوي نهلة دي.

كان تعليق جِدّي هذا حين عبرتُ بجواره فرمقتْه لأجدَ على وجهه ابتسامةً بلهاء وهو لا يزال يتابع زميلتي العزيزة. زفر حازم غيظًا من رفيقه ونهض ليغادر لكن ليس دون أن يرمقني بنظرةٍ كلُّها اتهام، نظرة فهمتها جيدًا. تمكّنت من رؤيته يغمغم بشيءٍ شعرت أنه:

"طب بتجري ليه؟".

الحق يُقال أنني كنت بالفعل أهربُ منه وقد بدأت أرتاب في كل ما يحدث وأرى أنه مَحقٌّ في شكّه فيّ، فما رويته لا منطقَ له. هل كان هناك مصدر طاقة بالفعل يصل للميكروفون؟ ولو كان هذا هو الحال، فمن الذي نادى عليّ، ذلك الصوت الذي سمعته قبلها في التاكسي في طريقي للمحطة؟ أم هي كهرباء استاتيكية مخزَّنة بطريقةٍ ما قامت بمحاكاة صوت إمام المسجد؟ صدى صوت أثيري؟ ربما.

كان عقلي يعمل بكل طاقته.

هناك شيءٌ قادم، أسمعُ صوته يأتي من بعيد. قطار يسير على قضبان يحمل معه قَدَرًا رهيبًا، شعور مقيت يتضاعف في كل لحظة. خيوط تتلاقى وتتباعد أمامي تربط أشياءَ ليس لها تفسير ولم يَكُن مُقدَّرًا لها أن تلتقي، لكنني أشعر بها جزءًا من نسيج واحد. هذا ما جال بخاطري وأنا أتابع الضابطين المتناقضين في كل شيء وهما يستقلّان المصعد، قبل أن أنتبه لنهلة التي صرخت في أهالي المصابين أن يلتزموا أماكنهم ويخلُوا المكان أمام غرف العمليات والرعاية. انتهزت الهرَج والمرَج الذي أحدثته نهلةُ بصوتها وانسللتُ من بين الجموع خارجًا.

وكما كان رأيي فيما حدث لسالم، هذه ليست مصادفة.

تصرخ حولي المحاذير وتتراقص الأدلّة.

هـو

لم يَكُن سليم هو الوحيد الذي كان يتابع الضابطين باهتمام، فهناك مَنْ كان يراقبهم جميعًا، من بعيد. كانت لديه خطة، قاتمة، نيّة مُبيّتة لمعاقبة الجميع. لكنها يجب أن تُؤجّل، فالضابط العملاق هذا لقادرٌ على تدمير أي محاولة. استدار وذهب إلى المصعد وضغط زرّ الطلب.

ولأن يدَ القدَرِ لها ذوقٌ لاذع، فقد جاء حازم وجِنّي ليقفا بجواره. لحظة طويلة مرّت على ثلاثتهم في انتظار المصعد، لحظة جعلته يبتسم، حتى قال حازم:

- سليم ده وراه مصيبة. وبيداري على البنت. فيه حاجة خَلّتهم ينزلوا من القطر في اللحظة الأخيرة. ميكروفون أيه اللي اتكلّم لوحده؟ حادثة المحطة دي وراها سر كبير.

هنا ذابت ابتسامته دفعةً واحدةً ليحلّ عليه وجومٌ مخيف. استدار بعدها لينزل السلم بخُطى واسعة تحمل في دبيبها غضبًا لا وصفَ له. التفت له حازم وتأمّل ظهره للحظةٍ بلا مبالاةٍ قبل أن يلتفت ليدخل المصعد مع جِنّي.

حازم

كان الجو مشحونًا في غرفة مساعد وزير الداخلية، الوجوه محتقنة والعروق نافرة، بينما جلستُ منكمشًا في آخر الغرفة في محاولةٍ ساذجة ألا أكون ظاهرًا. كنت أشعر بالغرق، كأن هناك لافتةً معلقةً على جبيني مكتوب عليها "فاسد". جال بخاطري كل السيناريوهات المحتملة ولم أجد واحدًا ينتهي لصالحي. أنا الآن حرفيًا أسحقُ بين الألوسي، وهو مَن هو في عالم العصابات الشغلي، وبين وزارة الداخلية. فقط أتمنى أن تصرف هذه القضية الكارثية أنظارهم عني.

مرّت لحظةُ صمتٍ طويلة أنهاها العميد الشناوي:

- الڤيديو واضح يا منعم. سوّاق الوابور سابه وجري. أكيد حَسّ بمشكلة وخاف. قدّر.

- الصُدَف كتير قوي يا سيادة العميد، إزاي مش قادرين تشوفوها؟ أولًا مسار الوابور وانحرافه والتزامن الدقيق. عبوّات الوقود اللي كانت في المكان المثالي علشان تُضاعِف قوة الانفجار. التوقيت المناسب اللي فيه الرصيف بيبقى مليان على آخره. سيادتك ده لو المافيا الإيطالي نفسها عايزين يخططوا مش هيعملوها بالدقّة دي، مش سوّاق قَطر بنَص تعليم.

أنهى منعم كلامه بوجهٍ ساعدت لمعة رأسه الحليق على إبراز عروقه النافرة. لكنه قالها بهدوئه المعهود وما إنْ فعل حتى التقط العميد الشناوي دفّة الحديث محاولًا الاحتفاظ بنفس هدوء منعم:

- وهي المافيا هتعمل كده ليه؟ داعش نفسهم هيعملوا كده ليه؟ لو الحادث ده بفعل فاعل يا سيادة المقدم كان أعلن عن نفسه، أو عن مطالبه. مالوش أي معنى إنه يخطّط لكل ده من غير ما يحدّد مطالبه. ولّا هو جنّان والسلام يا غمّ منعم؟

- حتى الجِنّان ليه سبب يا سيادة العميد.

هنا تدخّل مساعد الوزير برزانة:

- سبب أيه يا منعم؟

ضمّ منعم شفتيه ونظر إليّ ولم يعلّق. انتهز العميد الشناوي الفرصة كي ينزل بالضربة القاضية.

- ما تقول يا منعم. قول لسيادة اللّوا على النظريات بتاعتك.

حدّق مساعد الوزير في منعم منتظرًا دفاعه. أخذ الأخير شهيقًا عميقًا، كأنه يتخذ قرارًا ما،

ثم التفت لمساعد الوزير قائلًا:

- سيادتك اللي عمل كِدَه مش إرهابي ولا مافيا ولا حتى تنظيم دولي. معنديش دليل دامغ على حاجة، بس أنا متأكِّد إنها ولا حاجة من ڤول، ولا حتى إهمال.

- أومّال أيه؟ عفريت؟

قالها الشناوي ليجيبه منعم:

- تقريبًا.

- نعم؟

سأله العميد الشناوي مستنكرًا قبل أن يُضيف:

- أيوة. هنرجع بقى لحكاية "المايسترو" وموسيقا بيتهوفن اللي كانت شغّالة في محطة مصر.

انحنى منعم للأمام وقال مخاطبًا مساعد الوزير:

- سيادتك فيه نمط مُعيَّن لحوادث مشابهة حصلت في النُّص قرن اللي فات. حوادث راح ضحيتها المئات واتقيدت إهمال أو خلَل فني أو عمل إرهابي، رغم إن مفيش مُنظَّمة إرهابيَّة أعلنت مسئوليتها عنُّه. كل كام سنة بتحصل حاجة كده، أنا بقدِّرها من تلات لست سنين، حادث رهيب يروح ضحيته العشرات وممكن المئات، من دون مطالب ولا سبب.

مساعد الوزير:

- أنا عارف الملف ده كويس يا منعم. بس إنت يمكن تالت جيل من الظباط الأكفّاء اللي مسكوه. ضيَّعوا حياتهم ومستقبلهم المهني الواعد وَرَا العفريت اللي بتقول عليه ده، الشبح اللي خلقوه في خيالهم. وفي الآخر مَحدَّش وصل لحاجة. أيه اللي مخلِّيكم متأكدين إنهم نفس الشخص أو الجهة؟ ما هو ممكن يكون إهمال فعلًا. عارف إن نفس الموسيقا كانت شغّالة في كل الحوادث دي، بس هل ده سبب كافي إننا نربطهم ببعض؟ الشهادة دي في الأساس مش مؤكِّده.

- والله سيادتك وحدة منعم دي مضيِّعة لوقت وموارد الوزارة. وطول عمري بقول لسيادتك...

قاطعه مساعد الوزير حين التفت إليه وقال بحزم:

- إنت اللي بتضيِّع وقتك هنا يا شنّاوي. اتفضل إنت زوح تابع شغلك. مسرح الحادث

مستثيك.

نهت العميد الشناوي من الطرد الفقلع ونظر إلى منعم الذي خذجه ببرود ثم نظر إليّ. أطرقت محرجًا فنهض العميد الشناوي وقد صار وجهه أكثر احمرارًا واستأذن مغادرًا. التفت بعدها مساعد الوزير لمنعم وأخذ نفسًا عميقًا:

- بغض النظر عن حكاية الموسيقا، بس فيه نمط معيّن ورا الحوادث دي. أنا متفق معاك. وده اللي سيادة الوزير مقتنع بيه، بدليل إنه سايب الوحدة بتاعتك دي. لسه عنده أمل إنك توصل لحاجة. بس كل مرة بتقعد شهور ويمكن سنين شغّال في عملية من اللي بتقول عليهم نول من غير نتيجة. وكل اللي مسكوها قبلك كانوا نفس الشيء. محدش فيكم وصل للعفريت ده.

اعتدل منعم ليقول في ثقة:

- سيادتك الفرصة اللي جتلنا دلوقتي مش هتتكرر. وده لسببين. الأول إن لو اللي ورا الحوادث دي شخص واحد، يبقى عمره دلوقتي فوق الستين على أقل تقدير، ومعتقدش واحد زيّه هيتقاعد في سلام. ده يخلّيني أتوقع كارثة أكبر في الطريق ولازم نستعد لها. والسبب التاني إن فيه اتنين نفذوا بحياتهم بمعجزة من حادثة القطر، راجل وست، التوقيت مستحيل يكون صدفة. وصلنا للراجل وقرّبنا نوصل للست. وأنا متأكد إنهم هيوصلونا لّلي ورا الحادث. الرائد حازم كان لشه عنده.

تبادل مساعد الوزير معه نظرة طويلة قبل أن يلتقط ملفًا صغيرًا موضوعًا أمامه ويشير إليّ قائلًا:

- هو ده ده اللي اخترته من وسط الداخلية كلها؟

رمقني منعم قائلًا:

- مش أنا اللي اخترته سيادتك. هو مش سيادتك اللي نقلته عندي؟

تأمّل مساعد الوزير صورتي بنظرةٍ فاحصةٍ وقرأ ملخّص الملف على عجالة ثم رفع عينيه ليخدجني بقوّة:

- ده ملفّه زي الزفت. أنقله أيه؟ ده المفروض أنهي خدمته. والواضح إن ليك تاريخ مهبّب معاه.

وسوس لي الشيطان أن أدافع عن نفسي لكن منعم كان أسرع مني:

- حازم ظابط ممتاز سيادتك، بس محتاج اللي يشغله. ده ابن اللوا عزيز وهبة سيادتك.

اعتدل مساعد الوزير في جلسته وألقى ملفي جانبًا وهو يقول:

- الوقت مش في صالحك يا منعم والعميد الشناوي مش هيسيبك. دي آخر قضية هتشتغل عليها يا منعم، بعدها الوحدة بتاعتك هتتلغي. ولو تاخد رأيي، شوف خد تاني غير حازم ده يساعدك.

***

مشيتُ بجوار منعم صامتين حتى مكتبه. أريد أن أشكره وأصفعه في ذات الوقت. فمن يظنُ نفسه؟ "محتاج اللي يشغله"؟ هو نِسي أنا كنت أيه؟

كنت؟ صيغةُ ماضٍ مؤلمة.

دخلنا مكتبه وهممتُ بالتعليق على ما قاله في مكتب مساعد الوزير، لكني فوجئت بجِجي ينسلُ من أسفل مرفقي ويسبقني قائلًا:

- وصلتوا لسوّاق الوابور؟

قطّب منعم حاجبيه متحفزًا وقال:

- إنت مين يابني؟

- ابتلاء من ربنا. زميلي يا منعم، تاني واحد في فرقتك العظيمة.

هكذا أجبته فتأمله منعم للحظةٍ وقال:

- إنت جِجي...؟

بتر جملتهُ وحاول تذكُّر بقية الاسم لكن الأخير تطوَّع وضرب بقدمه الأرض ورفع يده بتحيّة قوية.

- رائد جِجي باشا سيادتك.

حدّق منعم فيه للحظةٍ محاولًا استيعاب ما يقوله. نظر إليّ كي أساعدَه في فهم ما سمعه، فأومأت له ومنعت نفسي من الابتسام وأنا أقول:

- ده اسمه اللي في البطاقة على فكرة.

تنهّد منعم مستسلمًا وأشار لنا بالجلوس ثم وجّه كلامه إليّ:

- طب اقعدوا. عملتوا أيه مع الدكتور؟

- سليم لقمان ده وَقِح. مش بس علشان كدِب علينا، ده بلغ من الغرور والاستخفاف بينا بأنه اخترع رواية مش ممكن تخدع طفل صغيَر. وَزاه حاجة طبعًا.

أجبته بكُلّ ثقةٍ وأنا أجلس على أحد الكُرسيين قبل أن يغمغم منعم مفكرًا وهو يُخرج الملف الأسود المكتوب عليه "المايسترو" من الدُرج ويضعه أمامه:

- "سليم لقمان"؟ حاسس إني عارف الاسم ده. طب احكيلي اللي تم.

حكيتُ ما تم في اللقاء بيننا، فلوَى منعم شفتيه مستغرقًا في التفكير وهو يُقلّب في الملَفّ حتى انتهيت. رمق جِجّي الذي تمتم بكلماتٍ تتحدث عن استعجالي في الاستنتاج بنظرةٍ ممتعضة، ثم التفت لي قائلًا:

- بُص يا حازم. دي فرصة لا تُعوَّض إننا نوصل لـ "مايسترو".

- وإحنا كلنا فخر سيادتك لاختيارك لينا.

هكذا علَق جِجّي مُقاطعًا. جَزَّ منعم على ضروسه وجحظت عيناه من شدة تحكُّمه في أعصابه كي لا ينفجر في وجهه.

- هو مين اللي اختاركم يابني؟ أكيد مش أنا.

ابتسم جِجّي في بلاهةٍ وهزَّ كتفيه بينما ترددتُ للحظةٍ قبل أن أقول:

- وهرجع بعدها لجهاز المشروعات؟

نظر لي منعم مُطوَّلًا قبل أن يقول:

- هو ده اللي يهمّك؟

بادلتُ نظرته بأخرى ثابتةٍ قبل أن يأخذ جِجّي الملفَّ ويخرج قائلًا بحماس:

- يلّا يا حازم.

تأملته مشدوهًا بينما صاح فيه منعم:

- رايح فين يا بني آدم؟ سيب الملف!!

أطاعه جِجّي لكن هذا لم يُقلّل من حماسه وهو يستدير مرةً أخرى ليخرج قائلًا:

- يلّا يا حازم أومّال. هنروح إحنا ندوّر على السوّاق سيادتك.

التفتُ إلى منعم وقال بِحَيرةٍ حقيقيّةٍ وهو يشير إلى حِجْري:

- مين ده؟

***

لم يَكُن الوصول إلى هُويَّة سائق الوابور عسيرًا وسرعان ما كان أمامنا مَلفٌ به كل تفاصيل حياته. بعث منعم بإشارةٍ للقسم التابع له وأمرَ بضبطِ وإحضارِ فرحات عبد الستار، سائق بالمعاش في وزارة النقل العام. أمر كذلك بالتحرِّي عنه في هيئة السكة الحديد وفي الحَيّ الذي يسكن فيه؛ حتى نستطيع تكوين فكرة دقيقة عن دوافعه وأسلوب حياته.

أما أنا فكنتُ كفَن يسير على الحبل، تحتي حفرةٌ من نارٍ بينما تحلِّقُ فوق رأسي.

هـو

تأمّل فرحات اللافتة المنقوش عليها "قهوة الخمسة وعشرين" قبل أن يُزيح القماشة المنسدلة فوق مدخل الخيمة ويجول ببصره في زبائن المقهى. ثلاثة مصابيح ضعيفة مُعلّقة على الأعمدة الخشبيّة هي كل ما يضيء المكان. مساحة واسعة احتوت على ما لا يقلّ عن العشرين طاولةً تراصّت بعشوائيّة فوق الأرضيّة الطينيّة. بحث عن شخص بعينه، بعد أن قام بما أمره به جاء ليقابله في المكان الذي أقسم له فيه على الولاء قبلها بأسابيع قليلة. يعرفه صوتًا فقط، كان يقابله في الغرفة المظلمة المنعزلة في طرف القهوة.

حالته المُزريّة وهندامه البالي والسواد الذي لطّخ وجهه غير الحليق جعلت فرحات أقرب إلى مجذوب هزيل. وكأن أصحاب القهوة معتادون على هذه النوعيّة، فقد اختار فرحات إحدى الطّاولات وجلس إليها دون أن يعترضه أحد. أدرك أن مظهره ليس بغريبٍ عن مرتادي المكان ولا عمّالِه، لكن هذا لم يخفف من توتره. بل عكس ذلك تمامًا. هل هناك غيره؟ هل هناك أتباعٌ آخرون لمَنْ جاء ليقابله؟ هل لديه كما قال له، جيش من المريدين، من المؤمنين بكُلّ كلمةٍ يقولها؟ هل هم هنا حوله، يراقبونه؟

دقائق طويلة مرّت على فرحات وهو يبحث عن غايته، ينظر لساعة معصمه مهشّمة الزجاج كل دقيقة وتلتصق عيناه بكل زبون يدخل من باب الخيمة. ثم جاءه النّادِلُ ليسأله عن طلبه. تلفّت حوله في قلقٍ وهرّش رقبته في عصبيّةٍ قبل أن يُجيبه:

- بيتهوفن.

التفت النادل للمعلم الأصلع الجالس خلف الخزينة في الركن الأكثر ظلامًا كأنه ينتظر تعليماته. أومأ المعلم له برأسه بهدوء دون أن تتخلّى شفتاه عن مُعاقَرة الجَوزَة، فوضع النادل دفتر الطلبات في جيبه وانصرف.

حدّق فرحات في المعلم دون أن يتوقف عن هَزّ ساقيه الهزيلتين، ثم لمح المكتوب فوقه بالدهان الأبيض: "خدمة خمسة وعشرين ساعة" لتزداد سرعةُ دقّات قلبه. في اللحظةِ نفسها، مدّ المعلم يده ليزيح طرف الستارة التي تخفي جزءًا من القهوة، الجزء الوحيد المبنيّ بالطوب. كانت تلك هي الإشارة. حاول النهوض لكنّ ساقيه المرتعشتين خوفًا ورهبةً خانتاه كما كان يحدث له حين يدخل خلف الستارة، حين يدخل ليقابله.

استند على الطاولة وتحامَل على نفسه لينهضَ ويتجه إليها، لكنه أبطأ من سرعته حين أعطى له المعلمُ هائلُ الحجم نظرةً صارمةً وأشار له بيده أن يهدأ كي لا يلفت الانتباه. عبرَ فرحات بجانبه وكل جسده ينتفض من الإثارة، قبل أن يُسدل المعلم الستارة خلفه ويشير

لأحد العمّال كي يرفع من صوت الموسيقا الكلاسيكيّة التي لا تتماشى بتاتًا مع المكان.

ممرٌ منخفضُ السقف لا يتعدّى المترين، رطب الجو عَطِن الرائحة لَزِج الأرضية، ينحني يمينًا وينتهي ببابٍ خشبيٍ يفتقد معظم عروقه. دفع فرحات الباب بأصابع مرتعشة يملؤها السواد ووقف على عتبته يحدّق في الظلام.

- سيمفونية. عمل فنّي عظيم. اللي عملته يا فرحات مش أقل من اللي عمله بيتهوفن ولّا داقنشي. لازم تعرف كده.

جاءه الصوت الهادئ العميق من قلب العتمة. شهق فرحات وانهارت كل دفاعاته ليبكي وينتحب وهو يقول:

- سيمفونية أيه وهباب أيه؟ أنا بمُوت. مش قادر. مش قادر أتنفّس. مش قادر.

انهار على ركبتيه وبدأ يلطم على رأسه وهو يصيح:

- أيه اللي أنا عملته ده؟؟؟ أنا قتلت أربعين واحد!! أنا مش بس مجرم، أنا كافر!! كافر. وإنت السبب!!

تركه يفرغ شحنة مشاعره حتى انخفض صوت نحيبه واستردّ أنفاسه وهو يقول:

- ذنبهم أيه؟ فكّرني كِدَه علشان نسيت! الناس اللي ماتت في القطر، ليه يشيلوا ذنب مرضي وفشلي؟ ليه خلّيتني أعاقبهم على ظلم عمله موظف حكومي في حقّي؟

جفل فرحات وتقهقر على رُكبتيه حين شعر به يتقدّم في اتجاهه، لكنه توقف حين شعر بقدمه تزلُ في حفرةٍ بجواره. تحسّس الجدار واستند عليه كي لا يسقط فيها ثم بحث عنه. لا يعرف أبعاد الغرفة الخانقة بالضبط لكنه استنتج أنه قد أصبح أمامه. أعطى ظهره للحائط وابتعد عن الحفرة ثم بدأت أنفاسه تتلاحق، وهو يتابع ذلك الظّلّ المبهم الذي انحنى عليه.

- ومين قالّك إننا بنعاقبهم؟ أنا قلت لك، إحنا بنرحمهم.

- نقوم نقتلهم؟ وبالطريقة دي؟

- بأي طريقة يا فرحات. الناس دي لو بتتكلّم دلوقتي هتشكرك. هتقولّك قد أيه هي سعيدة إنها اتخلّصت من العذاب والذُّل اللي هُمَّ فيه.

- ومين قالّك؟ مش ممكن يكون...

اعتدل المايسترو واقفًا بغتةً فانعقد لسانُ فرحات وتحوّل حزنُه وغضبه إلى خوف.

- مين قالّي؟؟ مَحدش قالّي. هو كان فيهم حد يعرف ينطق؟ أنا يا فرحات يد القدر الرحيمة. أنا رحمتهم لأن مفيش حد هيرحمهم غيري. مفيش حاجة بعد الموت يا فرحات ولو مفيش جايزة يبقى مفيش داعي للاختبار ولا الألم.

أطرق الأخير وقد خارت قُواه وإرادته وغمغم:

- أهم ارتاحوا.

- بالظبط.

قالها قبل أن ينحني عليه ويقول بنبرةٍ باردةٍ جمَّدت الدم في عروق فرحات:

- ودلوقتي دورك إنك ترتاح إنت كمان.

رفع سائق القطار عينيه الدامعتين لينظر مباشرةً في الحدقتين اللامعتين في الظلام ويقول:

- إنتَ أيه؟ شيطان؟

بسرعة البرق مرَّر المايسترو نصلًا حادًا في رقبة جليسه وفي أقلّ من ثانيةٍ كانت نافورةُ الدم تنطلق في اتجاهٍ محسوبٍ لتُغرق الحائط. وكأيّ نَفْسٍ تواجه الموت وعقابًا أبديًا بعده حاول فرحات النهوض ووضع يده على رقبته لكن القطع كان أعمق وأدق من أن يسيطر عليه. أمسك به المايسترو وهو يهمس في أذنه بكلماتٍ أخيرةٍ قبل أن يتهاوى فرحات في الحفرة مُضدِرًا غرغرةَ شاةٍ تُذبح. انتظر المايسترو حتى همدت حركة فرحات والتقط مِغولًا ليُهيل عليه التراب. وكان آخر ما صدى في الغرفة المصمتة هي إجابة سؤال لمَنْ لم يَعُد ينتظرها.

بلَّل شفتيه الجافَّة من عطشهِ الدائم وقال:

- أنا أيه؟ أنا... عازف الأقدار.

عايـدة

لا أعرف كيف ولا متى خرجتُ من المستشفى، لكنني وجدت نفسي أسير بلا هدى في شوارع وسط البلد. كانت القاهرة تتثاءب وتنفض عنها نُعاسها بينما احتضنتُ حقيبة ظهري الصغيرة وضممتُها إلى صدري بقوةٍ وأنا أسير مُطأطأةَ الرأس. حاولتُ أن أحبس تفاصيل اليوم السابق بين قضبان ذكراه إلى أن تخرج منّي في شكل كلمات، لكنها كانت ذكرى قاسية، تفاصيل لا يستطيع عقلي استيعابها، يصارع كي يُدخلني في حالة الذهول تلك، يريد أن يُصيبني بالخَدَر كي يحميَني، لكنني لن أسمح له. يجب أن أبقى قويّة؛ من أجل عيسى. يجب أن أستشعر كُلَّ لحظةٍ فيها من أجل أهالي الضحايا. لا بُدَّ أن أجسّد ما كنت شاهدةً عليه بكل قسوته، مهما كان تأثيره عليَّ، هكذا عقدتُ العزم.

كاد شرودي أن يجعلني ضحيةَ ميكروباص مُتسرِّع لولا ظهور تلك الفيات البيضاء التي اعترضت طريقه لتنقذني بأعجوبةٍ من موتٍ مُحقَّق. أومأتُ لسائق الفيات البيضاء لأحيّيَه لكن حاجز الحماية من الشمس الذي أنزله من فوق المقود منعني من رؤية رد فعله. والأغرب أنه دار بالسيارة ليسير عكس الطريق ويختفي عن ناظري.

***

دلفتُ شقتي لأجد خَضْرَا في انتظاري على أحَرّ من الجمر. بعد سلامٍ وعناقٍ دافئين وأسئلةٍ لا نهائية عن الحادث أوحتها لي بحركات يديها ووجهها، أخبرتني أن عيسى لم يخرُج من غرفته طيلةَ المدة وقد انكبَّ على كرّاس الرسم بكل نَهم. تعجّلت خَضْرَا للمغادرة بعد أن باتت ليلتها بعيدًا عن أبنائها وودّعتها شاكرةً إيّاها. ألقيت بحقيبتي على فراشي وأسرعت إلى عيسى فوجدته بالفعل مُنكبًا على لوحته وكأنه لم يشعر بعودتي. احتضنتُه من رقبته وهو جالسٌ فتسمرَّت يده الممسكة بالقلم في الهواء.

استمر العناق طويلًا، أطول مما تعوَّد عليه عيسى وأكثر مما يحتمل. لكنه لم ينتزع نفسه مني، بل رفع يده الأخرى وربَت على ذراعي بملامح جامدة. هو شديد الرقّة سريع التأثُّر، يشعر بما يمرُّ به الآخرون كأنَّ له تصريحًا رسميًا بدخول القلوب كيفما يشاء.

وقد كان يشعرُ في هذه اللحظة بما أمرُّ به. بدأت عيناي تتلألآن لكن مخزوني كان قد نَفِدَ بعدَ بكاءٍ دامَ يومين كاملين، لم يَكُن يهدأ إلا حين أغفو من شدة الإرهاق أو من تأثير المُخدِّر.

- دكتون (دكتور).

قالها عيسى وهو يشير للوحته فابتسمتُ له من بين دموعي وربّتُ على رأسه قائلةً:

- أنا مش دكتورة يا عيسى. بس مقبولة منك.

لاحظتُ العشراتِ من زجاجات المياه المعدنيّة الفارغة حول أخي. لكن قبل أن أسأله عن سِرّ هذا الظمأ تسمّرتُ حين وقعت عيناي على اللوحة التي كان يرسمها.

وبالأخصّ على ما كان يشير إليه، ذلك الشخص الواضح وضوح الشمس في منتصفها.

- دكتون.

سليم

لقد حاول سالم معي بكل الطرق.

دعني يا سليم، كان يقول لي. *لا تجعل حياتك تتمحور حولي. أنا هالك لا محالة. سواء بالداء الذي أصاب رأسي فيؤذيه أو الدواء الذي يسري في عروقي فيكويها، النهاية واحدة يا أخي. وهي قريبة للغاية.*

لكن كلامه هذا لم يزدني إلا تعلُّقًا به وخوفًا من فقدانه، لم يزدني إلا إصرارًا على الوصول لعلاج له.

بُحَّ صوتُ سالم من كثرة صياحه وسِبَابه. لا يدري لثورته المباغتة سببًا لكنه كان يشعر في لحظات أن جسده كله يصرخ، يريد أن يسمعه أحد. ولم يسمعه سواي، لم يشعر به أحدٌ غيري.

أطلِق سراحي يا سليم، دَعْنِي أفنى.

لقد كنَّا كيانًا واحدًا، نشُمُّ معًا ونضحك معًا، فكيف لا أسمع توسُّلاته وأنين جسده. لكني كنت موقنًا أن بمقدوري إصلاح ما أفسده الوَرَم.

في سنة الامتياز عرفنا أننا لن نكون أول ثوأم يصبحان طبيبين في نفس التخصص، طب الأطفال، كما كنَّا نحلُم، وأننا لن نُبحر معًا بقاربنا إلى الغروب كما كنا نتخيَّل. فحين أنهي سنة النيابة سوف يكون سالم أسفل سطح الأرض بمترين، في راحةٍ أبديَّة، دون ألم. ولهذا السبب قمتُ بتغيير تخصُّصي وخسرت سنةً كاملةً واخترت الجراحة العامة، ومنها إلى الفَخِّ والأعصاب.

التزم سالم بصراخه في وجهي كلما جئته، والتزمت أنا بخُطتي وهدوئي. كنت آتي إليه، في تلك الأوقات القليلة التي كان فيها أقربَ للبشرِ من وحشٍ كاسرٍ يقتات على الممرضين والأطباء، وأتكلم معه. أطلق عليَّ لقب الطبيب الشجاع الذي سوف يسبق عصره ويكتشف خبايا هذا الشيء الذي يحتلُّ المساحة فوق رأسه: المخ البشري. كان يسمعني بابتسامةٍ واهنةٍ وأنا أحدِّثه عن بحثي الجريء الذي أناقش فيه قدرات العقل وكيفية فَهم الفَهم. توقف كثيرًا عند هذه الجملة "فهم الفهم"، وكنتُ من الصبر أن شرحت لأخي بما يناسب وضعه، ما أعنيه بها.

أخبرته أن الوعي والإدراك هما ما يجعلنا نختلف عن بقية المخلوقات. تجادلنا كثيرًا في هذه النقطة. قال سالم إن الحيوان يعي ويفهم فأجيبه أنه يفهم ولا يدرك. بمعنى أنه يفهم أن

النار خطر لكنه لا يدرك السبب. يعي الأسد تمامًا أنه يجب أن يأكل اللحم ولكنه لا يدرك مَن الذي حدد له هذه "المِنيو" القصيرة ولا يستطيع أن يختار غيرها. إدراكه لا يخبره أنه بسهولة شديدة يمكن أن يشبع لو أكل فاكهة، حتى ولو كانت لوجبةٍ واحدةٍ إلى أن ينجح في صيده.

سألني سالم عن سبب اهتمامي بهذه النقطة الغريبة وعلاقتها بأبحاثي لكنني لم أتمكّن من الإجابة. فقد باغتتهُ صاعقةٌ من الألم ضربت رأسه في منتصفه وكادت أن تشجّه نصفين. صرخ وصرخ حتى كادت حنجرته أن تنفجر بالدماء، وهببتُ لأمسك به قبل أن ينزعَ عنه الأسلاك ويدمر الأجهزة الموصولة به. اقتحم المُمرِّضون الغرفةَ وصاحوا بي أن أتركه وأخرج.

ظلت نظرة سالم لي عالقةً بذهني. تقبّل بصدرٍ رحبٍ الحقنَ المتلاحقة التي بثّت سوائلها في الأنبوب المخترق لذراعه. لم يصرف عينيه عن الباب الذي اختفيتُ خلفه، كأنه أراد أن يُسمعني صراخه الذي اختنق في صدره.

حتى اسودّت الدنيا في عينيه.

فتح سالم عينيه بعد مدةٍ لم يعرف طولها، وكأن الثواني والسنين قد صارت بلا معنى. لكن الحال حوله قد تغيّر. تضاعفت الأجهزة وتشابكت الأسلاك وازدادت أعداد المحاليل المعلقة بجواره. وهناك شيءٌ يمنعه من الصياح. حاول تحريك يده ليتحسّسها لكنها لم تستجب. حرك فكّه ولسانه ففهم أنه جهازُ تنفُّس، ليدرك بعدها أن الورم الذي احتلَّ مكانًا حساسًا في مخّه قد بدأ يسيطر على وظائفه. لا أستطيعُ حتى أن أتخيّل ما كان يشعر به أخي، فهو بَشِع. سجين ألم وعجز لا يمكنه حتى الصراخ.

لمح وجهي الملتاع وحرك إصبعًا واحدةً وشَفتَهُ السُفلَى، كأنه يريد أن يقول لي شيئًا، قبل أن يسيطر السواد مرةً أخرى.

إنها النهاية إذًا.

تمنّاها، لكنها لم تأتِ.

فتح عينيه مرةً أخرى. نفس المشهد وأضعاف الألم. حاول الصُراخ فلم يستطِع حتى البُصاق. وجوه مذعورة حوله، لا بُدّ أن أحد هذه الأجهزة قد أبلغهم بخَطْبٍ ما فجاءوا لمشاهدة لحظة النهاية. يعلم سالم أنه قد أنهكهم وأنهم ينتظرون نهايته كما ينتظرُها. فليغلق عينيه إذًا وينطق بالشهادة. لا يستطيع. أنت تعلم ما في القلوب يا ربّ القلوب.

أتذكّرُ ذلك اليوم كما لو كان بالأمس، رغم مرور أعوامٍ وأعوام، أذكرُه بكل تفاصيله. وهذا

لأنني موقنٌ أنها ليست مصادفة، تلك التي قطعت سلك جهاز التنفُّس الذي يمدُّه بالكهرباء. ليست مصادفةً على الإطلاق.

***

كان لا بُدَّ أن أهرب قبل أن يُجنَّ جنوني. كنتُ في حاجةٍ لتجميع أفكاري وتحليل الموقف في هدوء. أنّبتُ نفسي على هذا الضعف، لكنني أعرف سببه. أليس، تلك الكلبة السخيفة، هي التي خبّأت المُهدِّئ حتى صار لي أيامٌ دونه. وها قد بدأ الخَدَر الذي كان يحيطُ بمشاعري ليحميَها ينسابُ خارجًا مني.

لم أنتظر حتى الصباح. تركت المستشفى وهم في أمَسّ الحاجة إليّ لكنني كنت بحاجة إلى استعادة اتزاني كي لا أكون عبئًا إضافيًا. عدتُ لبيتي وسمحت لأليس أن تعانقني وقد بدا لي أنها قد شعرت بما يعتملُ بداخلي. عجيبٌ أمرُ هذا الحيوان، لديه رادار لا يُخطئ. ربما كان هذا هو السبب في احتفاظي بكلبتي الوفيّة؛ كي أفهم منها وأتعلم. أتعلم ماذا؟ الإحساس؟ ربما، فما تُبديه من تواصل يجعلني أشكُّ في كل ما قرأتُه عن الإدراك. فلو كان الإدراك والعقل شيئين متماثلين كيف يمكنها أن تدرك ما أشعر به بعقلها المحدود؟

بعثرتُ أشيائي في جميعِ الاتجاهات: مفاتيحي، محمولي، معطفي وحتى حذائي، ووجدتُ نفسي أتجه مباشرةً إليه: الباب المغلَق إلى يسار المدخل. أمسكتُ بالمقبض ثم أطرقتُ مفكرًا. ارتعشت يدي وتسارعتْ أنفاسي وتقلّصت أمعائي وأنا أصارعُ مخاوفي، بينما يُصوِّر لي ذهني أبشعَ الأشياء خلف الباب.

ربما لستُ مُستعدًا بعد.

سامحني يا سالم، لقد حاولت. كل العلوم التي وصل إليها الإنسان لا يمكنها تأخير ميعاد رحيله. لكن أجِبني، بالله عليك أجبني، ما الذي حدث ليلتها؟ ما الذي قطع الكهرباء عن الجهاز الذي يمدُّك بالحياة؟

... وأين أنتَ الآن؟

جفلتُ وتركتُ المقبض مبتعدًا.

هل هناك حركة بالداخل؟

بئس العقلُ أنت، متى ستُطيعني؟

هُرعتُ إلى غرفتي، وبحثتُ عن عبوةٍ من الدواء المهدِّئ، لَعلّي وضعت واحدةً في مكانٍ ما ونسيته، أو حتى قرص واحد مختبئ بين الشقوق. جُلْتُ كالمجنونِ في أنحاء الشقة، وعندما

لم أجد شيئًا صحتْ في كلبتي أن تأتيني بالدواء ليخفِّف حدّة تفكيري وقسوته. وحين أدركتْ أنها لن تجيبني، بل هربت لتختبئ في غرفتها الصغيرة، ارتميتُ على كرسي المطبخ المرتفع، بجوار المانيكان. فأنا لن أستطيع أن أطلبه من الصيدليات، ليس وأنا أريد أن أحتفظ بسمعتي كطبيب مُخ وأعصاب.

مهلًا، المانيكان؟؟

التفتُّ إليها مبهوتًا. كانت واقفةً بجوار البوتاجاز كما وجدتُها في المرة السابقة. كيف جئتِ إلى هنا يا هذه؟ لقد مررتُ بيومٍ عصيبٍ وأحداثٍ جمّة، لكن هذا لا يعني أنني أخرجتُك من غرفة الكلبة وجئتُ بكِ إلى هنا دون أن أشعر.

ظللتُ مُحدِّقًا في ملامحها الخشبيّة لوهلة، حاولت تذكُّر حالها قبل أن أغادر في الصباح لكنني لم أستطع. ربما كانت عابسةً هكذا، أم كانت مبتسمة؟ هل كانت في هذا المكان بجوار أنبوبة الغاز؟ وهل هي تشير إليها الآن أم أن هذا هو وضع ذراعها الطبيعي؟ لم أعُد أعلم. وبالطبع لن تأتيني إجابةٌ منها، مثلها مثل أليس.

يا لهذا الظمأ اللعين!

اجترعتُ ما كان في كوبٍ وجدتُه أمامي ثم وضعتُه على الطّاولَة المرتفعة وأغلقتُ عينيَّ مستمتعًا بطعم الماء. لكن ما إن فعلت حتى انقبضت عضلاتي واكفهرَّ وجهي على الفور، عشرات المشاهد المؤلمة تتراءى في ذهني كما مرّت عليَّ خلال اليوم، تفاصيل غاية في الدقة احتفظَ بها عقلي الجبّار القاسي، رغمًا عني. الدماء، الحروق، الصرخات...

كيف نجوتُ من كل هذا؟ و... لماذا؟

الميكروفون، هل تكلَّم من جرّاء نفسه حقًّا؟ لا أكره في حياتي أكثر من أن أكون قطعةً على رقعة شِطرَنج تلعبُ بها يدٌ خفيّة. أشد ما أكره أن أواجهَ لغزًا أعجز عن حلّه.

فعدّل ذكاء 147، هُراء. كلها أرقام لا معنى لها. الإدراك الحقيقي غير هذا. أنا مُتأكِّد، لكنني لم أضع يدي على أول الخيط بعد. ولا زلتُ ظمآن.

فتحت عينيّ لألمح ذلك الشيء يتساقط في طرف نظري، كأن هناك عاصفةً من الفراشات توقفت عن الطيران وسقطت مرةً واحدة. لم أجفل من الظاهرة المتكررة، بل درتُ بعيني بهدوء في المكان موقنًا أنني، كعادتي، لن أجد شيئًا. لا بُدّ أن أزور طبيبًا للعيون. ثم استقرَّ بصري مرةً أخرى على المانيكان، فمددتُ يدي إليها، بحذر. تحسّستْ أصابعها المرتكزة على الكاونتر، ثم دون مقدمات تذكّرت وجه عايدة، عينيها المتشبثة بوجهي وأناملها التي خمدت

حركتها بين أصابعي. فسحبت يدي بعنف.

لتعِذلِ إلى مكانك. لا بل لنتخلّص منكِ تمامًا، يكفيني ما حولي من ألغاز. لكن قبل أن أرفعها لفت انتباهي ثقوبٌ متناهية الصِّغر، وشعرت لحظتها كَمْ كانت الأحداث سريعةً في الأربع والعشرين ساعةً السابقة. كيف لم أستنتج ما هو بَدِهِيّ؟ هذه آثار لإبر خياطة. سأجلِد نفسي لَاحِقًا وألومُها كما يحلو لي، فلم يَكُن لديَّ طاقة لهذا في تلك اللحظة.

هذه الدُّمية لا تخصُّ "بوتيك حريمي"، بل دكان ترزي وهناك واحد أمام عيادتي بالضبط. ربما معدل الذكاء 147 ليس هُراءً كما كنت أظن.

حازم

شعرتُ بحركةٍ لكنّني لم أفتح عينيّ. أحصيتُ خمسة أنفاس حولي، في غرفة نومي، ينظرون إليّ. أحدُهم يقف عند الباب وهناك مَن يقف على يسار الفراش وآخر عند قمّته، والرابع يجلس على يميني، عند رأسي مباشرةً. أما الخامس فليس ثابتًا في مكانه، يتحرك في الغرفة جيئةً وذهابًا، ينتظر أن أصحو.

هناك مُسدّس بين الكومود والفراش، أبقيه محشوًّا وجاهزًا للإطلاق، عادةً لم أتخلَّ عنها حتى بعد تركي للمهمّات الميدانية منذ خمسة أعوام. عليّ الآن أن أضع الخطة، فلن يكون أمامي سوى ثانية واحدة على الأكثر قبل أن يستوعبوا ما يحدث. يجب أن أتحكّم في تنفسي كي لا أنكشفَ ويشعروا بالإثارة فيه، أما عن صوت أنفاسهم فهو يدلُّ على أنهم هنا منذ برهة، فهي مرتاحة وبطيئة، وهذا سيكون في صالح عامل المفاجأة.

سأنتظر حتى يبتعدَ مَن يتحرك، والذي لا بُدّ أن يكون زعيمهم، ويعطيني ظهرَه. سيكون مَنْ على يميني هو أولهم، فهو ناحية سلاحي، يليه ذلك الذي يقف على اليسار، ثم... حسنًا لنترك الباقي عفويًا ولنأمل أن تكون مهاراتي القتالية لم تصدأ.

3...2... 1...

رميتُ الغطاءَ من فوقي على الجالس على يميني - حركة عفوية لم أخطّط لها - ثم درتُ بساقي في الهواء لأركلَ مَن يقف على يساري في مَعِدته؛ ليندفع من قوّتها ويرتطم بالذي يقف عند الباب. أطلق كلاهما سُبّةً لكنّ الأخير كان قد نجح في الاحتفاظ بتوازنه واستلّ نصلًا من جيب سترته لينقضَّ به عليّ. توقعتُ هذا، بل وانتظرتُه؛ وهذا لأنني استخدمتُ قوة اندفاعه ونهضتُ لأقف عملاقًا فوق الفراش وأرفعه، لأكمل به دوراني وأضرب به مَن يقف عند طرف السرير وأجرِّده من سلاحه.

أمسكتُ النصلَ وانقضضتُ على الذي خلّص نفسه من الغطاء لأدُقَّ رأسَه بمقبضه فينهار شبه مَغشيّ عليه. ثم التفتُّ لذلك الذي كان عند النافذة. لكن قبل أن أقذفه بالخِنجر هتف بي:

- اثبت لو خايف على أمّك!

كان يمكنني أن أقتلهم بيديّ العاريتين في الثواني التالية لكني لاحظت أنه يُسدِّد مُسدّسه إلى خارج النافذة، بالتحديد إلى الحديقة. حدّقت في ملامحه الطفولية التي تتناقض مع الشر الذي يطلُّ من عينيه الدقيقتين قبل أن أخفض السلاح وقد تعرّفت على هذه

"الشخنة". لم أجد صعوبةً في تصور هدفه ولم أسأله عن هُويّته وسبب وجوده، فأنا أدركه تمامًا. أشار لأحدهم أن يتولى أمر الجريح وقال دون أن يغيرَ اتجاه مُسدّسه:

- تيسير هاتم والدتك بتزرع بإيديها في الجنينة. المفروض تتعلّم منها. كل واحد بيحضد اللي بيزرعه.

- جاي تهدّدني في بيتي يا غاياتي؟ إنتَ نسيت أنا مين؟

التفت إليّ قائلًا وقد التمعت عيناه الدقيقتان:

- والله يا باشا فرحتي بالدنيا إنك لسّه فاكرني. بس قولّي يا حازم بيه، قيلًا بالحجم ده، تعملّها كام؟

- أنا مَبخُدش فلوس حرام.

لا أدري لماذا أجبتُه هكذا وأنا أنزل من فوق الفراش الذي أنّ بصريرٍ خافتٍ، فسدّد سلاحه ناحيتي وأسدل الستارةَ ثم قال:

- لا طبعًا إزاي، إنت حياالله بتقبض من رجال أعمال قُصاد دخول مشاريع الداخليّة وتنفيذها. وطبعًا هُمّ كانوا هيدفعوا كده كده وإنك مبتعملش حاجة غلَط وبتضحك على نفسك بالكلمتين ذول وأخرتها...

لوّح بيده بحركةٍ مسرحيّة وهو يستطرد:

- آخرتها "الحلال" ده كله.

- عايز أيه يا غاياتي؟

قلتُها وأنا أتابع رجاله وهم يحيطون بي والغضب مُتجلٍّ بأقوى ضوَره على وجوههم، وقد زادتهم آثار ضرباتي قبحًا. أشار الغاياتي لرجاله أن يتراجعوا وترك مكانه عند النافذة ليتقهقر إلى باب الغرفة قائلًا:

- الألوسي باشا وصّاني أعدّي أسلم عليك وقالّي أفكّرك. المناقصة فاضِلّها تلات أيام، لو مش هترسى علينا... تيسير هاتم هتزغل.

ثم أشار لأحد رجاله قائلًا:

- اديله سلاحه. مش عايزين شفعة الباشا تبوظ أكتر مما هي بايظة. إحنا عايزينه يرجع مكانه تاني. سلام.

غادر الغاياتي وقد نجح تمامًا فيما جاء من أجله. هُرِعتُ لأنظرَ من النافذة لأجدَ أُمي جالسةً القُرفُصاءَ أمام الشتلات التي زرعها أبناء رجب. تنفَّستُ الصُعدَاء، لم تشعر بشيء.

يا إلهي، ما الذي أقحمتُ نفسي فيه؟

***

جنازةٌ مُهيبةٌ تلك التى أُقيمت لضحايا حريق القطار. اكتظَّ مسجد عُمَر مكرَم بالمُصلّين وامتدت صفوفهم خارجه حتى هدّدت بإصابة المرور بشللٍ تام. كنتُ في حالةِ ذهولٍ مما أراه، فهي إحدى تلك اللحظات التى يشعُر مَنْ حضرها أن مصر حقًا كيان واحد يئِنُّ للأرواح البريئة التى زُهقت دون ذنبٍ اقترفته.

يعلو صوتُ الإمام:

"وَإِذَا المَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ"..

ثم يُكرِّر:

"بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ".

بدأت بعض السيدات يبكين.

ويكرر:

"بأيِّ ذنبٍ قُتلت".

انتشر البكاءُ حتى بكى بعض الرجال.

"بأيِّ ذنبٍ قُتلَتْ".

وظل يُكرِّرها حتى بكى كُلُّ مَنْ كان خلفه.

لكن كالعادة، الشعورُ الذي يصعد للسطح ليس التعاطف ولا الشفقة بل الغضب، دومًا هو الغضب، كأنني لم أعُد أعرف سواه. غضبٌ ممن اقتحموا حياتي وأصبحوا يهددون كل ما بنيتُه، وغضبٌ من نفسي فأنا مَنْ سمح لهم بذلك، أنا من خلق مني وَحشًا ميكافيليًّ لا يشبع وجعلني ألجأ لفاسدٍ مثل الألوسي. لكن مهما كان، لن أجعل اقتحام بيتي وتهديد أُمي يمرُّ مرَّ الكرام.

ثم يأتي هذا المشهد المتجلّي أمامي بكل هيبته ومعانيه ليجعلَني أنسى كل هذا، يجعل غضبي ينصبُّ على حقارة كل ما أفعله.

أنا لا أسعى خلف المال، ليس هو هدفي الأسمى، لكنه القوة الحقيقية التي يُمكنها حماية من تحب.

أنَّ سقفُ سيارةِ الشرطة ناقلة الجنود من وطأة حجمي حين اعتليته لأقف بجوار منعم. جُلتُ ببصري في الميدان الفسيح الممتلئ عن آخِره بالمصلّين، والذي يحيط رجال الشرطة به كالسِّوار المُحكَم. نظرت إلى منعم لأجدَه يرمقُني، يتفرّس في ملامحي.

- إنت كويِّس يا حازم، من جوَّاك كويس، بس السّكّينة سرقاك. أيه اللي غيّرك يا حازم؟ كل ده علشان مهمة واحدة حصلت من سنين؟ لسّه مش عايز تقولّي أيه اللي حصل ليلتها؟

شعرت بمعدتي تتقلّص واحتقن وجهي فغيّرت الموضوع، قبل أن ألكمه.

- حاسِس إنه هنا؟

- أنا مش حاسِس، أنا متأكّد.

كانت إجابة منعم بعد أن عاد ليدقق النظر في كل ركن، كل سيارة وكل عابر، فعقّبت قائلًا:

- بتتكلِّم عن سليم؟ هو المايسترو، مش كده؟ قولّي إنك مقتنع بِدَه. خلّينا ننهي العملية دي بسرعة قبل ما يعمل مصيبة تانية.

رماني بنظرةٍ ثاقبةٍ ولم يُجِب، شعرتُ معها أنه يقرأ ما بين سطور كلماتي. لكن قبل أن أضيف لمحت جِجّي يحاول القفزَ ليصل إلى سقف السيارة حيث أقف مع منعم، لكن قِصَر قامته كلّل محاولاته كلها بالفشل. دار بعدها حول السيارة باحثًا عن مكانٍ مناسبٍ يضع فيه قدمه حتى استقرَّ رأيه على الاكصدام الأمامي. وضع إحدى قدميه وأمسك بمصباح السيارة البارز ثم رفع القدم الأخرى وجذب نفسه ليصعد فوق الكبُّوت. وما إنْ فعل حتى أطلق الضابط الجالس في الكابينة البوق ليفزع جِجّي وتنفلت يده.

بصعوبة منعتُ ابتسامتي من الظهور بعد أن افترش جِجّي الأسفلت، لكني استعدتُ تكشيرتي سريعًا والتفتُّ لمنعم الذي هزَّ رأسه غيرَ مصدقٍ بلاهةَ المشهد.

- مردّتش عليّا يا منعم!

رفع عينيه ليستكمل مسحه للميدان وقال:

- سليم ده علاقتي به قديمة.

- أنا حسّيت كده.

استطرد منعم بعد أن رماني بنظرة لم أفهمها، ثم حكى لي.

كان منعم لا يزال نقيبًا، قبل التحاقه بمكافحة الإرهاب، وكانت من أولى القضايا التي كُلِّف بها. للوهلة الأولى شعر أنها سهلة، ربما لأن هذا ما قِيلَ له: "واحد مات في العناية المركّزة وأخوه قالِب الدنيا". وعندما وصل للمستشفى رأى أن من الطبيعي أن يقلب الشقيق المكلوم الدنيا، فهو لم يَكُن فقط شقيقه بل توأمه، أقرب ما يمكن أن يكون إنسانٌ لآخر. ولذلك فقد كان منعم هادئًا، متفهمًا لعصبية سليم لقمان وصياحه. اتهامات كثيرة ونظريات صعبة التصديق، فمَن الذي يتكبّد كل هذا العناء كي يقوم بتعطيل جهاز التنفس الخاص بمريض يعدُّ أيامَه قبل أن يقابلَ خالقه.

في البداية كان الأمر متيزًا للشفقة، ثم لاحظ منعم السلك المقطوع. لكن حين طلب من رؤسائه السماح له بالسعي وراء الحقيقة قُوبِل برفضٍ مقنّع. فمن سابع المستحيلات أن يقوم أحدهم بقتل شخص محكومٍ عليه بالإعدام. أعطوه ثلاثة أيام فقط لإنهاء التحقيق، وهو ما لم يكفِه بالطبع، وكان عليه في النهاية أن يذهب لسليم في بيته ويُخبره أن القضيّة قد تم إغلاقها لعدم وجود دوافع أو أدلّة، وأنها قد قُيِّدت إهمالًا من قسم الصيانة بالمستشفى. وحين ثار سليم أخبره منعم أن الوحيد الذي لديه دافع هو سليم نفسه، حتى لو كان الميراث هزيـلًا.

حينها، وهو ما قاله منعم لي بالحرف، حدث شيءٌ لسليم، تغيير لم يفهمه منعم حتى يومه هذا. فقد تحوّل سليم دون إنذارٍ مائةً وثمانين درجة، وتملّكته حالةٌ من البرود العجيب. استدار بعدها وذهب لباب الشقة كأنه روبوت وفتحه ثم وقف هناك بلا حراك. إعلان غير منطوق بانتهاء الزيارة.

أنهى منعم الحكاية ولكنني أردت أن أعرف المزيد.

- وحصلُه أيه بعد كده؟ متقولّيش إنك مرقبتوش.

- حطّوه تحت المراقبة طبعًا، بس لمدة قليلة جدًا؛ لأنه زَي ما قلتلك مكنش فيه سبب يخلّينا نشُك في إنها كانت جناية.

صرفتُ بصري للميدان الذي بدأ يخلو من الفصلّين وأخذت نَفَسًا عميقًا قائلًا:

- يعني بتشُك في سليم زَي ما أنا بَشُك فيه.

- وفاة أخو سليم واللي حصل في محطة مصر فيهم حاجة مشتركة، حاجة غير سليم نفسه، حدسي بيقولّي كده. لكن مفيش منطق نمشي وراه لأن حادثة المحطة نفسها بلا منطق

ولا هدف "ظاهري". بس اللي أنا متأكّد منه، أنا واللي كانوا قبلي، إن فيه حد بيرتكب الجرايم اللي شكلها "ظاهريًا" عشوائي دي. كل فترة - ومن غير نمط معروف - بيظهر المايسترو يعمل مصيبة ويختفي، وإنت والأفندي اللي مش عارف يطلع يقف معانا ده هُمّ كل اللي معايا علشان أوصل لهُويّته.

التفتُّ للتكدُّس المروري الذي سدَّ المنافذَ من وإلى الميدان وسألته:

- ممكن يكون فى وسط الناس دي؟

أخذ منعم نَفَسًا عميقًا وهو يراقبُ النّعش الذي تناقلَتْهُ الأيدي حتى وصل لسيارة تكريم الموتى وقال:

- ممكن.

- يعنى ممكن يعمل كارثة تانية. يبقى لازم نطلب كلاب وأجهزة كشف عن مفرقعات.

التفت منعم إليّ وانحنى ليقول بجدّية ونبرةٍ منخفضة:

- مش هيعملها هنا. اللي مخلّيني متطمّن شوية هو إن اللي بيحصل أوصادنا ده تتويج لجريمته - اللي هو أكيد مش شايفها جريمة - ومش هيلطّخ التتويج ده. وبعدين كفاية العميد الشناوي والجيش اللي معاه.

أنهى كلامه وهو يشير إلى عميد الشرطة الذي ظهر واضحًا بقامته الفارهة وسط لفيف من الضباط رفيعي المستوى عند مدخل المسجد. رغم المسافة الكبيرة لكني شعرت أن عيونهم تتبارز، العميد الشناوي والمقدم منعم.

- شكله مش عاجبه وَقْفِتنا.

قلتُها وقد تحفَّزَت عضلاتي.

- ولا يهمَّك. رُوح المديرية هتلاقي أمر ضبط وإحضار لسوّاق الوابور. رُوحوا هاتوه.

قالها منعم قبل أن يقفز إلى الكَبُوت ومنه إلى الأسفلت في لياقةٍ جعلَتْ حِجّي يراقبه بانبهار.

هــو

رغم أن المشاعر كانت جياشةً والدموع وفيرةً لكن لم يَكُن هناك مَن يبكي بحُرقةٍ مثل ذلك الرجل الجالس خلف مقود السيارة الفيات البيضاء. يسير بها خلف سيارة تكريم الموتى في طريقها للمدافن.

ظلَّ هاتفه يدق، وظل هو على تجاهله له. فهو الآن يتطهَّر من الدم، يسمو فوق الخطيئة، يسمو إلى السلام. لا يخدع نفسه ولا يخترع أعذارًا، يعلم أنها خطيئة، لكنه موقِنٌ أنه لو كان هناك عقابٌ ما فسيشفع له ضحاياه، سيكونون أول من يدافع عنه.

يعلم أن الفاياتي هو المتصل، يعلم أنه يكاد الآن يدقُّ رأسه في الحائط غيظًا منه لعدم إجابته على هاتفه، لكنه يروِّضه. سوف يجيبه حين يتراءى له ذلك. وحين يفعل سوف يسأله مطلبًا لم يسأله لأحدٍ من قبل، مطلبًا سيجعل الفاياتي يرتعد منه. سوف يجلس معه، وجهًا لوجه، ويطلب أن يقابل سهده الألوسي شخصيًا.

فما حدث في محطة مصر، تجاهُ ذلك الطبيب وتلك المرأة بهذه المعجزة، ليس له سوى تفسير واحد. كان يظنُّ أنه فريد من نوعه، فهو يسمع ما لا يسمعه أحد ويرى ما لا يراه غيره، والآن أيقن أنه ليس وحيدًا كما كان يظن. وهنا يصلُ إلى استنتاجٍ خطير.

أن الوقت قد حان...

للسيمفونية الأخيرة.

سليم

استيقظتُ - كعادتي مُؤخّرًا - بصداعٍ حادّ، وليزداد الأمر سوءًا فاجأني هذا الظمأ كأنني قد خرجتُ لتوّي من سباق في الصحراء. حتمًا بسبب توقُّفي عن تعاطي المهدّئ. بحثتُ حولي لعلّي أتعثرُ في كوبِ ماءٍ أو بقايا قهوة لكن الغرفة كانت تخلو من أي سائل ينقذني. نهضتُ بحذر، تحسُّبًا لآثار انسحاب المهدّئ، وذهبت لأجترعَ زجاجةُ مياهٍ معدنية كاملة. جاءتني أليس لتُحييني لكنني تجاهلتها غيظًا منها وقلت:

- فِكرُك يعني هغلَب. هَجِيب الدَّوا من صيدلية المستشفى يا سخيفة.

عبرتُ من خلال المطبخ الأمريكي المفتوح والتقطتُ تفاحةً ثم ذهبتُ مباشرةً لأجلس أمام الكمبيوتر. دون حماس، قمت بتشغيله وولجت لحسابي في منصّة التواصل الخاصة، وسَرعان ما وجدت نفسي أطالع وجوه زملائي من مختلف بقاع الأرض. سألوني عن أحوالي، ففيما يبدو أن أخبار الحادث المروّع قد وصلتهم، بالطبع فالعالم قد أصبح أصغَر منَ حبّة الكَرَز. كتبتُ لهم أني بخير، إجابة مقتضبة اكتفوا بها ولم يلحُّوا لمعرفة المزيد.

لم أفتح الكاميرا واكتفيتُ بالمراقبة شاردًا. ظل عقلي يُكوّن نظرياتٍ ويرسُم مؤامراتٍ عن هُويّة من ارتكب مجزرة محطة مصر وأهدافه. حاولتُ استخدام طريقتي الفريدة في التفكير وقمتُ بتحليل الموقف لعناصره الأساسية، لعلّي أرى البُعد الأوّلي للموضوع. لكنني وجدت أجزاء الصورة عديمة التناسق، مصادفات لا تفسير لها ولا شكل محدد، هُلامٌ فكريٌ مثيرٌ للغثيان. سرعان ما يئستُ من الوصول لصورةٍ مكتملة وانتبهتُ للاجتماع الأثيري مرةً أخرى.

وجدتُ أن الهزيمة التي أنزلتها بريتشارد في اللقاء السابق قد تسبّبت في تخبُّطٍ لا بأسَ به في الآراء وتغيير في المواقف. لكنهم لا يزالون بعيدًا عن المنطقة التي أودُّ اقتيادهم إليها، لا يزالون يتخبّطون في تُرّهات علميّة مُملّة. دوافعهم واضحة، أضحك من سذاجة أساليبهم في التلاعب بالألفاظ ولوي الحقائق كي تخدم أغراضهم. مَللتُ محاولاتهم لدحض المعتقدات الدينية وإثبات عدم وجود إله حتى صارت عبئًا على أبحاثهم. مساكين. لو وظّفوا نصف مجهودهم هذا في بحث علمي بحت، بحث خلف الحقيقة بحياديّة كما يزعمون، لدفعوا الإنسانية سنينَ ضوئيّةً للأمام.

هنا وجدتُ نفسي أقوم بتشغيل الميكروفون. قطعت حديثهم العلمي حول الطاقة المظلمة والمادة العكسية والتي يستخدمونها كحُجّة لنفي ضرورة وجود خالق. وقد خرج صوتي قاسيًا، به من الضيق ونفاد الصبر ما قد يظنُّونه تعاليًا، لكنّي لم أبالِ.

- العلم لن يصلَ بنا لسِرِّ الكونِ يا ريتشارد.

- ما الذي تعنيه يا سليم؟ أتريدنا أن نتوقف عن البحث؟

قالها مستنكرًا فأضفتُ بمزيدٍ من الحياديَّة اللاذعة:

- هذا ليس ما أعنيه. كل محاولاتنا لن تجعلنا نكتشف سوى المزيد من الحقائق العلمية التي تخصُّ "عالمنا" فقط، وهو هدف نبيل. أما ما الذي أوجد تلك القوانين والعلوم فلا بُدَّ أن يكون شيئًا أكثر تطوُّرًا منها. وكما قال آينشتاين: "أنت لا تستطيع إيجاد حل لمشكلة باستخدام نفس العقلية التي صَنَعتِ المشكلة". أي أنه يجب علينا الوصول لمعلومات من خارج الكون، ونكتشف علومًا لا تخضع لقواعد وقوانين عالمنا حتى نستطيع تفسير وجود علومنا نفسها.

- أنت تتحدَّثُ عن إله؟

قالها وقد احتقنَ وجهُه في محاولةٍ بائسةٍ لاستدراج بقية العلماء في صفِّه. لكن الكل كان صامتًا، مصدومًا من تلك الفكرة التي ألقيتُها في وجوههم كالقُنبلة.

- أنا لا أتحدث عن شيء بعينه. فقط تدبَّر فيما قلتُه، واعلم أنه هناك أشياء لن تستطيع علومنا تفسيرها. يجب علينا أن نسيطر على غرورنا يا عزيزي ريتشارد، يجب أن نعرف حدود وعينا، فمهما بلغنا من العلم سيكون هناك المزيد منه. الإنسان لن يصبح في يومٍ ما عليمًا بكل شيء. فقط عليك أن تنظر إلى "اللَّانهائيَّة"، وهي حدود إدراكنا، لو تخيَّلت ما هو أكبر منها، لو تخيلت شيئًا أقل من "العَدَم" أو أكثر من "كُلّ شيء"، فسأرفع لك القبَّعة معتذرًا. حينها فقط يمكنك القول إن علمنا يمكنه أن يفسر وجوده.

ثم قمت بإغلاق الميكرفون وكذلك فعل ريتشارد الذي طفق يقلِّب أوراقه بكل عصبية لينزل الصمت ضيفًا ثقيلًا على الاجتماع الأثيري. ثم تمنَّى لي الجميع السلامة ولم يشترك أحدهم في النقاش ثم غادر معظم الحاضِرين والمُستمِعين. رميتُ آخرَ قطعةٍ من التفاحة في جوفي دون أن أبالي بالنصر اللَّحظِي الذي حققتُه لتَوِّي ومددتُ يدي لأغلق الكمبيوتر.

لكن في اللحظة نفسها استرعى انتباهي حوارٌ بالإنجليزيَّة. كانت إحدى الزميلات، دكتورة في الكيمياء الحيوية من أستراليا تُدعى مارجريت، والتي أعلنت أنها تشعر أن ما قلتُه به جانبٌ من الصواب. سألتها إحدى زميلاتها عن مقصدها فجاء ردُّها عجيبًا. قالت لها إن أمها بدأت مُؤخَّرًا تعاني بعضَ الظمأ غير المفهوم.

وهذا جعل خلايا عقلي كلها تتحفَّز كمَنْ تتحفَّز عضلاتُه عند شعوره بالخطر المادي.

فيما يبدو أنها تعيش مع أمّها العجوز بعد وفاة الأب في مطلع هذا العام. جاءت مع طفليها واستقرّت مع أمها في بيتٍ فسيح. وفيما يبدو أيضًا أن أمها لم تتكيّف بعدُ على الوضع الجديد ولم تخرج من صدمة وفاة زوجها. فالابنة - زميلتي العزيزة مارجريت، عبقرية الكيمياء - تقول إن أمّها تقضي ساعاتٍ طويلةً كل ليلة أمام دولاب ملابس زوجها، والتي لم تتخلّص من شيءٍ منها. تنهلّ من رائحتها، تحتضنُها، تتحدثُ معها كأنها تخاطب زوجها نفسه.

لشهورٍ طويلةٍ حاولت الابنة مساعدة أمها في التخلص من هذه العادة التي لا تساعدها إطلاقًا في تخطّي حزنها، لكنها فشلت. وبعد نصائح الأطباء والأصدقاء قرّرتْ أن تتركها تفعلُ ما تشاء. فصارت الأم لا تضيّع فرصةً إلا وتستغلُّها لعناق ملابس زوجها، كأنها تخشى اللحظةَ التي تتلاشى فيها رائحتُه وتتلاشى معها ذكراه.

حتى هذه النقطة كان الموضوع عاديًا وغير مثير، وهو بالذات ما جعلني أستمرُّ في الإنصات كي أعرف ما كانت تقصده بشعورِ أمّها بالظمأ المفاجئ. حتى قالت ما جعلَ مَن يستمع إليها من باقي الزملاء يسخرون منها ويخرج أغلبهم - إلا أنا وزميلتين - متعاطفين.

منذ أسبوع كانت تمرُّ من أمام غرفة أبويها حين لمحت أمّها في الدولاب. لا ليست أمامه، بل في داخله، وحولها العشرات من زجاجات المياه الفارغة. تخلّصت الأمُّ من خُفّها وركلت الزجاجات لتفسح لها المجال كي تصعد لتقف بين ملابس زوجها. سالت دمعةٌ من ابنتها، واستندت على الباب تتأمل أمّها التي احتضنت الملابس في عشق. ولكن قبل أن تستدير لتتركها لاحظت شيئًا عجيبًا.

فهي تجزمُ بكلّ ما هو غالٍ ومقدس، حتى إنها أقسمت بالربّ رغم كفرها بوجوده، أنها رأت ذراع شترة أبيها المفضلة تتحرّك من نفسها، وتحتضن أمّها. بكت إحدى الزميلتين تأثّرًا بينما أخذت الأخرى تواسي عالِمَة الكيمياء، التي توقعت ردَّ فعلٍ مماثلًا لما أتتا به وطلبت منهن تحليلًا لما سمعوه.

هنا فتحتُ الكاميرا وسمحتُ للميكروفون بنقل صوتي مُجدّدًا وتدخلت قائلًا بإنجليزيّتي الرسمية:

- مارجريت، اسمحي لي، هل من الممكن شرح المشهد بدقة. واعذري مظهري، فالساعة عندي لا تزال السادسة صباحًا.

- أنتم تعرفونني، أنا لا أؤمن بالخرافات، لا أؤمن بالجنّ ولا الأرواح ولا أيّة ما ورائيّات، لكني رأيته بعينيّ هاتين يا سليم.

- عمَّ تتكلمين؟ ذراع الشُّرة؟

- نعم، لقد احتضن أمي.

رغم انتباهي المُنصبّ على الشاشة أمامي فإنني لمحتُ أليس وقد جاءت لتقف بجانبي. مددتُ يدي لأداعبها دون أن أحوّل عينيّ عن الشاشة.

استأذنتْ إحدى الزميلتين لتخرج من الاجتماع وتجاهلتْها مارجريت مستطردة:

- تكرر الموقف مرةً أخرى بعدها بليلتين. لكن هذا ليس كل شيء. فالعطش الذي كان يباغتها لم يَكُن له أي تفسير.

حَدْسٌ ما جعلني ألتفتُ إلى كلبتي، التي كانت ثابتةً على غير عادتها العابثة. ولم يخطئ الحَدْس، فقد كانت في حالة تأهُّب وأُذُناها منتصبتان. صرفتُ بصري لما تنظرُ إليه بكل هذا الاهتمام لأجدها تراقب غرفتها. انتصب شَعر يدي رغمًا عني وتذكَّرت المانيكان الرابضة بالداخل.

- سليم!

نادت عليَّ مارجريت فانتزعتُ عينيّ انتزاعًا من مراقبة باب غرفة أليس لأنظر إلى وجه مارجريت الأبيض الممتلئ.

- أعتذر يا مارجريت. أكملي.

- حسنًا. كنت أقول إنني الليلة التالية استيقظتُ في منتصف الليل شاعرةً بعطش شديد. نهضتُ لأشرب لكن حين مررت أمام غرفة أمي تذكَّرت ما كانت تمرُّ به. دلفتُ الغرفةَ وتأملتها وهي غارقةٌ في سُباتٍ عميقٍ وعلى وجهها ابتسامةٌ كأن هناك مَن يداعبها. ثم انتبهتُ إلى الدولاب فذهبتُ إليه.

ابتلعتُ ريقي من فرط التوتر. كَمْ أكرهُ الأبوابَ المغلقة، وكَمْ أصبحتُ أكرهُ تلك المانيكان. تكمل مارجريت:

- ثم مددتُ يدي لأفتحه.

شعرت باللُّعاب يسيلُ من فمي، وقد أصبحتُ المستمعَ الوحيد، وسألتُها:

- ماذا وجدتِ؟

لكنني كدت أصرخ ذعرًا حين نبحَت أليس بكلِّ عنف. التفتُّ إليها لأجدَها تُهرع لباب غرفتها وتدفعه لتدخل. تكمل مارجريت:

- لم أفتحه لأني تسمّرت مكاني حين سمعتُ الهمس.

أصبحت عيناي عالقتَين على ظُلمة غرفة أليس. هناك شخص واقف. وأنا لم أضع المانيكان في هذا الوضع.

- هل تسمعني يا سليم؟ لقد كان هناك مَن يتكلم في دولاب ملابس أبي.

التفتُّ إليها بوجهٍ هرب منه الدم. ولا بُدَّ أن هذا شجّعها على الاستمرار.

- هنا فتحتُ الدَّلفة.

- ووجدتِ مَنْ كان يتكلم؟

- بالطبع لا. فقط الملابس. أنا لم أهذِ يا سليم. لقد كانت الملابس.

- الملابس هي مَنْ كانت تتكلم؟

سألتُها وأنا أنهضُ من مكاني وعيناي على غرفة أليس قبل أن أناديها.

- أليس!!

نبحتْ مجيبةً بنبرةٍ حزينة، ذلك الأنين المعروف للكلاب والذي يُقطّع القلوب.

- سليم؟ ما الذي يحدث عندك؟

اتجهت لغرفة أليس متعمدًا اتخاذ زاوية معينة تسمح برؤية ما يحدث بالداخل، لكن الباب انغلق ببطء. تسمّرتُ مكاني للحظةٍ قبل أن أستنتجَ أنها حتمًا أليس التي دفعته. تقدمت بحرصٍ وقد بات قلقي مُضاعفًا. ما الذي تفعله أليس مع المانيكان بالداخل؟ وفوق هذا جاء خوفي من الأبواب المغلقة ليصور لي جيشًا من الزومبي رابضًا خلف الباب، في صمت.

"أليس!".

ناديتُها ثانيةً لكنها لم تخرج. يا لي من أبلَه، كيف يُمكنها أن تفتح الباب، هكذا جال في ذهني. تقدمتُ حتى أصبحتُ أمام الباب مباشرةً. يجب عليّ الآن أن أفتحه.

هيّا بالله عليك، هكذا زجرتُ نفسي، مُدَّ يدَك للمقبض. حركة أليس المحمومة بالداخل تشي بتفاعلها مع شيءٍ ما، شيءٍ يجعلها في منتهى القلق.

بدأت أصابعي ترتعش فوق المقبض، ومعها سَرَتْ رعدةٌ قويّةٌ في جسدي. مَنْ لديه قوييا ما يمكنه تخيُّل شعوري، شلل تام وقد بدأت أتخيّل أسوأ كوابيسي وراء الباب. أعلم أنه في اللحظة التي سأفتح فيها الباب وأرى ما يقبع وراءه سيتلاشى نصفُ ذعري، إن لم يَكُن أكثر.

- لم أفتحه لأني تسمّرت مكاني حين سمعتُ الهمس.

أصبحت عيناي عالقتَين على ظُلمة غرفة أليس. هناك شخص واقف. وأنا لم أضع المانيكان في هذا الوضع.

- هل تسمعني يا سليم؟ لقد كان هناك مَن يتكلم في دولاب ملابس أبي.

التفتُ إليها بوجهٍ هرب منه الدم. ولا بُدّ أن هذا شجّعها على الاستمرار.

- هنا فتحتُ الدُّلفة.

- ووجدتِ مَنْ كان يتكلم؟

- بالطبع لا. فقط الملابس. أنا لم أهذِ يا سليم. لقد كانت الملابس.

- الملابس هي مَنْ كانت تتكلم؟

سألتُها وأنا أنهضُ من مكاني وعيناي على غرفة أليس قبل أن أناديها.

- أليس!!

نبحَث مجيبةً بنبرةٍ حزينة، ذلك الأنين المعروف للكلاب والذي يُقطّع القلوب.

- سليم؟ ما الذي يحدث عندك؟

اتجهت لغرفة أليس متعمدًا اتخاذ زاوية معينة تسمح برؤية ما يحدث بالداخل، لكن الباب انغلق ببطء. تسمّرتُ مكاني للحظةٍ قبل أن أستنتجُ أنها حتمًا أليس التي دفعته. تقدمت بحرصٍ وقد بات قلقي مُضاعفًا. ما الذي تفعله أليس مع المانيكان بالداخل؟ وفوق هذا جاء خوفي من الأبواب المغلقة ليصور لي جيشًا من الزومبي رابضًا خلف الباب، في صمت.

"أليس!".

ناديتُها ثانيةً لكنها لم تخرج. يا لي من أبلَه، كيف يُمكنها أن تفتح الباب، هكذا جال في ذهني. تقدمتُ حتى أصبحتُ أمام الباب مباشرةً. يجب عليّ الآن أن أفتحه.

هيّا بالله عليك، هكذا زجرتُ نفسي، مُدّ يدَك للمقبض. حركة أليس المحمومة بالداخل تشي بتفاعلها مع شيءٍ ما، شيءٍ يجعلها في منتهى القلق.

بدأت أصابعي ترتعش فوق المقبض، ومعها سَرَتْ رعدةٌ قويّةٌ في جسدي. مَنْ لديه فوبيا ما يمكنه تخيُّل شعوري، شلل تام وقد بدأت أتخيّل أسوأ كوابيسي وراء الباب. أعلم أنه في اللحظة التي سأفتح فيها الباب وأرى ما يقبع وراءه سيتلاشى نصفُ ذعري، إن لم يَكُن أكثر.

لكنَّ خيالَ الإنسان هو الوحيد القادر على خلق أبشع السيناريوهات والمخاطر التي تمسّه هو وحده.

دقات قلبي ترتفعُ وشعرتُ بطنينٍ في أذنيّ وأنا أدير المقبض وركبتاي تكادان أن تخذلاني. وما إنْ فتحته حتى خرج صوتي مبحوحًا بالإنجليزية:

- يا إلهي!

- ما بك يا سليم؟ صوتُك يبدو وكأنك رأيت شبحًا.

كان هذا نداء مارجريت الصادر من الكمبيوتر وهي تتابعني صوتًا فقط.

وكم كانت مُحقَّة، فما رأيته كان أقوى من رؤية شبح.

تصرخ حولي المحاذير وتتراقص الأدلّة.

***

- هو إحنا بنعمل أيه هنا يا دكتور؟

هكذا سألني دوسري، التمرجي العجوز الذي لازمني لأعوام طويلة واحتمل أفاعيلي العجيبة، وهو يحكُّ فَوْدَيْه ويصحح وضع البالطو الأبيض. رمقتني في قلق، وكان له عذرُه، فلا بُدَّ أن الصدمة كانت لا تزال مُتجلِّيةً على ملامحي من هول ما رأيتُه في غرفة نيلي. أعلم أنها دُميَة خشبيَّة، لكن عليها هالة وغموض جعلها أقرب للبشر. ولذلك فحين رأيتُها مائلةً على سخان المياه الذي يعمل بالغاز الطبيعي ومستندة عليه ورأيت ملامحها محترقة ومشوَّهة، حتى انقبض قلبي وتقلَّصت معدتي بعد أن تكررت في ذهني مشاهد أمس.

وجوه محترقة، ملامح شوَّهتها نيرانُ الجنون.

لن أرهق نفسي بمحاولة تذكُّر إن كنت قد وضعتها في ذلك المكان أم أن أليس هي من ارتطم بها لتجعلها تنكفئ هكذا. لكني مُتأكِّد أن هذه ليست مصادفة، الدنيا لا تسير هكذا.

سأصل إلى مغزى ما يحدث، مهما كلَّفني الأمر. سأبحر إلى حدود العقل البشري، تلك التي تفصل بين الإدراك والحس، بين الواقع والخيال؛ حتى أرى الكون على حقيقته.

تجاهلتُ دوسري، ووقفتُ أتأمل باب الشقة القديم في الطابق الأرضي بالعمارة المقابلة لعيادتي. خرجت لأدور حول المبنى حتى وجدت نافذةً للبدروم عليها قضبان بينما سار دوسري خلفي مستسلمًا، فهو قد اعتاد شطحاتي. انحنيتُ لأنظر من خلال النافذة فوجدتُ مساحةً مزدحمةً بماكينات وشمَّاعات عليها فساتين. مددتُ بصري محاولًا تحديد معالم

المكان الذي جعله نور الشمس الذي تسلل من نافذة البدروم أكثر ظلامًا، ثم فوجئتُ بصوتِ شخصٍ يدندن بنغمةٍ ما.

تحركت لأنظر من نافذةٍ أخرى فرأيت شيخًا ضخمَ الحجمِ أشعثَ الشَّعر والذقن. تطلُّ عيناه الغائرتان من بين شروخ نظارة عتيقة، تتابعان الإبرة وهي ترقص بين أنسجة ثوب من القماش الأذكن. يقربه من وجهه ليتفحَّصه ثم يتوقف عن الدندنة ويقول شيئًا قبل أن يعبس للحظةٍ خاطفةٍ مغتاظًا من شيءٍ ما ثم يعود ليتفحَّص الثوب.

تعجَّبتُ من غرابة تصرفاته وحككتُ شاربي الرفيع بأسناني السُّفلى ثم جُلْتُ ببصري في مَشْغلِه. مع مَن يتكلم هذا الرجل؟ لا يوجد أحدٌ غيره.

مكثتُ في مكاني لوهلةٍ أراقب الترزي العجوز وهو يعمل ويكلم نفسه.

- خير يا دكتور؟

التفتُّ إلى الوجه الذي أطلَّ عليَّ من باب العمارة، رجل أربعيني أسمر أعرفه جيدًا، حارس العقار.

- مش ده الترزي الحريمي؟

- أيوه يا دكتور. خير؟

- هو أيه حكايته؟

- حكاية أيه يا بيه؟ هو غمّ أبو المكارم عمل حاجة؟

- لأ معملش. بُص، هسألك سؤال واحد: هو ضاع من عنده مانيكان، أو اتسرقت منه؟

- هو إنت لقيت سعاد؟

- سعاد مين؟

- أهم مانيكان عند أبو المكارم، أصل كل واحدة فيهم ليها إسم. وسعاد دي أقدم واحدة عنده، يمكن من أيام أبوه، ما هو وارث الصنعة أبًا عن جدّ.

- أيه اللي كان مميّز فيها؟

- ولا أي حاجة يا بيه. أهوه كان بيتكلّم معاها أكِنّها سامعاه. بس بقاله كام يوم بِيدوِّر عليها زيّ المجذوب.

كان لديَّ حَدْس يخبرني أنني سأسمع شيئًا شبيهًا بهذا لكنه لم يمنعني من أن أطرق مفكرًا.

رميتُ دوسري بنظرةٍ خاطفة لأجده حابس الأنفاس وهو يبحلق في حارس العقار فالتفتُّ للأخير لأسأله:

- بيتكلّم معاها؟ إزاي يعني؟

- يا بيه أبو المكارم ده عايش لوحده من سنين، من ساعة مراته ما طفشت بالعيال بسبب ضيق الحال وزَنّ أمّها عليها. وزي ما جنابك شايف، قاعد تحت، مبيطلعش غير للشديد القوي ومَحدّش يعرف بيروح فين. صاحب العمارة الله يكرمه مش بياخد منه إيجار لأنه تقريبًا مَحدّش بيجيله.

- فبيكلم نفسه؟

- من هفّه يا بيه. بس إنت مقولتليش جنابك فيه أيه؟

شردتُ عبر النافذة التي تطلُّ على البدروم وبدأت أكوّن نظرية مجنونة. أمرتُ دوسري أن ينتظرني أمام العمارة وذهبت لأطرُق باب أبو المكارم. بصبرٍ انتظرتُ أن يفتح لي الترزي العجوز باب المشغل، ثم ابتسمتُ في وجه الرجل الستيني الممتلئ ذي الشعر الأشعث الخفيف الذي فتح الباب.

- مساء الخير يا أستاذ أبو المكارم، أنا الدكتور سليم لقمان، جارك في العمارة اللي أوصادك.

حدّق في وجهي للحظةٍ بلا أدنى تعبير قبل أن يرد السلام وهو يُفسح المجال للدخول. استدار بعدها تاركًا الباب مفتوحًا وذهب ليجلس في مكانه أمام ماكينة الخياطة. خطوتُ داخل المشغل المزدحم والمليء بالتراب والخيوط وأدوات الخياطة، وأبطأتُ تنفُّسي كي لا أختنقَ من رائحة الأقمشة والصبغات والعرق التي ملأت الجو الجاف.

- ما شاء الله، شغل نضيف جدًا.

ارتدى أبو المكارم عويناته المكسورة وأخفض رأسه لينظر إليّ من فوقها دون أن يعلق. تنحنحتُ وفعلتُ المثل، أنزلتُ إطار نظارتي عديمة العدسات لأنظر من فوقها. تبادلنا نظرةً سريعةً ولجزءٍ من الثانية شعرتُ بشبح ابتسامة تداعب شفتيه قبل أن يشير إلى كرسي مرتفع. تقدمتُ لأجلس عليه قبل أن ألمحَ خلف أبو المكارم عبواتٍ بلاستيكيّةً مكتوب عليها "صبغة". دوّنت بها ملحوظة ذهنية ثم أشرتُ إلى قطعة القماش التي يمسكها.

- دي هتبقى أيه؟

وضع أبو المكارم القماشة على الطاولة المتهالكة وقال:

- خير يا دكتور؟

- أيه يا أبو المكارم، مش عايز تعرض عليّا شغلك ولّا أيه؟

- شغل أيه يا دكتور؟ هو إنت هنا علشان شغلي؟

قالها قبل أن يعود لمطاردة ثقوب الثوب فتنحنحتُ للمرة الثانية وقلت:

- كويس إنك جيت دوغري. سعاد عندي.

أنزل أبو المكارم الثوب ورفع رأسه حتى يصبحَ وجهي في منتصف عدسة نظارته المكسورة. دقيقةٌ أخرى طويلة مرّت علينا تبادلنا فيها النظرات قبل أن يُنهيَها الترزي قائلًا ببطء:

- بتعمل أيه عندك؟

- ما إنت اللي جيبتها العيادة، مش كده؟

- لا.

تأملت وجهه للحظةٍ قبل أن أقول:

- يعني هي اللي جت لوحدها؟

تنهّد أبو المكارم وأعاد النظارة على وجهه قائلًا بتفلفل:

- لو حاطط أمل إني هدفعلّك فيها حاجة تبقى غلطان. أديك شايف الحال.

تجاهلتُ الاتهام المضحك وسألته:

- هي أيه حكاية المانيكان دي؟

أطرق أبو المكارم مفكرًا قبل أن يجيب:

- كانت بتسمعني.

رجعتُ بظهري ورميتُ جليسي بنظرةٍ متشككةٍ قبل أن أقول:

- بمعنى؟

- كنت بشكيلَها همّي، وعمرها ما طلبت حاجة.

كان رد أبو المكارم قبل أن تتوقف يده الممسكة بالإبرة عند بداية الغُرزة:

- عمرها ما غدرت بيًا.

رغم أن عقلي كان يرفض ما يقوله الشيخ شكلًا ومضمونًا، فلا يوجد شيء يستحق كل هذا الحنق، لكنني لم أعلق. شيءٌ ما أخبرني أن أنصت لما يريد أن يقوله، وقد شعرت أن لديه مخزونًا يريد أن يطفو على السطح. استطرد أبو المكارم بنفس الشرود المريب وهو يشير للمانيكانات من حوله:

- دول مش زَيُّها. مفيش زي سعاد. من أيام جد جدي وهي بتسمع شكاوينا.

ثم صاح بغتةً صيحةً جعلتني أنتفض:

- هي فين يا دكتور؟

- في البيت عندي. ماتقلقش. اهدَى بس.

كانت إجابتي وأنا أتأمله لوهلة محاولًا تحليله، إن هذا الشخص لا يكذب. ولولا سماعي للميكروفون بأذنيَّ في محطة القَطر وعثوري على المانيكان أمام الموقد في المطبخ بالأمس ثم محترقةً في غرفة أليس اليوم، لقمتُ بتشخيص حالة أبو المكارم بالجنون على الفور. لقد بدأت خطوط الصورة تكتمل، الصبر يا سليم.

- إنت أحوالك أيه؟ صحيًا.

نظر إليَّ من فوق النظارة قبل أن يبتسم ساخرًا ويضيف:

- بيقولوا القُعْدَة لوحدي لحستلي مُخّي.

- ولو رجّعتلك المانيكان.. قصدي سعاد؟

- هحرقها!! زَيّ ما حرقت قلبي وسابتني. زي ما خانتني زَيُّهم.

هكذا صرخ بكل قوة حتى ظهرت عروق وجهه ورقبته واضحة. وبما أنها لم تكُن المرة الأولى التي يهتاج فيها بهذا الشكل فقد ثبتُّ مكاني وحدَّقت في وجه مُحدِّثي المحتقن ذي الذقن النابت.

- إنت عارف إنها مانيكان مش كده؟ يعني جماد.

ابتسم أبو المكارم هازئًا وعاد لمتابعة عمله وهو يقول:

- شكلك شاطر في الطب يا دكتور سليم، بس إنسان خايب.

نهضتُ واتجهتُ إلى باب المشغل بعد أن شعرت أن هذا الحوار لن أصلَ منه إلى شيء

آخر، ثم توقفتْ واستدرتْ لأسأله:

- كنت بتشتكيلها من أيه؟

- هيكون من أيه؟ مِنّها لله اللي كانت السبب.

هكذا أجابني بنظرةٍ يُثقلها الألم ثم اهتاج الترزي العجوز مرةً أخرى:

- سنين ومراتي عايشة في ملكوتها وسايباني لوحدي. أدخل عليها تقوم تسيبني وتروح المطبخ. بتقعد مع البوتاجاز أكتر ما بتقعد معايا. تقولشِي من كُتر ما بتطبخ.

ثم انفجر في نهاية جملته:

- وفي الآخر أخدت عيالي مني. بنت الـ...!! ورَبّ العزّة لَخرَق قلبها زَيّ ما حرقت قلبي. ولا واحد منهم هيفلت مني!! هحرق قلبهم كلهم!

"بوتاجاز"؟

تأملته للحظةٍ، أتدبّر فيما قاله، ثم استأذنتُ وغادرتُ المشغل شاعرًا بعينيه تكادان تخترقان جمجمتي. قبل أن أبتعد عن العمارة ألقيتُ نظرةً أخيرة عليه من خلال النافذة. وجدته ينظر إلى صورة قديمة معلقة على الحائط لامرأةٍ وطفلين قبل أن يرمي القماشة من يده ويضع كفّه على رأسه في تأثر. ركل بعدها ماكينة الخياطة ولملم أشياءه ليخرج بسرعة.

تواريتُ خلف سيارة نقل أراقبه وهو يمدُّ الخُطا قبل أن أنتبه إلى رنين هاتفي. أجبتُه دون أن أحيد ببصري عن الترزي العجوز وهو يسير مبتعدًا.

- فيه أيه يا نهلة؟ أنا أجازة النهارده.

خرج صوت نهلة عاليًا من الهاتف ليجعلني أحوّل تركيزي للمكالمة.

- مش فاهم مِنّك حاجة يا نهلة. جنان أيه اللي بيحصل في المستشفى؟

استمعتُ إليها بكل جوارحي ثم أنهيت المكالمة وأنا أستوقف سيّارة أجرة.

- أنا رايح المستشفى يا دوسري. متطلعش العيادة. عايزك تمشي ورا الترزي ده. متسيبوش غير لما تعرف رايح فين.

هحرَق قلبهم؟ هذه جملة خطيرة.

***

هذا الظمأ الرهيب، فمي جافٌ تمامًا.

- عندك تفسير للّي بيحصل ده؟

هكذا سألتني نهلة وهي ترتدي ملابسها المُعقَّمة وتعطي يديها للممرضة كي تغسلهما وتُلبسها القفاز الطبي. شردت في جهاز التنفس الصناعي وذهني تعصف به آلاف الأسئلة المتداخلة. فأمامي تنكمش القِزنة الجلديّة وتتمدّد كأنها رئة تتنفس، وهو شيء طبيعي لو اعتبرنا أن هذا هو ما صُمم له جهاز التنفس الاصطناعي، لكن ما ليس له تفسير هو أنه غير متصل بمريض ولا بمصدر كهرباء من أساسه. يحاول فني الصيانة الوصول لتفسير لكنه يجلس عاجزًا، فهو أمام جهاز قديم لم يتم التخلص منه وأصبح دوره ينحصر في مصدر لقِطع الغيار، جهاز مقطوع السلك كان آخَر من اتصل به هو شقيقي سالم.

خرجت من شرودي حين قالت إحدى الممرضتين وهي تبتسم بسماجة:

- المريضة اللي كانت هنا إمبارح سألت على حضرتك يا دكتور.

أضافت الممرضة الأصغر سِنًا وهي تغمز لها:

- دي مكانتش مريضة، كان عندها صدمة عصبية وضيق تنفُّس بس. مشيت الصبح لما بقت كويِّسة. وسألت على حضرتك النهارده فعلًا.

صاحت نهلة بمزاحها المعتاد:

- وإنت تقولّي إمبارح إنها واحدة كده؟ حكايتها أيه الست دي؟ كنتم مسافرين مع بعض ولّا أيه؟

أجبتُها محاولًا الاحتفاظ ببرودي المعتاد، متجاهلًا لمزات وغمزات الممرضات:

- نهلة، البنت دي كانت هتموت معايا في القطر. نادوا عليّا في الميكروفون ونزلت من القطر وهي ورايا. ولما وصلت لقيت الميكروفون اللي نادى عليّا خربان زي ما سِبته، زي الجهاز ده بالظبط. بعدها بدقيقة المحطة ولعت. وأول إمبارح جاتلي مانيكان خشب تكشف عندي. في حاجة بتحصل حواليّا مش فاهمها يا نهلة. وإنتِ عارفة إن دي أكتر حاجة بكرَهَها في حياتي.

- طيب طيب مالك اتحمقت كده؟ إنت بقالك كام يوم متوتر قوي حتى من قبل حادثة المحطة.

- أليس منعاني من الدَّوا.

- نعم؟! الكلبة بتاعتك؟

هتفت بعيونها الجاحظة قبل أن تنتبه إلى الممرضة الرئيسة التي أخبرتها بانتهاء إجراءات الاستعداد. التفتت طالبةً من الفنّي أن يتركنا حتى يتسنّى لها التجهيز للعملية، فعدل الكاب على وجهه ونهض ليخرج من الغرفة. توقف بجواري لجزءٍ من الثانية، الكتف في الكتف، وقال شيئًا. لكني لم أكن مُنصتًا، بعد أن تضاربت المشاعر بداخلي وأنا أحدّق في الجهاز الذي حضر وفاة توأمي. أما عقلي، فكان في وادٍ آخر، يعمل بكامل طاقته حتى يربط الأحداث ببعض. نظريات ومعلومات وشواهد وخيوط يحاول ربطها مع بعضها كي يحصل على صورة مفهومة ومنطقيّة. لماذا هذا الجهاز بالذات؟ أشد ما أكره هو أن أقف عاجزًا أمام تحدٍّ ذهني، يغيظني حتى الغليان. هذا جمادٌ آخَر تدبُّ فيه الحياة، ثالث الأشياء التي تتصرف كأنها ترسل إشاراتٍ حية. هناك تفسيرات منطقية لكل هذا، أدرك هذا تمامًا، لكنها تبريرات يستنتجها عقلي ويرفضها قلبي. الغلبة دومًا كانت للأول، لكن لمَنْ ستكون اليوم؟

تُرى، هل هذا هو الفرق بين الذكاء والحكمة؟

خرجتُ من الغرفة بعد أن وعدتُ نهلة بتفسير ما قلته لتوّي لاحقًا وذهبت لأشرب من مُبرّد المياه. هذه مفارقة أخرى، فهذا الظمأ لا يبدو لي عشوائيًا. كم كان شعور الارتواء رائعًا!

أفرغت الجهاز من مياهه قبل أن أنتبه إلى تلك الكلمة: *إشارات*. سطعت فكرة في ذهني فاستدرت لأغادر المستشفى مسرعًا كي أعود للمانيكان، فما كانت تفعله لا بُدَّ أنه ليس عشوائيًا هو الآخر، هذا كله نسيج قصة واحدة. قصة مؤلمة، خيالية، مخيفة، لكنها تكتمل في ذهني ببطء. لكن مع تركيزي في تلك النقطة وغليان عقلي في متاهة الأُحجيّة التي وجدتُ نفسي فيها لم أنتبه إلى أجراس الإنذار في المستشفى التي بدأت في الصراخ لحظةَ خروجي منها. انتبهت فقط للنداء.

- دكتور سليم!

تسمَّرت يدي على مقبض باب التاكسي والتفتُّ لأجد عينين خَضْرَاوين مسحوبتين، عينَي قُطَيطَة فائقتي الجمال تطلُّ منهما حيرة وقلق.

- عايدة، إزيّك؟ خير فيه حاجة؟

أخرجَتْ ورقةً مطويّةً ومدت يدها بها إليّ قائلة:

- فيه يا دكتور.

هـو

كان قسم الحروق كخليّة النحل منذ حادث المحطة أمس. ما بين ممرضين ينقلون المرضى وأطباء استمرت نوبتهم ما يزيد على أربعٍ وعشرين ساعةً متواصلة، إلى الأهالي الثُّكلَى الذين شاهدوا بأعينهم فلذات أكبادهم محترقين.

كانت "أنشودة موت بحق".

لكن لنترك هذه المشاهد المؤلمة ونذهب إلى الطابق الهادئ الذي يرقد فيه معظم من تم إعطاؤهم العناية القصوى. لكنه بلا طائل، فحالتهم أصعب من أن تُتدارك. كل ما يمكن تقديمه لهم الآن هي المُسكِّنات القوية والدعوات.

لكنه كان لديه رأي آخر.

كان يقف بجوار سليم، في زيّ فنّي الصيانة، الكتف في الكتف، يكاد أن يسمع أفكاره، ويشاركه حيرته. فقد تأكد لتوّه من المعجزة التي أنقذت سليم والمرأة الشقراء من القدَر الذي خطط له، وهذا جعله يشعرُ بِصلَةٍ ما نشأت بينهما. لكن سيتولى أمره لاحقًا، فهو هنا لعزف مقطوعة أخرى.

بنفس الثبات الذي دخل به خرج من الغرفة، غير مرئي، لا يثير الشكوك. ذهب إلى نهاية الردهة.

لنصعد معه السلّم بنفس هدوئه ونتفادى السيرك العشوائي في قسم الطوارئ وندخل معه قسم الرعاية المُركّزة. يضمن له زيّ فني الصيانة المرور بين أسرّة المرضى دون اعتراض من طاقم التمريض الذي كان معظمه مشغولًا بحالاتٍ تنتظرُ دورها فى العناية.

بنفس الهدوء يختار أول فِرَاش ويقف بجواره. يضع الحقيبة الجلديّة السوداء على الكرسي ويلتفت للمصاب. يتنفس الأخير بصعوبةٍ ويفتح عينيه وقد شعر به. يمدُّ يدَه ليمسح على شعر المصاب المحترق وينحني ليهمس فى أُذنه. تسيلُ دموعُ المصاب على وجهه المسلوخ وتتعالى أنفاسه ثم يبدأ يهزُّ رأسه.

أيًّا ما كان يقوله المايسترو فى أُذنه فإنه يوافق عليه بكل وجدانه.

يعتدل المايسترو ويمدُّ يده ليخرج حقنة من الحقيبة السوداء. ينظر مرةً أخيرةً فى عين المصاب السليمة ويبادل ابتسامته بواحدةٍ مثلها.

يحقن العبوة المتصلة بشريانه ثم يضع الحقنة فى الحقيبة ويتركه دون أن يلتفت وراءه.

لكنه يعرف أنه يبتسم، قبل أن تهدأ حركته ويستعدُ للنهاية.

ثم ذهب مَلاكُ الموتِ لفراشٍ آخر.

حازم

الوقت ليس في صالحي. يجبُ أن أعثرَ على الجاني قبل أن ينفجر كل شيء في وجهي، قبل أن يتأذّى أقرب الناس إليّ.

في الطابق الثالث من العمارة القديمة بذلك الحي الشعبي وقفت أمام الباب المتهالك. تبادلتُ مع جِنّي نظراتٍ يشوبها الملل ونفاد الصبر قبل أن أطرقَ زجاج الباب مرةً أخرى. حاول الأخير أن يبدو طبيعيًا وجال ببصره في السلم صعودًا ونزولًا بحثًا عن اللاشيء وأنا أراقبه بطرف عينيّ. هذا الأحمق هو الآن رفيقي في السلاح، حامي ظهري وساعدي الأيمن، وهو ما سيجعل عينيّ في وسط رأسي. أين أنت يا منعم؟ كيف صار رفيق سلاحي بهذه الرداءة بعدك؟

انتهت اللحظةُ حين فتحت البابَ خمسينيةٌ دائريةُ الوجه في جلباب منزلي أسود، يغطي شعرها منديلٌ فلاحيّ بنفس اللون. ملامحها المنتفخة تدل على أنها كانت تَبكي وَما إنْ سألتها عن زوجها حتى اتضح السبب. فقد انفجرت في العويل وغمغمت بأدعيةٍ وتوسّلاتٍ أن أعيد لها زوجها، حتى جاءت فتاةٌ مراهقةٌ وأسرعت باحتضانها قائلة:

- أبويا مرجعش البيت بقاله تلات أيام يا باشا.

التفتُّ إلى جِنّي قائلًا:

سيادة الرائد معلش، اعملّنا تحرياتك بقى. وزينا شغل المباحث اللي على أصوله.

*

جلستُ في الصالون البسيط مع الفتاة التي أدخلت أمّها غرفة النوم وعادت إليّ. حاولت أن تبدو متماسكةً وهي تقول:

- من ساعة حادثة الوابور والدنيا قلبت فوق راسنا يا باشا. الناس بتقول إن أبويا هو اللي عمل كده، إن هو اللي مَوّت الناس دي كلها.

- وإنتي أيه رأيك؟

- رأيي في أيه يا باشا؟ أبويا بقاله عشرين سنة سوّاق قُطر، عشرين سنة مسئول عن أرواح الناس، وعمره ما يعمل كده؛ خصوصًا وهو...

بترَتْ عبارتُها وابتلعتْ غُصّةً عالقةً في حلقها.

- اتكلمي متخافيش.

- أبويا كان بيموت يا باشا. بيغسل كِلْيته مرتين في الإسبوع ومكنش نافع. حالته بتبوظ يوم عن يوم ومبقيناش قادرين على مصاريف العلاج. يقوم يعمل كده، وهو عارف إنه هيقابل ربّ كريم في أي لحظة.

أشاحت بعينيها التي اغرورقت بالدموع بعيدًا في نفس اللحظة التي ظهر فيها حِجّي عند باب الشقة. تنحنح وصاح لينبه أهل البيت:

- يا ساتر.

- هو أيه اللي يا ساتر. ادخل يا سيادة الرائد.

هكذا علقتْ بوجهٍ محتقن. دخل حِجّي واتجه ليجلس معنا ثم انحنى عليّ قائلًا:

- أهل الحتة مش عايزين يتكلموا عنه. اللي صعبان عليه واللي بيلومه وشايفه لا مؤاخذة مجرم (رمى الفتاةَ بنظرةِ اعتذارٍ وتمتم بكلماتٍ غير مفهومة) إكمنُه يعني اتحال على المعاش بدري. بيقولوا إنه عملها كيد في مديره وهيئة السكة الحديد كلها علشان التعنُّت اللي حصل معاه.

هنا التفتت الفتاة إلينا وجففت دموعها قائلة:

- اتحال على المعاش؟ ولا قالُنا حاجة.

هز حِجّي لها رأسه بلا معنى والتفت لي مستطردًا:

- وفيه اللي شايف إنه هيشيلها لوحده علشان يداروا على إهمال الهيئة. إنما فيه واحد صاحبه من شِلّته بتاعة القهوة بيقول إنه بقالُه شهر مبيجيش وبيروح حتّة تانية.

قاطعته الفتاةُ مرةً أخرى بصوتٍ أعلى:

- أيه الكلام الغريب ده؟ أبويا كل يوم على القهوة. أومّال كان بيروح فين؟

تبادلتُ مع حِجّي نظرةً خاطفةً ففمز لي بما معناه أنه سيخبرني لاحقًا، في نفس اللحظة التي دق فيها هاتفي المحمول. ما إن قرأت اسم منعم حتى أجبته على الفور، وثقب صوتُه الجهوري أُذني:

- حازم، اجري حالًا على المستشفى بتاعة سليم. في كارثة حصلت.

***

كادت عيناي أن تخترقا شاشة الكمبيوتر التي كانت تعرض تسجيلًا حيًا لوقت وفاة

ضحايا حريق المحطة. كلما انتهى التسجيل أمرتُ موظفَ الأمن أن يعيده مرةً أخرى، فمن رابع المستحيلات أن يظهر مرتكب الجريمة وتظلّ هيئته غير واضحة بهذه الصورة. هذا بالإضافة إلى أنه ليس هناك كاميرا في وحدة رعاية الحروق، ليس هناك سوى التسجيل الواضح لسليم وهو يغادر المستشفى على عُجالَة ليقابل فتاة القطار الشقراء ويستقلّا سيارة أجرة. وعندما تأكّدتُ أنه غادر بعد اكتشاف الجريمة المروّعة في قسم الحروق بالضبط، ازددتُ يقينًا أنه هو العقل المُدبّر وراء كل ما يحدث.

زاغت عيناي للحظةٍ عن الشاشة حين اقترب حِجّي وقررت تجاهله، لكنني غدت لأحدّق فيه مذهولًا.

- أيه اللي إنت لابسه ده؟

سألته مستنكرًا وأنا أشير إلى بنطاله الأزرق المتعارض مع قميصه الأخضر وحذائه الأبيض الرياضي. هذا غير رابطة العنق الزّهريّة التي جعلته أقرب إلى ذكَر الببغاء.

- أيه؟ ماله؟ ما إحنا ممكن نلبس ملكي.

- وده لبس ملكي؟ ده لبس بلياتشو. وبعدين غيّرت لبسك ليه، وإمتى؟ في...

بترتُ جملتي حين لمحت الموظف يضحك فصحتُ به:

- خلّيك في حالك يا جدع إنت.

قلتها بنبرةٍ أقرب للبصاق فذابت ابتسامته وابيضّ وجهه قبل أن ألتفت لزميلي:

- تعالَ نروح نتكلّم مع الدكتورة نهلة دي.

- ياريت.

تسمّرت للحظةٍ وحدّقت في حِجّي محاولًا استيعاب سبب سعادته المفاجئة قبل أن أهزّ رأسي وأعاود السير.

الرحمة يا رب.

***

- دكتورة نهلة، كانت أيه مشكلة جهاز التنفس؟

هكذا كان سؤالي الأول بعد أن تركتُ جسدي الهائل يسقط على الأريكة فتئنّ معترضة. سلّكتُ حنجرتي واعتدلت محرجًا بعد أن شعرت أن الأريكة على وشك الانهيار، ثم رمقت

حِجّي بنظرةٍ خاطفةٍ لأجدَه مبتسمًا في بَلهٍ وعيناه عالقتان على دكتورة نهلة. رغم الإرهاق الشديد الذي كان واضحًا عليها وتورُّم عينيها من أثر الدموع المحتبسة، فإنه لم يمنعها من إعطاء حِجّي نظرةً كلها نفور واشمئزاز قبل أن توجه كلامها إليّ:

- ده جهاز عطلان بقاله سنين واشتغل لوحده. رغم إنه مش واصل بالكهرباء ونُص مُكوِّناته مش موجودة. استخدمناها قطع غيار.

- اشتغل لوحده؟ زيّ الميكروفون؟

قلتها ساخرًا لكنها ظلّت محتفظةً بتعبير الاشمئزاز، فأردفتُ بجديّةٍ حين شعرتُ أنه موجّه إليّ:

- طيب. ممكن تحكيلنا عن دكتور سليم.

- أحكيلكم عن سليم؟ أيه علاقة سليم باللي حصل النهارده؟

- يا ريت تستحملينا شويّة. الموقف صعب ومتشابك وفيه حاجات ممكن متشوفيهاش.

telegram: @alanbyawardmsr

هكذا أجبتُها وأن أدور بعيني في المكان. كان الجو حولنا مشحونًا ومزدحمًا بالعشرات من الممرضين وأهالي المرضى المصعوقين والمخبرين ورجال البحث الجنائي في مشهدٍ حادّ التفاصيل. أشرت إلى حِجّي كي يغلقَ الباب ثم ملتُ على دكتورة نهلة قائلًا:

- دكتور سليم سابك قبل الضحايا ما...

أغمضت عينيها تأثرًا وارتعشت شفتاها فتدخّل حِجّي قائلًا:

- تحبي ترتاحي شوية يا دكتورة؟ أجيبلك حاجة تشربيها؟

التفتُّ إليه محتقنَ الوجهِ لكنني لم أعلق واكتفيتُ بنظرة ثاقبة. كررت سؤالي على نهلة:

- سليم سابك قبلها على طول، مش كده؟

تماسكَت بسرعة وعدلت وضع عويناتها بعصبية واكتسب صوتُها نبرته العالية وهي تجيب:

- حازم بيه، دكتور سليم علَم من أعلام جراحة المخ والأعصاب والطب بصفة عامة. ده غير أبحاثه في مجال الإدراك الحسي ودراساته في الفلسفة والمنطق. مَحدَش عاقل ممكن يشك إنه ورا اللي بيحصل.

شعرت أن وجهي قد ازداد احتقانًا ووجه حِجّي ابتسامًا.

- ومين قالّك إننا شاكّين فيه؟ دي أسئلة عادية.

- أرجوك متستهنش بذكائي.

أجابتني نهلة كأنها أمٌ تؤنّب ابنها فجعلتْ صوتي أكثر خشونةً وعمقًا علّها ترتجع وتخشاني قليلًا، ولو أنني أني شعرت أن تلك المرأة لا تعرف الخوف:

- يا دكتورة، سليم نزِل قبل الرصيف ما يولع بثواني. ودلوقتي اختفى وقت موت ضحايا الحادث. الموضوع خطير وأكبر مما يُمكنك استيعابه. يا ريت تجاوبي على أسئلتي.

لم يأتِ تأثير صوتي المرتفع والخشن بالنتيجة المرجوّة، فقد لوت شفتيها وأعطتني نفس ابتسامة النفور التي أهدتها لجِدّي قبلها بثوانٍ ثم قالت:

- ياريت أسئلتك تبقى مُحدِّدة. عايز تعرف أيه؟

- قويّة.

نظرت إلى جِدّي الذي فلتت كلمته الأخيرة رغمًا عنه وهو يتأمل نهلةَ في إعجابٍ ووَلَه. زفرتُ حنقًا والتفتُ إليها لأقول من بين أسناني:

- سلوكه، أخلاقه، تاريخه المهني، أي حاجة تساعدنا نفهمه. سليم هو الوحيد اللي نجِي بمعجزة، هو والست اللي مش عارفين نوصلّها دي.

- تفهمه؟ صعب جدًا تفهمه. مش علشان فارق الذكاء الشاسع بينه وبينّا بس، دكتور سليم صندوق أسود ملوش مفتاح. ولا هو نفسه معاه مفتاحه لأنه مش قادر يستوعب حدود عقله لغاية دلوقت. وبعدين لو شاكّين فيه وعايزين تعرفوا اللي حصل عندكم شرايط المراقبة وأقوال الشهود.

أنهت نهلةُ حديثَها وهي تضع ساقًا فوق الأخرى.

- قوية بجد.

هنا بدأت أعصابي تفلتُ وقلتُ بنبرةٍ عالية:

- فرق ذكاء؟؟ إحنا مش أغبيا يا دكتورة.

- ومش عارفين توصلوا للبنت ليه إن شاء الله؟ طب دي كانت هنا ولسّه طالعة الصبح.

هنا انقلب حالي مائة وثمانين درجة وأنا أقول:

- صحيح؟ طيب لو تسمحي آخُد تفاصيلها.

ابتسمت بسخافةٍ مُتعمَّدةٍ وقالت وهي تنهض من مكانها:

- عينيًا. هجبلّك اسمها. وياريت تسيبونا في المأساة اللي إحنا فيها.

***

طفقتُ أسترجعُ ما رأيته في كاميرا المراقبة وأنا جالس بجوار حِجّي الذي كان يقود سيارته ببطء شديد. حاولت الوصول لتفسير، لكنني لم أجد غير الشيء الواضح كالشمس. إنه سليم، لا يوجد غيره، فما سمعتُه من نهلة عنه لم يشفع له، بل إنه قد بدأ يستفزُّني لأقصى درجة.

أوَّل دَفعته. باحث فذّ له أوراق علمية عدة ورسالتا دكتوراه. تاريخه المهنيّ يكاد يخلو من الأخطاء، بل وله مواقف مذهلة استطاع فيها إنقاذ مرضاه من موتٍ مُحقّقٍ أو مصيرٍ مظلم. يربي كلبة ويراعيها – كانت رفيقة شقيقه – وله أيادٍ بيضاء على المتعثرين ماديًا من مرضاه. لكنَّ هناك نقطتين تستحقان التدقيق.

أولاهما هي ملابسات وفاة توأمه. فكما أخبرني منعم، فإن سالم قد مات مختنقًا بعد أن تعرض جهاز التنفس الاصطناعي الذي كان يربطه بالحياة إلى عطلٍ مفاجئ، نفس الجهاز الذي دبَّت فيه الحياة بينما كانت أرواح الضحايا تُزهق في الطابق الأعلى. أخبرني أيضًا أن سليم، الذي كان طبيبًا في الامتياز وقتها وكان ملاصقًا لأخيه منذ لحظة دخوله المستشفى، قد ملأ الدنيا صياحًا واتَّهم الإدارة بأكثر من مجرد تقصير. فهو كان ولا زال موقنًا أن العطل كان بفعل فاعل. وبما أنه لم يستطع تقديم الدليل فقد اضطر في النهاية للرضوخ للتفسير المعلَن. لكنه تغير تمامًا بعدها.

فقدَ شغفه بكل شيء دنيوي، أصبح يعيش بلا هدف إلا أبحاثه التي لا يعرف أحدٌ لها اتجاهًا محددًا. ولولا أن عمله يتيح له الفرصة لجمع البيانات من الحالات المختلفة، لكان قد توقف عن الذهاب للمستشفى والعيادة منذ زمن.

تدبَّرتُ في التفاصيل التي سمعتُها والتفتُّ للحِجّي الذي كان لا يزالُ مبتسمًا بلا سبب، فهتفتُ به كي يزيدَ من سرعته وغدتُ للتفكير.

أما النقطة الثانية المثيرة للاهتمام فهي أن أبحاث سليم الحاليّة هي في مجال هو أقرب للشعوذة. وهذا هو التشبيه الذي أصرَرتُ عليه بعد أن أخبرني أحد زملاء سليم أن الأخير مؤمن تمامًا أن العقل له قدرات وأبعاد لم نكتشف منها سوى القشور وأن الكون كله في العقل البشري. هذا هو ما قاله سليم حرفيًا وما لا أجد له معنى مما زاد من غيظي منه.

شعوذة وخَرَف. وسليم هذا مجنون وقاتل ومتعجرف.

أفقتُ على صوت آلة تنبيه تدقُّ بعصبية من ورائنا. التفتُ لأجد السائق يشيح بيديه غاضبًا من قيادة جِدّي. نظرت لمؤشر السرعة لأجده عند العشرين فالتفتُ إلى زميلي الذي كان يدندن بأغنية لعبد الحليم. هَزَزْتُ رأسي وأغمضتُ عينيّ مستسلمًا لقدري قبل أن أديرَ رأسي لأنظرَ إلى عمارة سليم.

- وصلنا. بطّل غُنَى واركن. يا ربي ارحمني!

هذه القضية ستنتهي بي متهمًا بقتل جِدّي هذا.

سليم

كانت لوحة مخيفة حقًّا، تلك التي أرتني إيّاها عايدة. ليس فقط بسبب التشابه الواضح بيني وبين ذلك الرجل ذي البالطو الأبيض والشعر المجعّد القصير والذي يزيّن وجهَه شاربٌ رفيعٌ مثل شارب "حسن أرابيسك"، بل لأنها هزّتني وزعزعتني رجًا. فما كان مرسومًا على الورقة التي أرتني إيّاها هو مشهد لشاطئ البحر في يومٍ غائمٍ كئيب. وهناك، في مياهه الضحلة التي تُدثّر الرمال، العشرات من البشر يحتضنُ كلٌّ منهم شريك حياته في عناقٍ دافئ، كأنهما يلوذان ببعضهما، لحظة نهاية العالَم. وهذا ينطبق على كل الأزواج المرسومة في اللوحة، إلا صاحب المعطف الأبيض الذي تتدلى من عنقه سمّاعةٌ طبيّة وتستقرُّ على ظهره. هو الشخص الوحيد المميز، فبخلاف لون بشرته الرّماديّة، فهو يحتضن تمثالًا... من الثلج.

اللعنة عليكِ يا أليس، اللعنة عليكِ. لم أكُن أريد أن أشعرَ بما أشعر به الآن. كنتُ في راحةٍ بعيدًا عن كل ما هو آدمي.

ابتلعتُ غُصّةً علقت في حلقي واستجمعتُ أنفاسي التي هربت من قسوة اللوحة ثم التفتُّ إلى عايدة. كانت تجلس بجانبي في المقعد الخلفي للسيارة الأجرة ترمقني بنظرةٍ شعرتُ فيها بمزيجٍ مخيفٍ من الحنان والحيرة. نعم، للمرة الأولى منذ أعوام أشعر به، أشعر بالخوف من شيء ما غير الأبواب المغلقة. ليس بسبب ما رأيته في المحطة، ليس بسبب ما رأيته في المستشفى، ليس بسبب المانيكان والميكروفون، بل بسبب تلك النظرة التي تعطيني إيّاها، النظرة التي تُشعرني بضعفي، بالحاجة إليها.

جفلتُ منتبهًا لتلك الأشياء التي بدأت تقع حولي، كأنها ريش أسود يتطاير من غرابٍ اقتحم لتوّه مروحةَ طيّارة نفّاثة. عدتُها أكثر مما كانت عليه من قبل، أنا موقن من هذا. لماذا تزداد؟ ما الذي يحدث لي؟

حاولت تشخيص هذه الحالة لكنني لم أسمع بتلك الأعراض من قبل ثم لمحتُها تراقبني في فضول. تجاهلتُ الظاهرة المقلقة وأرجأتُ التفكير فيها لوقتٍ لاحقٍ قبل أن يخرج مني الصوت مبحوحًا:

- ق... إحم... قولتيلي مين اللي رسم اللوحة دي؟

- أخويا، عيسى.

عدتُ مجدّدًا لأتأمل اللوحة الصادمة. كيف؟ كيف استطاع شابٌّ مصابٌ بمتلازمة داون، لم يزني من قبل، أن يجسد ما يدور في أعمق أعماقي، ويلخصه بهذه الدقة؟ بل ويجسده

أفضل مني، أفضل مما كان يمكنني أن أصف لو حاولتُ لألف عام. ثم لاحظت أن عايدة لا زالت ترمقني بعينيها الخَضْرَاوَيْن الواسعتَيْن، تحاول استشفاف ما أشعر به، تريد أن ترى أي رد فعل، تبحث عن الإنسان المختبئ في أعماق سليم لقمان، فالتفتُّ إليها.

- وأيه اللي خلّاكي تهتمي بالرسمة قوي كده؟

حدّقت في وجهي وجحظت عيناها مستنكرةً سؤالي فاستدركت:

- قصدي غير إني مقابلتوش قبل كده.

دفعت بخُصلة شقراء خلف أذنيها وقالت:

- وده مش كفاية؟ عمومًا، مش عارفة أقولها إزاي، بس ده بالظبط كان إحساسي لما شُفتك.

- اللي هو أيه؟ إني شخص بارد؟ إنتِ مش أول واحدة تقولّي كده. مش هزعل، متقلقيش.

قلتُها وأنا أحاول التظاهر بالهدوء رغم أن الغُصّة قد عادت لتسدّ حلقي. لكنها أسرعت وقالت:

- لا لا، مش كده. قصدي... رمادي... وحيد.

حككتُ شاربي الرفيع بأسناني السفلية كعادتي حين أحاول إظهار عكس ما أشعر. دعكتُ عيني من خلال الإطار الخاوي كي أنفضَ منها الهمّ، ثم رسمتُ بعدها ابتسامةً باهتةً وقلت:

- إنتي عارفة... أنا حاسس إني حلمت بالمشهد ده قبل كده. ومش مرة واحدة. بس المُهدّئات كانت رحماني منه.

شعرتُ أنها تريد أن تمدّ إليّ يدها لتحتويني؛ لتمسح دموعًا لم تُرَها، دموع تصورت هي أنها حتمًا تصارع كي تتحرر، لكنها اكتفت بحضن عينيها. لم يَكُن هذا قريبًا من الواقع ولو بأميال، أنا لن تُبكيني لوحة خرساء. أليس كذلك؟ ليس بعد كل ما رأيته. أنا لن تبكيني لوحة خرساء. تبًا، لماذا أكرر كلامي؟

صرفتُ بصري بعيدًا عنها كي لا تسوّل لها نفسها التمادي في إظهار مشاعرها وزممتُ شفتيّ ناظرًا للطريق، واضعًا سورًا عاليًا بيننا. شعرتُ بها تتأمّلُني في حيرةٍ حتى قررت أن تُنهي اللحظة المربكة وتتنهد مستسلمةً وتقول:

- تفسيرك أيه يا دكتور؟

ثم جاء دوري لألتفتُ إليها وأحدّق في وجهها محاولًا تصنيفها، كما أفعل مع كل شيء.

فكل ما أراه لا بُدّ أن له مُسمًّى، تفسيرًا منطقيًا لوجوده. لكن لا، عيناي الخبيرتان تقفان حائرتين أمام عينيها الفارسيتين ذات الخَضار القريب من لون الفستق، عينين تشعّان بالدفء وحنان أنثوي غريزي حولها إطار من الأمواج الذهبية. ألوان غريبة عن عالمي الرّمادي ودفء يزيد من قسوة برودته. لكن هذا ليس بالشيء الغريب، فبعد تجربة اليوم السابق واقترابنا من الموت بهذا القدر، كان كافيًا لخلقِ رابطٍ وهميٍ بيننا. بالتأكيد وهمي.

- إنتِ عاملة أيه دلوقتي؟

سألتها في محاولةٍ لتشتيت ذهني عن تلك الأفكار، فأنا أحتاجه الآن أكثر من أي وقت مضى، يجب أن يعمل بكل طاقته بعد أن تضاعفتْ حولي الألغاز. لا بُدّ أنها شعرت بما يجول في رأسي، باهتمامي الزائف، فقد ابتسمتْ مُجاملةً لي. لكنها ابتسامة لم تستمرّ طويلًا، فعند هذا المستوى الراقي من المشاعر والأحاسيس من الصعب خداع المرأة. وهي ليست أية مرأة، ليس بعد أن رأيتُها تصارع مارد الحزن واليأس في أروقة المستشفى. فهي أقوى مما تتخيّل. عبس وجهها رغمًا عنها وهي تقول:

- عيسى عرف منين يا دكتور؟

أطرقتُ مفكرًا لوهلةٍ قبل أن أرفع رأسي وأقول:

- عندك مانع أشوفه؟

ترددتْ للحظةٍ ثم هزت رأسها بالموافقة. نظرتُ لسائق السيارة وقلت:

- معلش هنغير وجهتنا.

- اطلع على مصر الجديدة.

قالتها عايدة في نفس اللحظة التي دق هاتفي فالتقطته لأقرأ اسم دوسري.

- أنا عرفت المكان اللي راحله الترزي يا دكتور. قهوة متطرّفة برّه البلد. على طريق الزقازيق.

كتبت الاسم على وُرَيقة صغيرة كانت أمامي في أرضية التاكسي ثم أنهيتُ المكالمة. فطفتْ شفتي مستعجبًا من اسم المكان الذي أخبرني به دوسري:

"قهوة الخمسة وعشرين".

هـو

توقفت السيارة الفيات البيضاء ذات الفانوس المكسور في مكانها المعتاد؛ أسفل النافذة في ذلك الحي الشعبي.

- أنا بطلب مرة واحدة بس يا غاياتي. عايز مقابلة مع الألوسي. وجهّا لوجه.

هكذا قال لمحدثه عبر المحمول ليأتيه ردٌ ساخرٌ:

- وماله، اطلب. بس مين اللي ينفذ لك؟ تقابل الألوسي مرة واحدة؟ طب قول على مرتين.

ضحك الغاياتي بعدها وانتظر ردّه. طالت لحظةُ الصمتِ وبدأ التوتر يتسلل إلى الغاياتي وقد استعاد أحداث اليومين الآتفَين. فمن هو قادر على القيام بتلك المجازر لهو وحش لا يعرف الرحمة، ليس هناك فعل بعيد عنه.

- رُحت فين؟

تأمل المايسترو قضبان النافذة لوهلةٍ قبل أن يبتسم هازئًا ويجيب الغاياتي:

- خلاص، نخلّيها على مرتين.

أنهى المكالمة وأغلق هاتفه في وجه مُحدّثه الذي كان يصيح على الطرف الآخر ثم ترجّل من السيارة. يبدو أن التلاعب والإرهاب النفسي اللذين مارسهما مع الغاياتي لا يكفيان. هكذا دار بذهنه قبل أن يدخل العمارة وينزل إلى الشقة الوحيدة بالبدروم. ما إن دخلها حتى استقبلته رائحة الكعك الغنية فأضاء نور الصالة الصغيرة وأغلق باب الشقة. نزع عنه السُّترة ليظهر تحتها زيُّ فنّي الصيانة الملطّخ ببصمات الأيادي الدامية ثم اتجه للمطبخ متناهي الصِّغَر. رغم إعاقتها، فالعجوز الكفيفة قادرة على خلق تُحف فنية في الفرن الصغير.

- إنت جيت يا حبيبي؟

- أيوه يا أمي.

كان رده وهو يقبّل شعر رأسها الرمادي الخفيف، يحب أن يناديها بهذا الاسم، فهو يسهّل عليه مهمته السوداوية. رفعت يدها لتتحسّس ملامح وجهه لكنه مال للخلف مبتعدًا عنها. انطفأت ابتسامتها الدائمةُ وأغلقت أصابعها، فقد كانت تلك اللحظة كافية كي تقرأ ملامحه.

- مالَك يابني؟

لم يردّ. خرج من المطبخ متناهي الصِّغَر للصالة المليئة بالأثاث العتيق الذى كاد لونه الأدكن أن يختفى. جلس على أحد الكراسي شاردًا. تحسّست طريقها خلفه وجلست على الأريكة بجواره، ساكنة، تستشعر بحواسها.

- فيك ريحة غريبة.

رغمًا عنه توالت على ذهنه لقطاتٌ له بجوار الأسرّة في المستشفى، مشاهِد لمن رحمهم من العذاب. وللمرة الثانية لم يُجِبها. لكنه لم يَكُن يحتاج لأن يفعل كي تفهمَ هي قسوة ما مَرّ به.

- أنا مش هسألك تاني إنت بتعمل أيه وبتغيب بتروح فين. إنت اللي ربنا بعتهولي عوض عن ولادي، كل اللي عايزاه إنى أطّمّن عليك.

صمتتْ للحظةٍ قبل أن تردف:

- يابني طمّني.

- أنا كويّس يا أمى.

- ريحتك ريحة موت يا بني.

تمالك نفسه كي لا يطفوَ ما يشعر به فوق سطحه البارد بينما ظلت هي صامتةً لوهلةٍ حاولت فيها استشفاف ما به. أمسك يدها وقبّلها قبل أن تترك وجهه وتنزل على قميصه الملطّخ بالدماء والرماد، آثار مَنْ تشبّث به من ضحاياه. سحبت يدها بغتةً وتسمّرت للحظةٍ فحوّل نظره إليها ببطء ودقق في ملامحها. توقف الزمن لجزءٍ من الثانية وتجمّد المشهد قبل أن تستجمع نفسها وتنهض لتدخل المطبخ.

- طيب جهّز السفرة. أنا عاملالك غَدَا.

تأملها للحظةٍ محاولًا معرفة سبب تردُدها لكنه نفى احتمالية أن تكون قد قرأت منه ما أراد إخفاءه. بادرته في مرح مصطنع:

- علشان تعرف بس إن العمى مش هيمنعني عن الطبيخ.

هزّ رأسه وصرف بصره إلى المائدة.

- حاضر.

قالها ونهض ليأتي بالأطباق ويضعها على السُّفرة. التفت بعدها ليجدها منهمكةً فى إعداد الغداء وهي تتحسّس طريقها حول المطبخ فتحرك ناحية البيانو وجلس أمامه. أخذ نَفَسًا عميقًا وأغلق عينيه قبل أن يضع أطراف أصابعه على مفاتيحه.

ثم بدأ في العزف.

موسيقاه دومًا حزينة تقطر كدماء، تجعل أنفاسها تختنق وعبراتها تتسابق للنزول. لكنها في هذه اللحظة تشعر بها أكثر حزنًا، أكثر إيلامًا، أكثر قربًا من جراحها. ليست المرة الأولى التي تسمعه يعزف بهذه المشاعر لكن قلبها انقبض أكثر من المعتاد لسببٍ ما.

أخفضت نار البوتاجاز وأطرقت لتبكي في صمت، لا ترى نفسها ولا تعبأ بمظهرها، لا تعبأ بدموعها التي بلّت قميص نومها الباهت.

أما هو، فكان يعزف بكل وجدانه، كلماتها ترنُّ في رأسه.

"رائحتك رائحة موت"، كَم أنتِ فَطِنة يا أمي!

عايـدة

تمنيتُ أن يكون لديّ ربع هدوئه. ولا يسعني سوى أن أتساءل، هل يشعر بتوتري وقلقي؟ أم يراني مثله، رمادية لا طعم لي ولا إحساس؟ لن أنظر ناحيته، فهو يقرؤني كما يطالع الصحيفة، أنا موقنةٌ من هذا، وهو شعور غير مريح. يتابعني خلسةً من وراء تلك النظارة عديمة الزجاج ويحلل كل خَلَجة وكل رعشة. كلما نظرت ناحيته يحاول إيهامي أنه يتابع أشياءَ لا وجودَ لها حولي. سأبقي عينيّ على الطريق إلى بيتي إذًا، لن أُشعِره بضيقي من تلك النظرات الخاطفة.

هل هي إعجاب؟

منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها في محطة مصر وأنا أشعر به داخل رأسي، يَزِن كل لفتة من لفتاتي ويدوِّنها في أرشيف هائل داخل عقله. هنا لا بُدَّ أن أعترف إنني لم أمانع، بل رحبت به. كنت في حاجة إلى اهتمام شخص مثله، شخص شديد الاتزان، شخص تتحطَّم عليه أمواج الحياة التي تُهشِّم الضعفاء من أمثالي. لم أكُن أعرف قبل تلك اللحظة كَمْ أنا بائسة، يائسة، مجروحة. لكني سأستمر. من أجل عيسى سأستمر، من أجل مَن يشبهني ممَّن قسَتِ الدنيا على هشاشتهم حتى أصبحنا أرقُّ من أوراق الخريف الجافة، سهلة التحليق عاليًا... والانسحاق تحت الأقدام.

كأنه الدنيا بكل جفائها وحياديَّتها المؤلمة. كنتُ بحاجةٍ إلى أن يرى كَمْ أنا جميلة من الداخل كما أنا من الخارج، كنتُ بحاجةٍ إلى إرضائه. والآن بعد أن اقتربت منه أكثر، لا أعتقد أن اهتمامه بي كان إعجابًا، بل فضول مخلوق فضائي يرى بَشَريًّا للمرة الأولى. أصبحت أعرفه باسم "دكتور سليم"، لكنه سيظل بالنسبة لي "مستر جراي"، أكثر مَنْ رأيت في حياتي ثباتًا وبرودًا. حتى حين انفتحت علينا أبوابُ الجحيمِ في المحطة وحاصرتنا النيرانُ من كل صوب، كان هو هادئًا منظمًا كالروبوت، كأنه يمرُّ بموقفٍ مشابهٍ كل صباح. ظننته في البداية بسبب طبيعة عمله، لكن لا، هذا الرجل قد تحجَّر من الداخل كأن "ميدوسًا" نفسها قد أقحمت رأسها ذا الثعابين في صدره ونظرت إلى قلبه فجعلته صخرًا.

وقد كان هذا هو كل ما أحتاجه، كان بطلي، كان ماردًا من فولاذ. صحيح أنه لم يمدَّ يده لتنتشلني، لكنه كان أرضًا صلبة غرزت فيها قدمي لأقف ثابتةً وسط الزلازل. شعرت بِصِلةٍ بيننا امتدت في اللحظة التي واجهنا فيها الموت معًا، صلة لا أستطيع تفسيرها، كأنَّ رُوحينا قد صارتا جزءًا من أنشودة واحدة. لم تكُن أنشودة عشق وغرام بل كانت لها نغماتٌ أرقى وأعقد من أن أصفها. وكيف أستطيع أن أصفَ لحظةَ ذعرٍ صافٍ امتزج مع سكون من النوع

الذي يأتي بعد الانفجار؟ كيف أصف لحظةً رقص فيها اليأس بأحلك ألوانه مع الأمل في أقوى صوره؟ ولم تكن لحظة واحدة، بل شعرت بهذه الصلة مرةً أخرى في المستشفى حين حاصرتني الصرخاتُ والأوجاعُ ووجوهُ المصابين المشوّهة.

وكما فشل هو في إصلاح أجسادهم فشلت أنا في ترميم أرواحهم.

وسط هذا كله رأيت وجهه، مرةً أخرى. نفس الهدوء الظاهري الذي يخفي وراءه الكثير. وحين أراحني على السرير وأمسك يدي شعرت بهذه الصلة تمتد ثانيةً. أنا مَنْ كان مصدر أمان لكلِّ مَنْ حولي طيلة عمري أنتظره من غريب عني. لا، بل أتُوق إليه بكل وجداني.

مستر جراي، هلّا سمحت لي أن ألتقط القلمَ وأضيف لحياتك لونًا؟

دارت هذ الأفكار في رأسي دون أن أنظر إليه، لكن قلبي كاد أن يدفعني لأفعلها. سمعته يتصل بزميلةٍ له لكنها لم تردَّ فترك لها رسالةً صوتيّة. طلب منها أن تُطمئنه على سبب إطلاق صافرة الإنذار في المستشفى ثم أخبرها بذهابه سعيًا وراء خيطٍ ما. هي زميلة عمَل إذًا ليس إلا. شَخَص بعدها ببصره بعيدًا، تائهًا، كأن روحه قد تركت جسده.

مَنْ أنت يا سليم لقمان؟ بل أين أنت؟ أنت موجود معنا حقًّا أم أنك زائر غريب، تحيا في عالم آخر، عالم رمادي؟

لم أفهم ما كان يعنيه بكلامه عن الفهدْنات وكيف أنها كانت تحميه من شيءٍ ما، لكننا كنّا قد بلغنا بيتي في مصر الجديدة فامتنعتُ عن السؤال. بعد أن قام بالدفع للسائق التفت ليراني حائرة. كيف أمكنني أن أدعو غريبًا إلى بيتي؟ طلبتُ منه أن ينتظر دقائق قبل أن يصعد خلفي، إلى الطابق الثالث حيث سيجد بابًا مميزًا للغاية. مثل رقعة الشُطرَنج، كان وصفي له.

*

انتظر سليم كما طلبتُ منه وتظاهر بالانشغال بهاتفه لدقائق قبل أن يصعد إلى شقتي. فتحتُ له الباب لأجده قاطبًا حاجبيه الرفيعين حين رأى تصميمه العجيب. لكنه لم يعلق. تلك المربعات السوداء والأخرى البيضاء هي تصميمي الخاص، فكل شيء بالنسبة إليّ إما أبيض أو أسود، لا وجود للرّمادي في حياتي ولا لأنصاف الحلول. هذا حتى اللحظة التي رأيت فيها "مستر جراي"، وأدركتُ أن في الحياة أشياء لا تتبع هذه القاعدة، أشياء لا أستطيع تفسيرها أو تصنيفها. حياة كاملة لم أرَها من قبل، عالم خاص بذاته يكمن في تلك المساحة التي لا تُذكر، في الحد الفاصل بين هذين اللونين.

بين النور والظلام.

دعوته للدخول غير واثقةٍ من صواب هذا القرار. ولا بُدَّ أنه شعر بتوتري وترددي فقال:

- تحبي آجي في وقت تاني؟ أو تجيبي أخوكي وتيجي عندي العيادة؟

هَزَزْتُ رأسي بالنفي وكررتُ دعوتي له وأنا أمدُّ يدي أمامي، كَمْ أكره أن أكون مقروءةً لهذه الدرجة. التفت عيسى إليه حين دلف الشقة وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة العريضة التي تضحك معها ملامحه كلها. ضاقت عيناه الخَضْراوَان حتى اختفى بياضهما وترك القلم الرَّصاص الذي كان يرسم به، ليشير إلى سليم بحماس طفوليٍّ ويدعوه أن يلقي نظرة على آخر رسوماته. تردد سليم لجزءٍ من الثانية ونظر ناحيتي فأومأتُ له بالموافقة. اقترب من عيسى الذي قال ببراءة وهو يبتسم:

- إزيَّك يا دكتون (دكتور)؟

بادله سليم الترحاب بابتسامةٍ أبويَّة قبل أن يومئ إليَّ. فهمت قصده وجئتُ له بكرسي وجلستُ أنا على الأريكة. لاحظتُ أن رسمة عيسى هي لِبَابٍ يشبهُ باب شقتنا، مثل رقعة الشطرنج، وهناك شيء مبهم أمامه، تفصيلة لم ينتهِ منها عيسى بعد. لكن لم أعلق.

- إنت تعرفني يا عيسى؟

قالها سليم وهو يجلس بجوار الأخير. دون أن يتخلَّى عن ابتسامته، اكتفى عيسى بهزِّ كتفيه والتقط القلم الرصاص ليكمل رسمته. نظر سليم إليَّ فأخرجتُ لوحة الشاطئ الرَّمَادية التي رسمها وسألتُ شقيقي:

- عيسى يا حبيبي، ممكن تقولِّي أيه اللي خلَّاك ترسم اللوحة دي؟

بدأت ابتسامته تذوب وهو يرمي سليم بنظراتٍ خاطفةٍ ويتمتمُ بكلماتٍ غير مفهومة. ثم وضع القلم على لوحته وتوقف عن الرسم.

- متخفش يا عيسى، أنا صديق عايدة.

رمقني عيسى بإحدى نظراته التي لا تستمر سوى جزءٍ من الثانية، تلك التي تبدو وكأنها طيفٌ يخشى البقاء.

- أنا مش طفل.

قالها بمسحة غضب فابتسمتُ له مشجعةً:

- مين قال كده؟ ده إنت راجل البيت.

ارتضى بكلماتي وحوَّل بصره لسليم وهو يهزُّ كتفيه مجيبًا إيّاه:

- أنا كنت عطّان (عطشان) ورسمت.

فهمه سليم لكنه استعجب الرد والتفت إليّ قائلًا:

- عطشان؟

كانت حيرتي مضاعفة وظللت مُحدِّقةً في أخي في محاولةٍ لاستيعاب ما قاله قبل أن أتذكَّر.

- هو الكلام ده صحيح. قبل ما أنزل كان عطشان بطريقة غريبة وشرب إزازتين مَيّة. وبعد كِدَه قعد يرسم.

هنا تبدَّلت ملامح سليم تمامًا وتلاشى البرود والحيادية ليحلَّ مكانها جذوةُ حماس. همس لنفسه بشيءٍ في شرودٍ قبل أن يسألني:

- هو بياخد أدوية؟

- أيوه.

طلب مني أن أكتب له قائمة الأدوية وأخرج دفتر روشتاته ليعطيه لي. ترددتُ للحظةٍ ثم أخذتُها منه لاكتب اسم أول دواء. توترتُ وارتعشَت أصابعي وأنا أتوقَّع ما سيحدث. أخذت نَفَسًا عميقًا كأنني سأقفز إلى أعماق الصفحة البيضاء.

- مالِك؟

قالها سليم بعد أن لاحظ تحديقي في القلم فقلتُ بذهنٍ شارد:

- خايفة معرفش أكتب.

ضيَّق عينيه ورمقني باستغرابٍ فاستدركتُ قائلة:

- أصلي بقالي كام يوم بأحاول أكتب في دفتر ناعوت بس الأقلام معانداني.

حانت منه نظرةٌ للدفتر العتيق الذي يبرز غلافُه الجلدي من حقيبتي ثم قال:

- دفتر والدك؟

ابتسمتُ وقد راقَ لي أنه تذكَّر حديثنا قبل أن أضيف:

- بالظبط. عمومًا خلّيني أجيبلَك روشتات أدوية عيسى أحسن.

ظلت عيناهُ تنتقلان بيني وبين دفتر ناعوت فنهضتُ وذهبتُ لغرفتي لأرحم نفسي من نظراته، فهو لا يدرك مدى حدّتها. لمحته يمدُّ يدَه ليتحسّس الغلاف الجلدي وبالأخص الوجه المحفور عليه، شعرت أنه يقيّم ما قاله قبل أن يهتف من مكانه:

- مش يمكن المشكلة في الدفتر نفسه؟

تسمّرت يدي على مقبض الدولاب بعد أن صدمني ببساطة هذا التفسير. استغرقتُ ثواني أتدبّر فيما قاله، ثم تذكّرت. أخرجتُ رأسي من الدولاب ونظرت إليه قائلة:

- بس ده فيه كتابات.

فتح الدفتر وقرأ بعض الخواطر التي كتبها والدي في الصفحات البيضاء قبل أن يغمغم في شرود:

- ساعات الجماد بيفاجئنا بتصرُّفات غريبة.

سألته مستنكرة:

- تصرفات؟ من الجماد؟

تصفّح أوراق الدفتر بسرعة قبل أن ينتبه إلى عيسى الذي رفع عينيه عن لوحته وابتسم له بملء فِيهِ. تبادل معه نظرةً طويلةً قبل أن يغلق الدفتر وينهض ليقترب من الغرفة ويسألني، مغيرًا الموضوع:

- تحفة. تلاتينات؟

التفتُّ لأرى ما الذي يقصده لأجد الفستان الأزرق الأنيق يقف منتصبًا ورائي.

- 1904، أثري، بتاع الأميرة شويكار.

هكذا أجبته وأنا في طريقي إليه بملفٍّ مليءٍ بالرُّوشتّات، فالتقطها بعد أن ألقى نظرةً أخيرةً على الفستان وهو يغمغم: "تحفة". ثم استدار لي:

- بتشتغلي في الأزياء؟

- لا، أنا برغم الأنتيكات والقطع الأثرية. دي أول مرة أشتغل على فستان.

- كويس.

قالها لي وهو ينظر مرةً أخرى للفستان فاستغربت قائلة:

- كويس؟ ليه؟

أجابني وهو يعود ليجلس بجوار عيسى:

- لأن مش الهدوم اللي بتعمل الجمال. دي خديعة بيضحكوا بيها على الناس. كل اللي اللبس بيعمله إنه بيخلّي الحلو أحلى وبس.

- واللي مش حلو؟

- بيفضل كده. المشكلة إن معايير الجمال بتفرضها شركات الأزياء والإنتاج السينمائي لغاية ما الناس العادية يئست من شكلها، ولقوا إنه مستحيل يوصلوا للصورة اللي بيشوفوها على الشاشات.

استفزّني كلامُه فخرج تعليقي تلقائيًا:

- يا سلام. ما هو لازم يحاولوا يبقوا أحلى لأن الحلاوة نسبيّة. أنا ممكن أكون مش حلوة بس بتَجَمّل علشان أبقى حلوة في نظري أنا.

- كلام سليم، وده اللي الناس مفروض تعمله. مش مهم شكلك في عنيهم، المهم تكوني كِدَه في نظرك إنتي. "الجمال في عيون الناظر"، مسمعتيش المثل الإنجليزي ده؟

- أيه الغطرسة دي. وانت بقى مش بيهمّك شكلك في عينين الناس؟ وعلشان كِدَه سايب شنب هتلر ده؟

شعرتُ أنه فوجئ بكلماتي فقد التفتَ لينظر إلى نفسه في المرآة العريضة التي تحتلُّ نصف حائط الصالة خلف المكتب وقال:

- مالُه الشَّنَب؟

- ولابس نضارة من غير عدسات ليه إن شاء الله؟ أنا شايفاها محاولة للتفرُّد مثيرة للشفقة.

اكفهرَّ وجهُه وأطرقَ للحظةٍ قبل أن يرفع ملامحه الجامدة ويقول:

- دي نضّارة سالم، توأمي، الله يرحمه.

جاء دوري ليكفهرَّ وجهي ويهرب منه الدم وتلعثمتُ في محاولةٍ خرقاءَ للاعتذار، لكنه التفت للروشتات وقال بنبرةٍ جادّةٍ حازمة:

- لأ مش دي الأدوية اللي قصدي عليها. بياخد فهدْئات من أي نوع؟

كنت أريد أن أربّت على كتفه في تلك اللحظة، لكن نبرته القاسية ووجهه الجامد منعاني

فأجبته بصوتٍ خفيضٍ وأنا أتمنى الاختفاء:

- عيسى عنده ضعف في صمام القلب. مش بياخد مهدئات.

قلتها بصوتٍ مختنقٍ قبل أن ألتفت لأخي الذي قال:

- عايدة، عايز مَيّة. عطّان (عطشان).

تلاقت أعيننا أنا وسليم للحظةٍ خاطفةٍ وقد نجحت كلمات عيسى في انتزاع كُلٍّ منّا من ذكرى جراحه، في نفس اللحظة التي انقطع فيها النور.

- لا!! عايدة، ولّعي النون (النور). عايداة.

هكذا صاح عيسى بأعلى صوته. فهُرعت إليه لتهدئته لكنه ازداد هيستيريا.

- لازم أكفّل النَّسمَة (الرِّسمَة). عايدة ولّعي النون (النور). لازم أكملها.

telegram: @alanbyawardmsr

أخرج سليم هاتفه المحمول وسلّط نوره على لوحة عيسى. وما إنْ فعل حتى تسمّرت يده وهو يُحدّقُ فيها.

دون أن أتخلّى عن عناق شقيقي التفتُ إلى اللوحة التي سلّط عليها سليم ضوء هاتفه. فيها رأيت باب شقتي وأمامه تلك التفصيلة التي انتهى منها عيسى لتوّه: شخص يجلس القُرفُصاء، يفعل شيئًا ما بقُفل الباب.

وضع سليم سبّابته على شفتيه وأرهف السمع. وما إنْ فعلت مثله حتى شهقت غير مصدقة. الصوت لا يمكنني أن أخطئ فيه.

ففي هذه اللحظة كان هناك بالفعل مَن يحاول أن يفتح باب شقتي.

حـازم

- سليم مش فوق.

هكذا صرّح جِجي بعد أن سأل بوّاب العمارة. أشرتُ إلى أحد الجيران الذي خرج لتوّه من الباب قبل أن أنتبه إلى رنين هاتفي المحمول. المتصل هو عوني. رميتُ جِجي بنظرةٍ خاطفةٍ لأجده يمدُّ الخُطى ناحية الجار وبدأ يستجوبه فقمتُ بالرد سريعًا. ضغطتُ على حروف كلماتي حتى كدتُ أن أدمي لَثتِي من الغيظ:

- إنتوا اتجننتوا؟؟ دول دخلوا بيتي يا عوني!! لغاية أوضتي!! والحيوان اللي اسمه الغاياتي ده أنا هقتله. ده هدّد حياة أمي!! أمي يا عوني!!

جاء صوت عوني هادئًا:

- أنا حذرتك يا حازم وقلت لك بلاش الناس دي. مليش سيطرة على تصرفاتهم. وطالما حشّوا بالقلق يبقى إنت كمان لازم تحس بالقلق.. أضعاف.

لمحت جِجي الذي رمقني وفي عينيه تساؤلٌ فأعطيته ظهري وهمست:

- مش هعرف أتكلم دلوقتي.

- يا حازم إنت بتلعب بالنار. الناس اللي إنت أخدت فلوسهم ڤول لو حشّوا إنك بِخّ كِدَه مش راجع تاني جهاز المشروعات هيجيبوني أنا وإنت من قفانا.

- إدّيني ساعة وهاتّصِل بيك أنا.

صمت عوني للحظةٍ قبل أن يستعيد بروده وقال:

- براحتك!

كظمتُ غيظي بصعوبة.

- إنت بتهدّدني يا عوني؟

تخلّى عوني عن برودِه وهتف:

- بَهدّدك أيه بس! أنا رقبتي ملفوف عليها نفس الحبل اللي على رقبتك. حازم، أنا في عرضك، أرد على الألوسي أقولُه أيه؟

- قولُه أنا عند كلمتي. يومين بالكتير وهَلِمّ الليلة دي وأرجع مكاني. كل حاجة زَيّ ما هي. مفهوم؟ وإيّاك ألاقي حد منهم قُصادي!! والغاياتي ده حسابه معايا بعدين.

لم أنتظر حتى أسمع رد عوني وأنهيتُ المكالمة بكل غضب حتى كاد هاتفي أن ينسحق في كفّي العملاق. لاحظت أن حِجّي يقتربُ مني وعلى وجهه حالةٌ من السرور لا سبب لها.

سوف أهشم رأس حِجّي هذا، أسرّتُها لنفسي. إن لم يتوقف عن الدندنة وحالة الروقان المستفزة هذه، على الفور سأمسك برأسه وأضرب به درابزين السلم. لكن بما أنني لا أستطيع، ليس لشيء سوى توصيات سي منعم باشا، فليس أمامي سوى أن أتركه وأخرج من العمارة قبل أن أفعلها.

لم تسفر الزيارة عمّا تمنيته، فسليم لم يُستدَل على مكانه، بالتأكيد مختبئ في مكان ما. لكنها لم تكُن بلا فائدة تمامًا، وهذا لأن الجيران أخبرونا بتفاصيل كثيرة عن حياة سليم لقمان هذا، تفاصيل أكّدت شكوكي فيه.

هو من النوع الذي لا تسمع لهم صوتًا، ذلك النمط الهادئ حتى البرود. يصفه معظمُ جيرانه بالتعالي، ينعتونه بالغرور رغم أنهم لم يذكروا واقعةً بعينها، يكرهون انعزاله وعدمَ انخراطه في المناقشة كأنهم أدنى من أن يبذل معهم مجهودًا. مواعيد نشاطه ليست كباقي البشر، إما في الصباح بعد الفجر مباشرةً أو في المساء، ربما بعد منتصف الليل. لديه كلبة حراسة مزعجة وبعض العادات الغريبة. فهو لا يفتح لنفسه بابًا أبدًا، بل يجعل البوّاب يقوم بفتحه له، كأنه يخشى أن تكون الأبواب مُفخّخة أو شيء من هذا القبيل. حتى باب شقته يفتحه بنظامٍ يتعرّف على صوته حين ينطق بكلمةٍ أو جملةٍ ما. ولديه في شقته غرفة لا يفتحها أبدًا أمام أحد ولا يعرف أحدٌ محتواها.

وبالأمس القريب جاء قرب الفجر ومعه جسدٌ حمله بصعوبة وصعد به لشقته، جسد يُقسم لنا من أخبرنا أنه كان لامرأةٍ لا تتحرك. كل هذا جعلني أتيقّنُ من شكوكي وأثقُ أن سليم هذا جزء من كيان عصابي خطير، إن لم يَكُن زعيمه.

خرج حِجّي يلهث خلفي. لكني كنتُ ألهثُ أعلى منه بعد أن حاصرني شعورٌ بالاختناق، بالأثقال وهي تجرُّني إلى قاع النهر، بساقي وهي تنغرزُ في رمال الألوسي المتحركة مع مرور كل لحظة. وقتي ينفد؛ وكذلك اختياراتي.

- مالك بتجري ليه يا غمّ حازم؟

قاومتُ رغبتي في البصاق على ملابسه المزركشة التي جلبت لنا السخرية من القاصي والداني وفتحتُ باب السيارة بعنفٍ قائلًا:

- اطلع بينا على بيت عايدة. الليلة هتبات هي وسليم ده في إيدينا.

ما إن جلست في السيارة حتى دق هاتفي مرةً أخرى؛ فالتقطته لأجيب دون أن آبه بعلوّ صوتي:

- عوني، أقسم بالله لو ما بطّلتش...

انعقد لساني حين جاءني صوت أمي وهي تصرخ:

- الحقني يا حازم!

سليم

ليتني أدركتُ قبل هذه اللحظة الكنز الذي يقبع في رؤوس المتأخرين ذهنيًا، هكذا جال بخاطري وأنا أراقب عيسى. كنت مُدركًا أن لديهم منظورًا مختلفًا للأمور، وأن أذهانهم تعمل بطريقة مميزة، لكنني لم أدرك أن مفهوم الوعي ذاته له عندهم أبعاد مختلفة. وبعد أن رأيت عيسى ولوحته التي رسمني فيها قبل أن يراني، تلك اللوحة التي جسّد فيها شعوري أفضل مما كنت أعي، أصبحتُ أجزم أن الدنيا نفسها تتعامل مع مَنْ هم مثله بغير حياديّتها المطلقة. أكادُ أجزمُ أن الكون ينحاز إليهم بطريقةٍ ما، يصل إليهم بطرق ملتوية غير تلك التي يتعامل بها معنا.

أما السبب وراء ذلك، آليّته وقواعده، فهي أشياء لا تزال في علم الغيب، ولن أهدأ حتى أُلِمَّ بها. وحين أفعل سأكون قد توصلت إلى ماهيّة الإدراك نفسه، إلى حقيقة الكون وحدوده.

لكن ما سرُّ الظمأ الذي شعر به فجأة؟ أذكر أنني مررت بلحظاتٍ مماثلة، لحظة تعارفي الأول بـ "سعاد" المانيكان ولحظة حادث المحطة. وهناك لحظةٌ أخرى؛ حينما كنت في السيارة وبدأ الميكروفون القديم يهمس لنفسه؛ وكذلك اللحظة التي دبّت فيها الحياة في جهاز التنفُّس الاصطناعي. هناك شيءٌ لا أراه في هذه الصورة. حتى لو كان هناك تفسير لكل حالةٍ منها، فلا يمكن أن تكون مصادفة.

والآن عيسى هو الآخر ظمآن حتى ابيضَّ لسانه لكنّهُ لم يمدَّ يدَه ليلتقط زجاجة المياه التي جاءت بها شقيقته، بل انكبَّ على ورقته يرسم ما استنتجتُ أنه بابُ شَقَّتِهم. نفس المربعات البيضاء والسوداء. حتمًا هو، فلا يوجد باب بهذا القبح في أي مكان آخر.

حدّقت في الروشتات التي جلبتْها عايدة، لا شيءَ يدعو للفضول، أدوية عادية لمثل حالته. أزحتُها جانبًا والتفتُّ لما هو أهم، للدفتر الغامض الذي يرفض كلمات عايدة، وتأملت الكلمة المنقوش عليه: "ناعوت"، كلمة تعني "ما يستحق الذِّكر أو الوَصْف". تُرى هل المقصود بها الاسم أم المعنى؟ غلافه الجلدي العتيق أكسبه الزمن سوادًا امتزج بلونه البُنّي بأناقة والوجه المنقوش عليه، كَمْ يشبهها. التقطتُه لأجد ملمسه غنيًا محببًا للنفس، تصفّحت أوراقه المتباينة وقرأت خواطر والدها التي كتبها في الصفحات السوداء. عميقة أكثر مما يمكنني تذوقه، تصف المشكلات والصعوبات وتعطي لها حلولًا أبسط مما يمكنني تخيُّله. فالحياة أعقد من هذا. كان رحّالةً إذًا، مثلي، لكنه اكتفى بالطريق الممهّد ولم يجازف بالدخول في المدقّات والبراري الموحشة، ربما كان سيثير اهتمامي لو كنتُ التقيتُ به.

مررت بصفحاته بسرعة كأنها رزمة أوراق مالية كي أصل لنهايته. بغَضِّ النظر عن تكوينه

العجيب وتلك الصفحات شديدة السواد، لكن الدفتر نفسه يبدو طبيعيًا، ليس هناك تعويذة ما أو طِلَّسم يوحي بخواصَّ ما ورائيَّة، هكذا فكرتُ بنصف ابتسامة ساخرة. ربّاه، لقد أثار دفتر قديم فضولك يا سليم، هذا شعور منعش. لا بدَّ أن نوعية الورق ترفض الحبر والرصاص. ربما يجب أن نحاول بأقلام مختلفة.

انتبهتُ إلى عيسى الذي كان يرسم بكل وجدانه شخصًا ما منحنيًا أمام باب الشقة الذي يشبه رقعة الشُّطرَنج. ثم توقف لحظةً تصفُّحي لأوراق الدفتر بتلك الطريقة السريعة. تعجبت من ابتسامته العريضة واهتزاز رأسه، كأنه يوافقني على شيءٍ ما. كنت سأسأله عمَّا يوافقني عليه لولا أن الكهرباء قد انقطعت من الشقة. في نفس اللحظة التي سمعتُ فيها حركةً خفيفةً خارج الشقة ثم تكَّة مميزة. لقد سقط مفتاح الكهرباء العمومي.

أمسكت كفَّ عايدة كي تكفَّ عن الحركة وشعرتُ ببرودة يدها وارتعاشها. أما بالنسبة إليَّ فالموقف لا يحتاج عبقرية، ولا ينقصني دلائل أخرى كي أدرك ما الذي يحدث. إن من أسمعه خلف الباب هو شخص يحاول اقتحام الشقة. وبترتيبٍ بسيطٍ للأحداث أستطيعُ استنتاج أنه من تسبَّب في قطع الكهرباء.

- مين اللي برَّه؟ (همست لي عايدة بعد أن سحبت يدها من كفِّي).

نهضتُ بحرصٍ واتجهتُ لباب الشقة.

- أنا جاي معاك مستن (مستر) جناي (جراي).

هكذا صاح عيسى بحماسٍ لتضمَّه شقيقته بقوة وتهمس:

- لأ. خلِّيك معايا.

- متخفيش يا عايدة. انا راجل البيت.

ضمَّته إلى صدرها ولم تُجبه وظلت تتابعني من مكانها. تحسَّست طريقي مستعينًا بذاكرتي حتى بلغت باب الشقة. أرهفتُ السمع حتى تأكَّدت شكوكي، هناك بالفعل مَن يحاول (تطفيش) القُفل. تسمَّرت مكاني وأنا أراقب الظلَّ الذي كان يتحرك أسفل عقب الباب. أيًا من كان بالخارج، فهو جالس الآن على ركبتيه معتمدًا على نور هاتفه. التفتُّ إلى عايدة التي انكمشت مذعورةً وهي تتابعني بعيونٍ جاحظةٍ وأنفاسٍ مبهورة.

التهور ليس من شِيَمي، لكن لا يوجَد حلٌّ آخر.

هتفتُ بصوتٍ مسموع:

- فين صندوق الفيوزات؟

لم يأتني منها رد، لكن الحركة خلف باب الشقة سكنت.

- برة الشقة ولّا جوّه يا عايدة؟

لم تستطع أن تجيبني على هذا السؤال أيضًا، وقد ألجمَ الخوفُ لسانها. افتعلتُ جلبةً وقمت بالتحرك في اتجاهاتٍ مختلفةٍ قبل أن أتوقف في الردهة على يمين المدخل. وأنصتُ. لم أعُد أسمع شيئًا. اقتربتُ من الباب بحرصٍ وانتبهت بكل حواسّي قبل أن أضع كفّي عليه. للحظةٍ قصيرةٍ شعرت بمَن يقف خلف الباب يفعل نفس الشيء، أو يمكن هُيِّئ إليّ. لا أدري، لكنه خيالي الخصب الذي يتوحّش أمام الأبواب المغلقة، خيالي الذي صوَّر لي أن من يقف خارج الشقة قد نهض ووضع كفّه فوق كفّي عبر الباب. ثم لمحت الظلّ يتراجع حتى اختفى واختفى معه ضوء الهاتف المحمول ليعود السُّلّم مظلمًا كما كان.

تدبَّرتُ في الموقف لوهلةٍ قبل أن أعود إلى عايدة مستغرقًا في التفكير. لا إراديًا جلستُ على الكرسي المقابل لها وحدّقت في وجهها دون أن أعلّق بينما بادلتني هي نظرةً تصرخُ بذعرٍ ألجمَ لسانها. كنت أحاول ربط الخيوط، يعمل ذهني بكل طاقته، حتى توصلت لنقطة مهمة: إن هذه فرصة لا تعوَّض لضرب عصفورين بحجر. انحنيتُ عليها قائلًا بنبرةٍ حاولت أن تحوي على أكبر قدر من الحيادية كي لا أصيبَها بالذعر أو الشك:

- عايدة، وصّبي شنطتك. لازم تيجوا معايا. إنتي مش في أمان.

قبل أن تُفيق من صدمة ما قلته سقط ضوءُ هاتفها المحمول على عيسى الذي جاء ليقف أمامنا بحقيبته وهو يقول:

- أنا جاهز.

هـو

عايدة، اسمُها، فاتنةٌ بمقاييس كل الأزمنة، جميلةٌ روحًا وجسدًا. ترى أن بإمكانها مداواة الجروح، أن تجبر الكسور، ترى أن الأنين ليس نَفَسًا يضيع في الفضاء وأن الحنان ترياق كل السموم. واهمةٌ هي، نما جسدها وطال عمرُها لكنها ظلت بسذاجة الأطفال.

لكن هذا لا يشفعُ لها أن ترفض هديته، أن تخرج عن المسار الذي رسمه لها. لن يسمح لها أن تظل على قيد الحياة وتُفسد السيمفونية التي قام بعزفها في محطة مصر. بالعكس، فإن براءتها هذه لا تنتمي إلى هذا العالم الظالم، هي أولَى بالموت من غيرها، بالراحة من كل الشرور.

لم يتوقع وجود سليم مع عايدة وشقيقها. "مستر جراي"، هو متأكد أنه سمع شقيقها يهتفُ بهذه الكُنيَة رغم اعوجاج لسانه، لقب له نغمةٌ ومعنى. لكنه شعر به، شعر بسليم لقمان يضعُ يده فوق كفِّه عبر الباب، شعر بالصلة التي خُلِقَت بينهما.

حسنًا يا مستر جراي، أراك عاقدًا العزم على هذه الرحلة... إلى عالمي. كَمْ هذا منعش، فسوف يضيف وجودك طعمًا خاصًا للصراع الذي صار رتيبًا وبلا أية صعوبات.

مرحبًا بك عدوًا ورفيقًا.

خرج من باب العمارة بعد أن مسح المنطقة بعينيه وتأكَّد من عدم وجود مَن يراقبه. بلغ نهاية الرصيف وانعطف يسارًا ثم اتخذ من سور العمارة ساترًا. أنزل القُلَنسُوة فوق رأسه ليخفي وجهه واتجه لسيارته البيضاء ذات الفانوس المكسور.

يجبُ عليه الآن أن يقوم بخُطوةٍ قام بإرجائها كثيرًا. وبعد الخروج عن النصِّ الذي حدث في سيمفونيته الأخيرة، وهذا للمرَّة الأولى في تاريخه، بدأ شعورٌ غيرُ مريحٍ يتسلَّل إليه، تحذيرٌ ما. أخرج هاتفه المحمول وقام بالاتصال.

فهو لديه موعدٌ آخر مع القدَر.

حازم

صرخت في حِجّي كي يقف بالسيارة أمام بوابة فيلّتي، التي كانت مفتوحةً على مصراعيها. لم أنتظر حتى تقف السيارة تمامًا وقفزتُ منها ثم ركضتُ عبر البوابة. اتجهتُ مباشرةً إلى بيت رجب وطرقت على بابه.

- رجب مش هنا.

التفتُّ لأجدَ أُمي جالسةً على سورِ إسمنتيٍّ صغيرٍ يحيط بجراج السيارات. شعرُها الأصفر الذي يتخلله الشيب، شعرُها المُصفّف بعناية دائمًا، هو الآن في حالة يُرثى لها. الكحل يسيل أسفل عينيها الداميتين من أثر البكاء وفي يديها نبتةٌ لم يحالفها الحظُّ بعد لتنزل إلى رَحِم الأرض.

- أيه اللي حصل يا أمي؟

سألتها وقلبي يكاد يقفز من صدري فاختلجت ملامحها وتقلّصت للحظةٍ، في محاولةٍ للسيطرة على مشاعرها قبل أن تنفجر باكية. استغرق الأمر مني ما يقرب من الدقائق الخمس كي أهدئ من روع أمي التي ألقت بالنبتةِ أرضًا واستقرت بين أحضاني.

- ممكن أعرف أيه اللي حصل لرجب وعياله؟ أنا مفاصلي سابت يا أمي.

أخبرتني أنها كانت تتابعُ تركيبَ الأرجوحة التي ستفاجئ بها أطفال رجب حين عودتهم من البلد. رغم أن شركة الشحن تأخّرت عليها كثيرًا، وبالرغم من أن موعد نومها قد فات قبلها ببرهة، فإنها أصرّت أن يتم تركيبها أمامها. كانت تتخيّل رد فعل الطفلين وتصورتهما وهما يلعبان فوقها، ثم سمعت صوتًا عند البوابة الرئيسية. نظرت هناك لتجد رجلًا في زيٍّ فلاحيٍّ يلوّح بيده وينادي على أهل البيت. وحيث إنه لم يَكُن هناك من يُجيبه غيرُها فقد ذهبت إليه.

وما أخبرها به كان فاجعة.

- مراته وعياله الإتنين، ماتوا في حادثة محطة مصر يا حازم. مش بس كده، ده راح لرجب المستشفى وقتله هناك يا حازم. المجرم قتله مرتين. المجرم!!

شعرتُ بالدمِ ينسحبُ من وجهي وأدرتُه لأنظر إلى حِجّي الذي دخل لتوّه. تيبّست يدي الملتفة حول أمي قبل أن أنتزع نفسي من الصدمة وأحدّق في وجهها قائلًا:

- رجب وعياله ماتوا؟

لم تُجبني، بل انخرطت في البكاء مرةً أخرى. حملتها على ذراعيّ كي أدخل بها الفيلّا وأنا في صدمة تامة. مَن يحملني أنا؟ امتلأ ذهني بذكريات طفولتي ومناكفاتي مع رجب، ذلك الأسواني الجدَع، عِشرة العمر. صعدت غُصّةٌ كبيرةٌ إلى حلقي حين لمحت الأرجوحة التي لم يتم تركيبها بعد، وتخيلت الطفلين الأسمرين وهما يلعبان فوقها. ثم جاء مشهد رجب نفسه مع زوجته الشابة وطفليهما وسط النيران الملتهبة التي التهمت القطار، ينتظران قدَرهما بلا حيلة. مشهد عناقهم الأخير قبل أن يلتهمهم الوحش الناري.

"بأيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ".

وضعتُ أمي على الأريكة في الصالة وساعدتُها كي تستلقي على ظهرها. جلستُ بجوارها أربّتُ على ساقها دون أن أحاول إقناعها بالتوقف عن النحيب.

- رجب كان رايح بمراته لدكتور في دمنهور. بعد ما يئس منّك يا حازم.

أطرقتُ حين سمعتُ تلك الكلماتِ القاسية وضممتُ قبضتيّ بقوة. حانت منيّ نظرةٌ لبيت رجب الصغير بجوار البوّابة قبل أن يدقّ هاتفي. أخرجتُه من جيبي وقرأتُ اسم المتصل: "عوني".

قذفتُ بالهاتف بغضبٍ عارمٍ ليتحطم على الحائط إلى مائة قطعة.

اللعنة عليهم جميعًا! اللعنة على كل شيء!

وفي تلك اللحظة، في وسط ثورة بركاني، من فوق عرش الكراهية الذي جلستُ عليه حاكمًا منفردًا لعالم الغضب، عالم من نار، لمحت جِنّي يقف بلا حراك عند باب الفيلّا. ضممتُ قبضتيّ بكل قوتي حتى شعرت بمفاصل أصابعي تتسحق، ثم نهضت صائحًا في وجهه:

- جِنّي، أنا عايز أجيب الراجل ده. هقتلُه بإيدي دي.

أومأ بوقارٍ وأشار إليّ كي أتقدمه.

عايـدة

إن هذا لكابوس. مؤكَّد هو كذلك. وإلا فكيف تعرضتُ لكل هذه المصائب في غضون ساعات من بعضهم. ففي أقل من يومين كدتُ أن ألقى حتفي حرقًا في القطار، أو اختناقًا، أو كمدًا بسبب ما رأيته في المستشفى. ثم يأتي هذا المجهول ويحاول التسلُّل إلى بيتي. لماذا؟ أنا موقنةٌ أن مستر جراي يعرف شيئًا، تفسيرًا ما يخشى أن يُخبرني به. كأنني دُمية يخشى أن يكسرها لو أخبرها بالحقيقة. لكنه لا يعرف أنني يمكنني أن أصبح وحشًا لو حام الخطر حول أخي. أو ربما يعرف، لكنه لا يهتم.

أنا أثقُ به، ولا أعرف لهذا سببًا، ربما لما مررنا به من أهوال، أو ربما لأنني أحتاج لمن أثق به. كنت موقنةً أنه ليس كما يُظهر، ليس باردًا أو قاسيًا كما يبدو للناس، حتى لو لم يدرك هو نفسه هذا. ليس بعد أن أمسك بيدي في المستشفى لينتشلَني من بئر الجنون. ليس بعد أن أخبرني عن سبب ارتدائه لتلك النظارات الخالية من العدسات. كَمْ أردتُ أن أحتضنه لحظتها، أن أحتويَه، أن أحميَه، لكنه كان في غنى عن كل هذا. يسكن حصنًا منيعًا شاهقَ الأبراج، سميك الجدران، حصنًا شُيِّد على صخرةٍ منعزلةٍ في قلب بحرٍ هائج... يسكن فيه وحيدًا.

لكنه في قلب هذا الحصن، في قلب هذا العقل، في قلب هذا السجن، يُخفي أسرارًا. ترى ما الذي يخفيه عني؟

تقبَّل بصدرٍ رحبٍ طلبي أن أتصل بخَضْرَا المربية كي تبيتَ معنا في شقته. طيلةَ الطريق إلى بيته في ذلك الحي الراقي ظل سليم يتحدث مع عيسى حول أشياء بسيطة. لا أدري إن كان يفعلها من أجلي أم هو بالفعل مهتمٌّ بشقيقي.

صعدنا إلى الطابق الأخير في بناية سكنيَّة فاخرة، وما إنْ فعلنا حتى نطق بجملة لم ألتقطها، لكنها كانت بالإنجليزية. ثم انفتح الباب الوحيد في نهاية الردهة دون مقدمات. التفتُّ إلى سليم علَّه يفسر لي ما رأيته لكنني وجدته منهمكًا في الشرح لشقيقي آليَّة فتح الباب الأتوماتيكية عن طريق التعرف على صوته. رقيق هو، هكذا جال بخاطري، يريد أن يُشعرني بالاطمئنان على أخي. حتى إنه سمح لي أن آتي بالفستان الأزرق كي أنهي عملي به. لكني لا أظن أنني سأتمكن من تصفية ذهني كي أفعل.

أشار سليم إليَّ كي أدخلَ الشقة وما إنْ فعلتُ حتى تسمَّرتْ مكاني في انبهار. طابق كامل يطلُّ على حديقة هائلة وشارع عريض من نافذةٍ تحتلُّ جانبًا بأكمله. صالة واسعة ذات مستويين بها القليل من الأثاث العصري بالجلد الرمادي الأدْكَن ومدفأة ضخمة تحتلُّ يمين الصالة. فوقها صورة ساخرة لآينشتاين وهو يُخرج لسانه للمصوِّر وفي مقابلها، في الناحية

الأخرى من الصالة، مكتب أنيق يربض أمام شاشة لا تقلّ عن التسعين بوصة معلقة بجوار غرفة مغلقة.

لكن ألطف ما في المكان كانت الكلبة أليش.

ألقى سليم بسلسلة مفاتيحه في الطقطوقة الزجاجية وانحنى ليداعب رفيقته ويعاتبها بما فعلته بدوائه، ثم أشار إلينا. تركته الكلبة اللطيفة وذهبت مباشرةً إلى عيسى وهي تهزّ ذيلها الذهبيّ اللون غزير الشعر بسعادة. نظر الأخير إليّ كأنه يستأذنني فأومأتُ له مطمئنة. ابتسامة عريضة ملأت وجهه يشوبها شيءٌ من التوجّس وهو يربّت على الكلبة المتحمسة. ظلت تحاول لعق يديه وظلّ يتفادى لسانها قبل أن تعود إلى سليم. شجّعها الأخير أن تعود إلى عيسى وظل يراقبهما بفضول. ثم اعتدل واقفًا وأشار إلى خُطرًا داعيًا إيّاها للدخول وأن نتصرف كأننا في منزلنا. ثم تركنا ليدخل ممرًا في الجهة الأخرى. ذهبت خُطرًا لتضع الحقائب بينما انتقيتُ أنا أريكةً وذهبتُ لأجلس عليها. انغمس عيسى في اللعب مع الكلبة الوَنوذة وانعزل عن العالم.

تدريجيًا بدأت تفاصيل أدق تظهر لي، تفاصيل شديدة الخصوصية وروح حائرة للبيت، شعرت أنها هي سبب صدمتي الأولى، وليس أناقة الشقة.

أوراق مبعثرة فوق الطاولة وعلى الأريكة بجواري، صفحات تحتوي على مصطلحات علمية إنجليزية معقدة. وهناك ملاحظات مكتوبة باللغة العربية، ملاحظات تقول الكثير عن ذلك الطبيب الغامض مُحبّ الكلاب، الذي ظهر في حياتي لينقذني ثلاث مرات. تصفّحت الأوراق وعيناي تطيران فوق الكلمات المدوّنة على هامشها، وعرفت لحظتَها لمَ الروح الحائرة التي شعرت بها تجول في المكان.

حتى شقته رمادية، وكما لمحت حين فتح باب غرفته، فإن منامته كذلك رمادية اللون والأثاث هناك بدرجات الرمادي. نهضتُ من مكاني لأتأمّل الصورة الفوتوغرافية التي يظهر فيها سليم مع شخصٍ يشبهه تمامًا، صورة موضوعة في إطارٍ أنيقٍ أسفل آينشتاين. انقبض قلبي حين رأيتُ النظّارة على وجه أحدهما، ذلك الذي بلا شارب.

شعرت بالمشاعر تتكالبُ عليّ، تتضارب وتتضافرُ حتى انعقدت بلا حل. شعرت أن صدري يضيقُ بها فقررتُ أن أخرجها قبل أن ينشطر. أخرجت قلمًا جديدًا من حقيبة يدي وضغطتُ على مُؤخّرته ليخرج لي لسانه ثم تخشّبت يدي فوق الدفتر. تسارعتْ نبضاتُ قلبي وأنا أتحسّس جلده الناعم والاسم المنقوش عليه. حبستُ أنفاسي وفتحته ثم وضعتُ طرف القلم على الورقة الصفراء. جررتُ خطًا لم يترك أثره على الورقة فألقيتُ بالقلم في حقيبتي

الأخرى من الصالة، مكتب أنيق يربض أمامَ شاشةٍ لا تقلُّ عن التسعين بوصةً معلقةً بجوار غرفة مغلقة.

لكن ألطف ما في المكان كانت الكلبة أليس.

ألقى سليم بسلسلة مفاتيحه في الطقطوقة الزجاجية وانحنى ليداعب رفيقته ويعاتبها بما فعلته بدوائه، ثم أشار إلينا. تركته الكلبة اللطيفة وذهبت مباشرةً إلى عيسى وهي تهزُّ ذيلَها الذهبيَّ اللون غزير الشعر بسعادة. نظر الأخير إليَّ كأنه يستأذنني فأومأتُ له مُطمئِنة. ابتسامة عريضة ملأت وجهه يشوبها شيءٌ من التوجُّس وهو يربِّت على الكلبة المتحمسة. ظلت تحاول لعق يديه وظلَّ يتفادى لسانها قبل أن تعود إلى سليم. شجَّعها الأخير أن تعود إلى عيسى وظل يراقبهما بفضول. ثم اعتدل واقفًا وأشار إلى خَطْرَا داعيًا إيَّاها للدخول وأن نتصرف كأننا في منزلنا. ثم تركنا ليدخل ممرًّا في الجهة الأخرى. ذهبت خَطْرَا لتضع الحقائب بينما انتقيتُ أنا أريكةً وذهبتُ لأجلس عليها. انغمس عيسى في اللعب مع الكلبة الوَدُودَة وانعزل عن العالم.

تدريجيًّا بدأت تفاصيل أدق تظهر لي، تفاصيل شديدة الخصوصية وروح حائرة للبيت، شعرت أنها هي سبب صدمتي الأولى، وليس أناقة الشقة.

أوراق مبعثرة فوق الطاولة وعلى الأريكة بجواري، صفحات تحتوي على مصطلحات علمية إنجليزية معقدة. وهناك ملاحظات مكتوبة باللغة العربية، ملاحظات تقول الكثير عن ذلك الطبيب الغامض مُحبّ الكلاب، الذي ظهر في حياتي لينقذني ثلاث مرات. تصفَّحت الأوراق وعيناي تطيران فوق الكلمات المدوَّنة على هامشها، وعرفت لحظتَها لمَن الروح الحائرة التي شعرت بها تجول في المكان.

حتى شقته رمادية، وكما لمحت حين فتح باب غرفته، فإن منامته كذلك رمادية اللون والأثاث هناك بدرجات الرمادي. نهضتُ من مكاني لأتأمَّل الصورة الفوتوغرافية التي يظهر فيها سليم مع شخصٍ يشبهه تمامًا، صورة موضوعة في إطارٍ أنيقٍ أسفل آينشتاين. انقبض قلبي حين رأيتُ النظَّارة على وجه أحدهما، ذلك الذي بلا شارب.

telegram: @alanbyawardmsr

شعرت بالمشاعر تتكالبُ عليَّ، تتضارب وتتضافرُ حتى انعقدت بلا حل. شعرت أن صدري يضيقُ بها فقررتُ أن أخرجها قبل أن ينشطر. أخرجت قلمًا جديدًا من حقيبة يدي وضغطتُ على مُؤخِّرته ليخرج لي لسانه ثم تخشَّبت يدي فوق الدفتر. تسارَعت نبضاتُ قلبي وأنا أتحسَّس جلده الناعم والاسم المنقوش عليه. حبستُ أنفاسي وفتحتُه ثم وضعتُ طرف القلم على الورقة الصفراء. جررتُ خطًّا لم يترك أثره على الورقة فألقيتُ بالقلم في حقيبتي

والدفتر على الأريكة وزفرتُ بحرقة.

ثم تذكّرت ما قاله سليم. هل من الممكن أن تكون المشكلة في الدفتر نفسه؟ فكرة خيالية مجنونة، لكن أليس كل ما يحدث حولي ضربًا من الجنون؟ ما الضَّير في المحاولة؟ ثم إن الدفتر نفسه به كتابات. فتحتُ صفحةً بيضاء وقرأت...

"كَمْ أخجل حين أنظرُ في عين طفل، أشعرُ لحظتَها بأخطائي تزداد قبحًا في مرآة براءته".

أغمضتُ عيني تأثرًا بما قرأته، كَمْ كنتُ أتمنّى أن أعرفك على حقيقتك يا أبي، أن أسمع منك وأتكلم معك. لكنني كنتُ صغيرةً للغاية حين تُوفِّيتَ، ليس سِنًّا بل عقلًا ووعيًا.

فتحتُ عينيّ ومددتُ يدي لالتقطَ ورقةً من فوق مكتب سليم لأجرب الكتابة عليها، لكن ما إن فعلتُ حتى تقلصت معدتي وتأهّبت حواسي كلها. فقد لمحت شخصًا في المطبخ الأمريكي، يظهر طرف كتفه من خلف وحدة الأطباق. تحركتُ لليسار قليلًا كي أرى بصورةٍ أفضل ولهولي اكتشفتُ أنها امرأة. فجأةً اسودّت الدنيا أمامي وغَلَى الدمُ في عروقي. انتفضتُ وصحتُ في غَضَبٍ:

- متفتحيش الشُّنَط. مش هنقعد هنا!

خرج سليم من غرفته بقميصِ منامتهِ المفتوح وحدّق في وجهي متسائلًا:

- أيه اللي حصل؟

أشرتُ للمرأة قائلةً:

- مش أنت قلتلي إنك مش متجوز؟

خرج من الردهة لينظر لما أشير إليه وما إنْ فعل حتى أطلق سبّةً خافتة. انقلبت سحنتُه واحتقن وجهُه الأسمر وهو يمدُّ بخُطا واسعة للمطبخ.

- إنتي أيه اللي جابك هنا؟؟

تسمّرتُ مكاني وتوقف عيسى عن اللعب مع الكلبة ونحن نتابع الطبيب الأربعيني المحترم، وهو ينحني ليرفع المرأة بمنتهى اليسر كأنه بطل رفع أثقال. مددتُ يدي لأضمَّ شقيقي وتقهقرتُ مبتعدةً عن سليم، لكني فوجئت بالمرأة متخشبةً فوق كتفه بطريقةٍ غير طبيعية. عبرَ بها بجواري وخرج من الشقة ليلقيَها بجوار الباب الذي انفتح حين صاح به. وما إنْ فعل حتى ازدادت حيرتي، فهي لم تكُن بشرية، بل مانيكان خشبية نصفُها محترق. عاد سليم

للشقة ونظر إليّ دون أن يعلقَ ثم عاد لغرفته.

أسقط في يدي وندمتُ على تسرُّعي لكن ما فعله عيسى في تلك اللحظة جعلني أنا وخَضرَا وسليم نفسه نتسمّر في أماكننا مشدوهين. فقد هُرع عيسى خارج الشقة واحتضن المانيكان بكل دفء. خرجت الكلبةُ وراءه وظلت تنبحُ بسعادةٍ وهي تدور حولهما.

ببطءٍ استدرتُ لسليم لأجدَ وجهَه وقد أشرق في سعادةٍ وشقَّت ابتسامةٌ وجهَه العَبُوس وهو يراقب عيسى وأليس، قبل أن يستدير ليدخل غرفته.

هــو

المايسترو لا يقود أوركستراه فقط، بل أحيانًا يُضطر أن يعزف بنفسه.

هكذا تكون القيادة.

***

سافرت أصوات احتفال صاخب فوق المياه حتى بلغت العُشش والدكاكين والمباني المحيطة بنيل الزمالك. في المركّب الفخم ينتشر ضيوف من عِليَة القوم فوق سطح القارب وفي قاعته الفسيحة عديدة النوافذ. تجار، سماسرة، أصحاب شركات ورجال أعمال، يدورون حول بعضهم في حلقة علاقات منغلقة من المنافع. يمصُّون دماء الناس ولا يَمشون بعضهم بسوء.

لكن لا أحد يلاحظ عازف البيانو المنفرد. بين كل حينٍ ينتبه أحدهم إلى موسيقاه الحزينة التي لا تتناسب مع كوكتيلات الخمر والضحكات، ثم سرعان ما تُشتّت انتباهَه دقاتُ الطبول وتمايل النساء.

لكن الغاياتي كان يراقبه من بعيدٍ بكل تركيز وقلق، يلمع رأسه الأصلع تحت الأضواء الساطعة الزاهية، دون أن تجعله ملابسه باهظة الثمن يشعر بالانتماء لهولاء القوم. يعلم أنهم يرونه شرًّ لا بُدَّ منه، كمَن يربّي كلبًا شرسًا للحراسة ويخفيه عن العيون. لكن الغاياتي لم يَكُن يأبَه بهذا كله، يخشى فقط أن ينتبه أحدُهم لعازف البيانو الذي أعطى ظهرَه للحفل وتُخَفّي أسفل قُلنسوة سوداء كباقي زِيّه. ويخشى أكثر مما ينتويه العازف شخصيًا. تُرى، ما السبب في طلبه الغريب أن يدبر له الأمر كي يحلَّ محلَّ عازف البيانو الأصلي. وهل ما دفعه بالمقابل يكفي للمجازفة بوجود مجنون مثله هنا؟

لكنه يعلم أيضًا أنه لم يفعله من أجل المال فقط. فبالرغم من المبلغ الكبير الذي أعطاه إيَّاه والذي لا يمكنه تصوُّر مصدره - فإنه ليس السبب الوحيد.

فهو قد أصبح يخشاه. ناصر الغاياتي، شقيّ الأشقياء وعمدة بلطجيّة الزعربانة ووسط البلد، أصبح يرتعدُ من مجرد سماع صوت هذا الغامض. قرر تسميته المايسترو؛ وهذا لأنه دومًا يدندن بألحانٍ غريبةٍ عن أذنه. والآن، وبعد العزف المتمكّن الذي أدّاه ببراعة، أصبحت تلك الكُنْيَة مثالية. لم يعترض العازف نفسه على هذه التسمية، ولم يرحب بها أيضًا. ظل حياديًا باردًا كالصقيع وحدّق فيه بعينيه الخاويتين وهو يطلب منه أن يجعله يعزف هنا. وبعد انتشار خبر حادث محطة مصر بتفاصيله التي تشرح كيف استخدم الجاني عبوات

وقود عالي الجودة سريع الاختراق، تأكّد أنه مَنْ فعلها.

حين كشف عن وجهه، ورآه على هيئة مخالفة تمامًا لما تصوّره، ازداد خوفه منه وتضاعف حتى صار دُمْيةً في يديه. فهذا التصرف يعني أن صاحبه لم يعد يخشى شيئًا، لا يخشى أن ينكشف كأنه يستعد لمهمة أخيرة لن يخرج منها حيًا. يشعر الآن أنه أمام قوة كونيّة لا يقف أمامها شيء، إعصار مدمر يتجه صوب هدفه ضاربًا بعُرْض الحائط كل القيود والأعراف.

انتبه حين أعلن مُضيف الحفل، وهو شخصية معروفة في مجال الاستيراد والتصدير للمواد الغذائية، أن البوفيه مفتوح بالصالة السُفْلَى. نهض الغاياتي وكذلك فعل كل رجاله الذين كانوا يجلسون معه حول الطاولة. نظر إلى المايسترو فوجده يرمقه في قوةٍ من أسفل قَلَنْسُوته التي تظلل وجهه. ثم أشار إليه بحركةٍ لا تلفت الانتباه أن يجلس مُجَنْدًا. تردّد الغاياتي لوهلةٍ ودار بعينيه في أنحاء القاعة التي بدأت تخلو بسرعةٍ من الضيوف، لكنه انصاع في النهاية وأشار لرجاله أن يفعلوا مثله.

تقلّصت معدتُه حين نهض المايسترو وغادر القاعة. ظل الغاياتي على أعصابه لدقائق بدت له ولرجاله كالدهر قبل أن يتنهد بارتياحٍ حين عاد المايسترو. ثم انقبضت عضلاتُه مرةً أخرى حين رأى شُترات النجاة التي جاء بها ووضعها على طاولتهم بهدوء. قام الغاياتي بِعَدِّها فوجد شترةً لكلّ واحدٍ منهم. ابتلع ريقه والتفت للمايسترو الذي ذهب ليجلس خلف البيانو مرةً أخرى كأنّ شيئًا لم يَكُن.

سأل أحد رجال الغاياتي عمّا يحدث فأشار له الأخير بعصبيةٍ أن يصمت. لن يسأل المايسترو بالطبع. والآن القاعة خاوية إلا منه ورجاله الخمسة وذلك المجنون الجالس أمام مفاتيح البيانو. مَدَّ يده المرتعشة ليلتقطَ كأسه بينما بدأت موسيقا المايسترو الحزينة تنساب مرةً أخرى.

دقائق معدودة بدأ بعدها يسمع أصواتًا أخرى. دقّات وهتافات. ثم جلبة كبيرة وهزج ومزج سيطر على اليخت الهائل كله. العمال وطاقم الإنقاذ، حتى الرُبّان ومساعدوه، الكل يجري هنا وهناك. ثم بدأت الدنيا تميد بهم. في البداية ظنُّوا أنها الخمر تلعب برؤوسهم، لكن سرعان ما تحركت الطاولة بما عليها ومعها الكراسي وقطع الأثاث المنتشرة وتكدّست جميعًا في جانب القاعة الأيسر.

كل هذا ولم يتوقّف المايسترو عن العزف، بل ازدادَ حماسًا وازدادت نغماته غلوًا وكآبة.

ثم شعر الغاياتي ببلّلٍ في قدمه. انتفض واقفًا بغتةً حين رأى أن الماء قد بدأ ينساب من باب القاعة المزدوج. التفت لشترات النجاة ثم إلى المايسترو. لقد فهم الآن. صرخ في رجاله

أن يرتدي كُلٌ منهم شترة. كان البيانو مثبتًا بقوةٍ في أرضية القاعة وكذلك الكرسي الذي جلس المايسترو عليه، يعزف بلا أدنى تفاعل مع ما يحدث حوله.

دخل قائدُ اليختِ القاعةَ وصاح بهم أن يُخلوا المركب على الفور. هنا فاق الغاياتي من صدمته وصارَع كي يصل إلى المايسترو في الجزء المرتفع من القاعة المائلة، ليصرخ فيه:

- ليه؟؟ عملت كِدَه ليه؟؟؟

استمر المايسترو في العزف ولم يُعِره انتباهًا فصاح به أحد رجاله، الوحيد الذي تبقَّى في القاعة، أن الوقت ينفَد. نظر الغاياتي عبر النافذة ليجد سطح الماء يكاد يصل إلى حافَّتها، فأعطى المايسترو نظرةً أخيرةً كلها غضب وخوف وكُره، ثم قفز في المياه الباردة ليسبح خارجًا من باب القاعة.

في طريقه لسطح المركب رأى باب القاعة السفلية الخشبي السميك مغلقًا بسلسلة غليظة عليها قُفل ضخم. سمع دقَّاتٍ على الجانب الآخر من الباب وصرخاتِ استغاثةٍ مَكتومة. لمح العمال ورجال الإنقاذ يحاولون فكّ السلسلة بكل الوسائل لكن سرعان ما استسلموا. الواحد تلو الآخر صعد للسطح بينما غمرت المياه الطابق السُفلي تمامًا.

انتظر الغاياتي ورجاله وصول مراكب الإنقاذ ودار بعينيه يبحث عن شخص بعينه. ثم لمح تلك القلنسوة على الجانب الآخر من النيل ليتأكَّد أن من أصبح يخشاه كالموت لا يزال حيًا.

وحتمًا سيزوره قريبًا ليخبره عن سبب كل هذا. وحينها، لن يرفض له طلبًا.

أيًا كان.

سليم

كيف رسمني عيسى قبل أن يراني، وبهذه الدقَّة والقسوة؟

كنتُ أفكّر وأنا على فراشي وفي يدي عبوة الدواء الفارغة. ارتديتُ نظّارتي عديمة العدسات وهَزَزْتُ رأسي حائرًا في الأسباب التي تدفع أليس لهذا السلوك. يحاول التوتر أن يتسلل إليّ بعد أن فقدت وسيلة دفاعي الوحيدة ضده. ذلك المهدئ اللعين كان هو الدرع الواقي الذي يحميني من الإفراط في... في ماذا؟ في الإحساس؟ أهذا هو ما أبغيه حقًّا؟ أن أصبح بلا مشاعر؟ أن أصبح كما وصفتني عايدة... رمادي؟ أشعرُ بها تقف على الشاطئ المحيط بقلعتي المنيعة، تبحث عن بوّابةٍ أو سلّمٍ أو حتى شِقٍّ، تريد الدخول منه. أتسعى لهلاكها بين جدران حياتي الباردة؟ أهو تطفُّل؟ فضول؟... شفقة؟

صرفتُ عينيّ إلى الباب والرّدهة من خلفه حيث كانت تجلس منكمشةً بجوار أخيها. ما الذي يحدث لها؟ من الذي كان يحاول اقتحام شقتها؟ هل كان يريد أذيَّتها؟ ثم ما قصة ذلك الدفتر العجيب؟ وهي ليست الوحيدة التي يحدث حولها العجائب، فما يحدث حولي أغرب. هل هناك صلةٌ بين كل تلك الخيوط؟

ما الشيء المشترك بين المانيكان وجهاز التنفس والميكروفون؟ كلها أشياء دبّت فيها الحياة دون مقدمات، أو هكذا يتراءى لي. لو كانت إشاراتٍ ما، لو كان الميكروفون يريد أن يُنقذني، فما الذي تشير إليه تصرفات المانيكان وجهاز التنفس؟

ضاقت عيناي وحككتُ شاربي بأسناني السُفلى بعد أن شعرت بالإثارة من إمساكي بتلك الخيوط، أكاد أربطها معًا. ثم عاد الدفتر لذهني مرةً أخرى، تلك الصفحات السوداء والأخرى البيضاء، يجب أن أجرب نوعَ أقلامٍ أخرى.

تملّكني الحماس مرةً أخرى، فالخيوط كلها في يدي الآن. لكن يجب أن أهدأ وأرتّب أفكاري، يجب أن أحلّل الأمور بتروٍّ وأعيدها لعناصرها الأوّلية. ثم أعيد ترتيبها.

منعني رنينُ هاتفي من الاستمرار في التفكير، نظرت فوجدتُها نهلة. نهضتُ من الفراش وذهبت لأغلق باب غرفتي؛ كي أجيبها دون أن تفضحني. وكان قرارًا صائبًا أن أغلق الباب، فقد خرج صوتها من الهاتف عاليًا كعادتها ليثقب أذني. لكنه هذه المرة يحمل شيئًا آخر؛ كان ينوء بالحُرقة.

- سليم، الناس ماتوا! كل بتوع القطر ماتوا. حد جه وقتلهم كلهم. إنت متخيّل يا سليم؟ متخيّل الوحشية؟

استمعتُ إليها دون أن أبدي أي رد فعل. فقط ذهول خام وتولّد في أُذني طنينٌ علا فوق صوت نهلة.

ما هذا الجنون؟ كيف يُنهي شخصٌ حياةَ من لا حياةَ لهم بهذا البرود؟ ألا يكفيه ما مرُّوا به؟

لكن لا، مَنْ فعل هذا، بدءًا من حادث محطة مصر إلى قتل المصابين في المستشفى هو شخص واحد، يسعى خلف هدف واحد.

لكن مَنْ هو؟ وما هو هدفه من كُلّ هذه العشوائية وهذا الجنون؟

تأملتُ كفّي وأدرتها لأنظر إلى باطنها. تذكّرت اللحظة التي وضعتها فيها على باب شقة عايدة، لحظة الاتصال الذي حدث بيننا، تأكدت أنها كانت حقيقية، كنّا أقرب ما يمكن أن نكون. شعرت أنني... أعرفه.

- سليم..؟ إنت معايا؟ مش هتقول حاجة؟

جفلتُ حين لمحت هذا الشيء الذي سقط بجواري. ذلك الذي رأيته بطرف عينيّ لتوّي. لكني لا أجد له أثرًا بعدها، مثل كل مرة.

- سليم؟ سامعني؟

- أيوه يا نهلة، سامعك.

قلتُها بشرودٍ بعد أن أنزلت كفّي التي كنتُ أتأمّلها فبادرتني قائلة:

- بقولّك البوليس شاكِك فيك، إنت واللي اسمها عايدة دي.

فتحتُ باب غرفتي لأجد الأخيرة لا تزال جالسةً في مكانها، التوجُّس والترقُّب والاستغراب في كُلّ لفتةٍ من لفتاتها وهي تجوس ببصرها في أنحاء الشقة الباردة. شريدة تائهة، في عالمي الرمادي.

هل مَنْ حاول اقتحام شقتها كان يريد إنهاء ما فعله في المحطة كما فعل مع بقية الناجين؟

أهذا ما كان جهاز التنفُّس يريد تحذيرنا منه؟

ثم انتبهتُ إلى عيسى، الذي كان يتحدث بصوتٍ منخفضٍ مع المانيكان.

- سلام يا نهلة.

- هو أيه اللي سلام؟ بقولّك...

لم أنتظر حتى تكمل جملتها وأنهيتُ المكالمة. خرجت كالمسيّر الغائب عن الوعي وجلست دون أن أنطق بجوار عيسى. كان لا يزال يتحدث مع المانيكان بينما كانت عايدة تراقبني. حاول عقلي بكل طاقته أن يفسر ما يحدث مع المانيكان استنادًا لما استنتجته عن جهاز التنفس. ما الذي تريدين أن تحذريني منه أيتها الدُمية الخشبيّة؟

ثم أطرقتُ مفكرًا، عقلي يكاد ينفجر. مَن يمكنه أن يفعل هذا بمَنْ لا حيلةَ لهم؟ لماذا؟؟ هذا كثير، أكثر مما يمكن لعقلي أن يستوعبه وقلبي أن يستشعره.

ضربت بقبضتي على صدري برفق. التفتت عايدة إليّ وحدقت بي حائرة. ثم ضربته مرةً أخرى، أقوى قليلًا، فجفلت ومدت يدها لأخيها تحسُبًا لحركاتي غير المفهومة. لماذا لا تشعر؟ ما الذي تنتظره كي تخفق أيها القلب اللعين؟ أن تحترق الدنيا بمَنْ فيها؟ أهذا ما تريده؟ أن تصير عَدَمًا ويتلاشى معك كل شيء؟

مدّتْ يدها في ترددٍ وربّتت بها على يدي قائلة:

- فيه أيه؟ مالك؟ في حاجة حصلت؟

لقد شعرت هي بما في أعماقي ولم أشعر أنا بلمستها. سحبت يدها بعد أن أحسّت أنها لمست مانيكانًا خشبيًا وتخلّت عن نبرتها الحانية وهي تقول:

- طيب مش هنبلّغ البوليس على اللي حاول يدخل شقتي؟

رمقتُها بنظرةٍ خاطفةٍ وقد انتزعتني الكلمةُ من شرودي. إبلاغ الشرطة لم يعُد خيارًا، ليس بعد ما أخبرتني به نهلة، ليس بعد أن دخلنا في دائرة الاشتباه.

في اللحظة نفسها انتبهتُ إلى أليس. كانت مستلقيةً أمام باب الغرفة التي أبقيها مغلقةً طوال الوقت وقد انتصبت أذناها فجأة، مبحلقةً في الباب. تأرجح رأسها يمنةً ويسارًا كما تفعل الكلاب أمام ما لا تفهمه دون أن تترك عيناها الباب المغلق.

ما الذي شعرَتْ به؟

انتبهتُ لعيسى مرةً أخرى لأجده ما زال يتحاور همسًا مع المانيكان. هل أنا جاهل لهذا الحد؟ هل كنت واهمًا حين تصورت أنني قد اقتربت من حقيقة الوعي بينما أنا أبعدُ ما يكون؟

قلتُ له بعد لحظةٍ من التفكير:

- عيسى، بتقولوا أيه لبعض؟

لم يُجِبني فتدخلت أخته:

- متشغلش بالك يا دكتور، هو ساعات بيبقى ليه حاجات مش مفهومة.

- ممكن تكون مش مفهومة بالنسبة ليكي.

رَفعتْ حاجبيها وهمَّت بالاعتراض لكن التركيز الشديد الذي ارتسم على وجهي منعها من ذلك. التقطتْ أوراق الرسم الملقاة على الأريكة وقدمتْها لعيسى.

- عيسى، مش عايز ترسم حاجة؟

تسمَّر في مكانه ورمى الورقة بنظرةٍ خاطفةٍ قبل أن يُطأطئ رأسه ويسكن تمامًا. كررتْ طلبي وأنا أدفعُ بالورقة أمام وجهه:

- امسك يا عيسى. ارسم. وَرِّيني الشطارة. قولّي المانيكان بتقولّك أيه؟

تراجع عيسى مبتعدًا عني لكني أصرَرْتُ على طلبي، بل وجلست على الأرض بجواره كي أحصل على كل انتباهه. فأنا لم آتِ به إلى بيتي إلا سعيًا خلف الإجابات.

- يَلّا يا عيسى. طيب حاول ترسم الراجل اللي كان بزّه باب شقتكم.

هنا تدخّلت عايدة قائلة:

- خلاص يا دكتور. معلش سيبه. هو هيرسم لوحده لما يعوز.

رفعت صوتي قائلًا وأنا أضعُ القلم في يد عيسى:

- عيسى، إحنا محتاجين مساعدتك. حاول تركّز.

- دكتور، لو سمحت. ما تضغطش عليه أكتر من كده.

قالتها عايدة بعد أن رأت الخوف يتجلّى على وجه شقيقها.

- لو سمحت! قولّنا مين اللي بيعمل كده. قولّنا المانيكان عايزة تحذرنا من أيه.

هتفت بها وأنا أمسك بيد عيسى الممسكة بالقلم وأضعها فوق الدفتر. هبّت عايدة واقفة وانحنت لتحمي شقيقها.

- فيه أيه يا دكتور سليم؟؟ سيب أخويا.

- أخوكي ده في دماغه حل اللغز يا عايدة. الراجل اللي رسمه ده هو اللي عمل مذبحة

محطة مصر، هو اللي كان هيموّتنا إحنا الإتنين.

- طلّع أخويا من الموضوع يا سليم.

- رسمني ازاي من غير ما يشوفني؟ هه؟

- هو فيه أيه؟ هو أنا موعودة بالرجّالة المجانين؟

قالتها عايدة وهي تحتضنُ أخاها. حككتُ شاربي بأسناني السفلية في محاولةٍ للسيطرة على أعصابي، ثم لمحت خَضرًا وهي ترمقني بذعرٍ هي الأخرى. غمغم عيسى أنه ليس غاضبًا مني فأخفضت من حدّة صوتي خجلًا ثم نهضت قائلًا:

- معلش. سامحوني. كل المصابين بتوع القطر ماتوا. حد راح قتلهم.

لم تستمر عايدة في هجومها عليّ بعد أن انتبهت لما قلته. شهقت ووضعت كفَّها الرقيقة على فمها بينما انهالت الدموع من عينيها الجاحظة.

لكنني لم أكُنْ منتبهًا لها، بل أخرجتُ الورقة التي كتبتُ عليها اسم المقهى الذي أخبرني به دوسري التمرجي.

"قهوة الخمسة وعشرين".

شردتُ للحظةٍ مفكرًا، مستعيدًا حواري مع أبو المكارم:

" ورب العزّة لـتحرَق قلبها زَيّ ما حرقت قلبي عليهم. ولا واحد منهم هيفلت مني!!" .

وكانت تلك هي اللحظة التي بدأت أستوعب فيها شيئًا ما في كل هذا الجنون.

هــو

- هذا وقد أسفر الحادث المؤسف عن غرق العشرات من ضيوف الحفل وجارٍ انتشال الضحايا.

استمعتِ العجوز إلى التصريح الصادم بكل حواسّها، انتظرت تفسيرًا أو تبريرًا، لكن الإعلام كما هو، فَنُّ قول اللاشيء، إلا قلّة منهم لا يزالون يسعون خلف الحقيقة.

استندَتْ على ذراع الأريكة القديمة لتنهض. تحسّست طريقها حتى وصلت للتلفاز ثم بحثت عن زِرّ الإغلاق، وتوقفت مكانها لتلتقط أنفاسها وتستجمع أفكارها. لقد تضخّم الحَدْس الذي كان يؤرّقها مُؤخّرًا حتى أصبحت لا تستطيع تجاهله. هو حانٍ عليها، كريم، يراعي مرضها ووحدتها وقلة حيلتها، وكما تقول له دومًا: "إنت اللي ربّنا عوّضني عليه بعد عيالي اللي رموني ولا سألوا فيّا".

لكن منذ يومين اشتمّت آثار وقود سائل خفيفة لا يُخطئها أنفها، فهي تعتمد على حاسّة الشم اعتمادًا كليًا وتستطيع أن تميز الكثير من التفاصيل فقط بالرائحة. ثم جاءت ليلة أمس ليعود إليها مُحمّلًا برائحة أخرى، لكنها لم تستطع تصنيفها. تهادت في طريقها لغرفة الغسيل، وتحسّست الطست الممتلئ بالملابس قبل أن تلتقط زيًّا بعينه، ذلك الذي كان يرتديه هذا الصباح. هو زيٌّ فنّي صيانة، لكنها لا تعرف هذا ولا تهتم، كل ما يهمها هو الرائحة. تشمّمتهُ فينقبض قلبها. هذه رائحة تعرفها جيدًا، رغم محاولته إخفاءها أسفل الملابس المبتلّة لكنها تركت وراءها ما يكفي.

هذه رائحة جلد محترق.

خرجت لتقف في بداية الممرّ المظلم المزدحم بالكراكيب والمعوّقات التي تشعر الآن أنه تركها عمدًا؛ كي لا تصلَ إلى الغرفة الموجودة في نهايته. تصاعدت نبضاتُ قلبها وهي تُرهف السمع.

ذلك الشعور، وتلك الرائحة. إنه...

لم تكمل الفكرة وذلك لأنّ أذنيها التقطتا هدير السيارة الفيات. يمّمت شطرَها ناحية غرفتها وأسرعت بما تسمح به مفاصلها المنهكة لتستلقي على الفراش.

قبل أن تسمع باب الشقة يُفتح بثانية واحدة.

سليم

كُنّا على الطريق الدائري حين أمرتُ سائق التاكسي أن يقف أمام كُشك السجائر. أطاعني وهو يشير للخيمة المنصوبة أمامنا على بُعد نصف كيلومتر:

- قهوة الخمسة وعشرين هناك أهِه يا باشا.

اقتربنا من الخيمة وكُلّي توجس وترقب. فيما يبدو أن المقهى كان في البداية غرفة صغيرة على جانب الطريق ثم توحُش حتى صار صوانًا هائلًا بأعمدة وأركان تظلّها خيمة كبيرة. وهذه اللافتة المعلقة أمامي على العِرق الخشبي، تلك التي نُقش فوقها بقلم دهان وخط بدائي "خدمة خمسة وعشرون ساعة"، تخبرني أنني في المكان الصحيح، فهي تتماشى مع العالم الغرائبي الذي وجدتُ نفسي فيه منذ الأمس. هناك لافتة أخرى بالداخل وواحدة على عمود الإنارة المجاور للمقهى، مقصودة هي إذًا وليست خطأ ينمُ على جهل صاحبها.

جُلت بعينيّ في وجوه الزبائن، سائقي نقل وميكروباصات وتوك توك مع تجار وعمال وفلاحين. مزيج فريد من البشر، يشتركون جميعًا في الهموم وشوق مُذِلّ لدخان الجوزة. هتافات وضحكات وسِبَاب مع أصوات الملاعق في الأكواب ودق قطع الطاولة على أرضيتها الخشبية.

طحنت إطارات السيارة الحصى والرمال مع تقلُّص المسافة التي تفصلني عن المقهى. لم أكُن أملك الكثير من الوقت كي أدقق النظر في كل تفصيلة. أمرت السائق أن يُبطئ السرعة أمام المقهى وتصنّعت النظرَ في هاتفي كي لا ألفتَ الانتباه، أقل من دقيقة كانت كافية لأرى ما أريد من تفاصيل بطرف عيني. سنون طويلة قضيتُها في مراقبة البشر وتحليل حركاتهم وسلوكهم أخبرتني أن هناك شيئًا يحدث وراء ذلك المشهد.

رغم تحركات الجرسونات والزبائن الطبيعية وسلوكهم الاعتيادي فإنني استطعت ملاحظة إيقاع خافت للمكان. نظرات زبائن بعينهم، يجلسون فُرادَى، تلتقى جميعها - وفي أحيانٍ كثيرة - عند المعلم الذي يجلس خلف الكاشير. ممتلئ يرتدي جُبّةً وقُفطانًا ذو شارب قادر أن يكتم صوته لو أراد التحدُّث، يراقب المكان بعينٍ ضيقة وأخرى شبه مغلقة، كذئبٍ عجوز.

كان آخر ما لمحتُه داخل المقهى هي تلك الستارة التي يزيحها المعلم ويدخل منها أحد الزبائن المنفردين، كل هذا يتم بسرعةٍ وحرصٍ قبل أن يغلق المعلم الستارة وينظر بعينيه العميقتين في أنحاء المقهى.

ثم لمحت بطرف عيني ذلك الشيء الذي وقع في أقصى حدود رؤيتي، شيء خفيف يسقط ببطء لكنه أسرع من قدرتي على تحديد ماهيته، كأنه وُرَيقات أرقُّ من الريش تتمايل لتستقر على الأرض. درتُ برأسي لأمسح المنطقة حولي، ببطءٍ كي لا أثير قلق السائق أكثر مما هو عليه، لكن في تلك اللحظة صرخت بجوارنا مكابح سيارة ليهرب الدم من جسدي كله. ترجّل من السيارة عملاق واعترض طريقنا، جدار بشري أعرفه جيدًا.

- صدفة لطيفة جدًا يا دُوك. يعني سيبت المصيبة اللي حصلت في المستشفى وجاي تقعد على قهوة!

قالها الرائد حازم بابتسامةٍ أقرب إلى زمجرةٍ قبل أن يشير إلى جِجّي - الذي كان يجلس مبتسمًا خلف مقوَد السيارة - ويقول بكل عنف من بين أنيابه:

- اتفضل معانا.

هل أعترض؟ أدافع عن نفسي؟ لا، فسيزيد من حنق هذا الكينج كونج الذي كاد أن يأكلني؛ خصوصًا وأن السبب الجديد الذي جاء بي إلى هذا المكان لَهُوَ أكثر خيالًا من كل أعذاري السابقة. كيف أخبره أن من دلّني على هذا المكان هو شخصية مصنوعة من الخشب.

استسلمتُ منقادًا إلى سيارة حازم لكنني لمحتُ عينَ المعلم التي لمعت حين اشتدّت جمرة الجوزة بعد أن جذب منها نَفَسًا هائلًا.

كان ينظر إليّ.

ويبتسم.

حينها عرفتُ حجمَ الفخِّ الذي وقعت فيه.

هــو

دلف شقة البدروم واتجه مباشرةً إلى الممر. لم يوجه لها كلامًا ولم تفعل هي. ظلت راقدةً في فراشها تُرهف السمع. بأقل ضوضاء توجّه للممر الضيق الذى تكدّست فيه قطع من الأثاث المتهالك والصناديق القديمة، وبدأ يزيح بعضها بكُلّ حرصٍ ليتمكّن من المرور. ما إن فعل حتى تقدم إلى الباب الذي تبدّل لونه الأبيض بلون الخشب أسفله، وأخرج مفتاحًا قديمًا من جيبه وأدخله في القُفل.

انتظر لحظةً استمع فيها إلى حركة العجوز ليتأكّد من نومها ثم دلف من الباب، وما إنْ دخل وأغلق البابَ بحرصٍ حتى نزع عنه ملابسه المبتلّة ووضعها في كيسٍ بلاستيكيّ.

توجه بعدها إلى حوض الاستحمام المتسخ حيث يرقد الابن الأكبر. وجده نائمًا وسط الخليط الجهنمي الذي صنعه من الماء شديد الملوحة والكحول الخفيف. مزيج حارق يكوي الجسد دون أن يسبب الوفاة السريعة، فقط يضمن أطول فترة من العذاب.

ارتمى منهكًا على الكرسيّ الخشبيّ الوحيد في الغرفة المربعة الممتلئة بأدوات ومُعدّات استخدمها في مسيرته التي جاوزت الخمسين عامًا. عبوات فارغة ونصف ممتلئة متباينة الأحجام والأشكال مع أجهزة إشعال ذاتي، أزياء فنيين وجرسونات ورجال شرطة ودفاع مدني، أدوات تنكُّر وأجهزة كمبيوتر، وغيرها الكثير. يتأمّلها قطعةً قطعة، يسترجع مشواره "الفني" بمزيجٍ من الفخر والشجن، ثم ينظر من النافذة الرفيعة المفترض أنها تطلُّ على الشارع، لكنه دهنها باللون الأسود. بالرغم من هذا فهي المنفَذ الوحيد الذي يُشعره أنه ليس في قبره... ليس بعد.

أطرق مفكرًا.

قريبًا جدًا سيكون فيه، وسيعرف، ومعه سيعرف العالم.

سيعرف إن كان لكل هذه الآلام نهاية، أو حتى سبب. وإلى أن يصل للإجابة فسيظل على طريقه... يعزف وحده. حتى يُنصت إليه الكون... ويُجيبه.

انتبه إلى الابن الأصغر، الذي كان في بانيو آخر به محلول مشابه لذلك الذي انغمس فيه شقيقه، لكن هناك خطبٌ ما. نهض وذهب إليه، إنه لا يتنفس. تحسّس نبضه وتأكد؛ لقد فارَق الحياة. بعد شهور من العذاب قرر جسده أن يرحمه. مدَّ يديه داخل المحلول وفك الأصفاد التي كانت تمنعه من الحركة ثم التقطه وأخرجه من الحوض. ذهب به إلى حوضٍ صغيرٍ متسخ وقام بغسل جسد سجينه العاري، بكل هدوء ودقة، ثم أتى بكيس بلاستيكي كبير

ووضعه فيه. أحكم إغلاقه وقام بجرِّه خارج الغرفة.

خرج من الممرّ وتوقف يلتقط أنفاسه. هناك شيءٌ غريب. نظر إلى يمينه، إلى غرفتها، لماذا لم تنهض لتستقبله كعادتها؟ أمِنَ المعقولِ أن تكون نائمةً مع كل هذه الحركة والضوضاء؟

ترك الكيسَ البلاستيكيَّ وتقدم ليدخل غرفتها. وقف بجوارها، يتأمل ملامحها المتغضّنة للحظةٍ قبل أن تفتح عينيها. ابتسمت واعتدلت قائلة:

- إنت جيت يابني؟ استنّى لما أقوم أجهّزلَك العشا.

- لا أمي، نامي أنتي، مش جعان.

لم تجادله بل استدارت لتعطيَه ظهرها وتضع رأسها على الوسادة قائلة:

- طيب يابني. تصبح على خير.

حدْسٌ ما يقلقه، هذا السلوك ليس طبيعيًّا. إنها لا تتصرف كعادتها الدافئة وقد لاحظ اختلاجة خفيفة في وجهها بعد أن اعتدلت.

أم هو الذي به خَطْبٌ ما؟ ربما. ربما بعد قتله لعشرات الأشخاص منذ بضع ساعات هو ما يهزُّ وجدانه ويُقلقه، فهو لم يُزهِق أرواحًا بهذا العدد في وقتٍ قصيرٍ هكذا من قبل. لكنه الحال دائمًا عند نهاية المقطوعة الموسيقيَّة، تصاعُد حادّ في النغمات حتى الوصول للذروة.

أو ربما يكون مصدر قلقه هو اقتراب النهاية التي رسمها وانتظرها لسنوات. ربما.

لكن... هل يجازف؟

مد يده إليها. اقتربت أصابعه من عنقها. لن تأخذ في يده ثوانٍ.

لكنه جذب يده وابتعد. ترك الغرفةَ والتقط الكيسَ البلاستيكيَّ ورفعه بسهولة رغم سِنِّه. ثم غادر الشقة.

أما هي فكانت تبكي في حُرقةٍ وصمت. لم ترَهُ الآن ولم ترَ الدماءَ التي لطَّخت أصابعه ومفاتيح البيانو عندما عاد إليها منذ أيام قليلة، لم ترَ الجلد المحترق أمس ولا المياه التي بلَّلت ملابسه اليوم، لكنها تعلم أنهم كانوا عليه، بصورةٍ أو بأخرى.

لقد زار الموت قريبًا.

فللموتِ لونٌ وأنينٌ ورائحة.

وقد اشتمَّتها على عازف البيانو الحزين.

سليم

رغم أن عينيّ كانتا ثابتتين على كوب الماء الفارغ، فإن تركيزي كله كان مع الأصوات التي جاءت من خارج الغرفة. حاولت أن أملأ الفراغات بين الجُمل الهامسة التي تسلّلت إليّ وفي الوقت نفسه كنتُ أرتّب أقوالي التي سأدلي بها. لكنني أدرك تمامًا أنني في مأزق. كيف سأفسر وجودي في نفس المقهى الذي كان يرتاده سائقُ القاطرة، السبب الرئيسي في الكارثة، كما قال لي الرائد حازم؟

لا يمكنني بالطبع الاعتماد على قصة الترزي والمانيكان ورسمة عيسى وإلّا لأودعوني مستشفى الأمراض العقلية أو لاعتقلوني في الثوّ واللحظة.

ماذا ستفعل يا سليم؟ هل سيساعدك ذكاؤك الذي تعتدُّ به أم يتخلى عنك في أحلَكِ الأوقات؟

لا بُدَّ أن هذا هو الفرق بين الذكاء والحكمة. فالذكاء هو استخدام علمك ومنطقك لحل المشاكل؛ لتوصيل النقاط ببعض؛ لرسم طريق وسط الفوضى. أمّا الحكمة فهي الصورة الأشمَل، هي أن تسأل نفسك: هل وجهتُك هي الأصح؟ الحكمة هي التي تربط الأفكار وتجد الأسباب، هي قدرتك على العثور على معنى، على نغمة وسط الضجيج. الحكمة هي أن تعرف حدود ذكائك وقدرتك وتتقبّلها. وقد يأتي ذكاؤك بعدها - لو مرتفع بما يكفي - ويستفيد من هذا ليسموَ بك فوق ذاتك وتصبح حينها كائنًا أرقَى.

نظرت للكوب مرةً أخرى، الكوب رقم عشرة الذي طلبتُه وتجرّعت محتواه بشراهةٍ دون أن ينجح في أن يروي عطشي. ما سرُّ هذا الظمأ الشديد الذي يأتيني كل حين؟

إشارات، كل ما يحدث حولي إشارات. لكن إلامَ؟

ما الذي يقترب؟

قطع تفكيري دخولُ الرائد العملاق ومن ورائه الآخر الضئيل ليعلنا انتهاء المهلة.

- أظن أخدت وقتك وشربت عاشر كوباية مياه. ها، جاهز؟ ولّا عايزنا نجيبلك غَدا؟

من بين أسنانه قالها حازم الذي جذب الكرسيّ المعدنيّ بكفّه الهائلة ليجلس أمامي، بينما استند حِجْي على الحائط وعقد ساعديه أمام صدره بنفس الابتسامة غير المبرّرة.

- اتفضل اسأل.

قلتها لحازم الذي مطّ شفتيه بغيظٍ من برودي لكنه قال:

- ماشي، هسأل. فين فرحات يا دكتور؟

- فرحات مين؟

- سوّاق الوابور.

- وأنا هعرَف منين؟

كان واضحًا أن حازم هذا يكتم بداخله غضبًا عارمًا، كُلُّ لفتاته تشي بهذا؛ ولهذا فقد ألتث ملامحي بقدر استطاعتي وتخلّيتُ عن نظرتي الباردة وإحساسي الداخلي بتفوُّقي عليه ذهنيًا كي لا أستثيره.

- حازم بيه، فِكرَك واحد زيّي له موارد لا تُعد ولا تُحصى، هيقابل أفراد "عصابته" في قهوة بلدي؟ وبعدين سيادتك مقولتليش واحد زيّي برضه، بنفس الإمكانات والمكانة اللي وصلتلها، هيكون أيه الدافع إني أرتكب المذبحة بتاعة محطة مصر؟

ألقى حازم إلى حِجّي بنظرة سريعة لكن الأخير كان يراقبني بكل تركيز. استحضرت كُلَّ مهاراتي في هذه اللحظة، لكنها كانت المرة الأولى منذ أعوام التي أفشل فيها في قراءة شخص، أو استشفاف ما يقبعُ خلف ملامحه. حِجّي هذا ليس مُسطّحًا كما يَظهر.

التفت حازم إليّ ليسألني:

- طيب عندك تبرير لظهورك في قهوة الخمسة وعشرين؟

- عندي.

- كلنا آذان صاغية.

أخذتُ نَفَسًا عميقًا وبحثتُ عن البداية المناسبة قبل أن أقول:

- المانيكان.

- نعم؟؟

هـو

كان جالسًا بسيارته الفيات البيضاء خلف الخيمة الكبيرة التي هي قهوة الـ 25، على طرف الأرض الزراعية. مسح المنطقة بعينيه ليتأكدَ من رحيل ضباط الشرطة ومعهم مستر جراي، قبل أن يتقدم ليركن السيارة بظهرها في ذلك الممرّ الضيق الملتصق بجانب الخيمة. نزل منها ودار حولها ليفتح حقيبة السيارة ويلتقط الكيس البلاستيكيّ الضخم الذي يحوي جثة الشقيق الأصغر ثم توجه إلى مُؤخِّرة الخيمة. دخل من فتحة بجوار المبنى الصغير المكوَّن من طابق واحد، والذي كان في يومٍ من الأيام القهوة كلها قبل أن تتوحَّش وتضم إليها الخيمة العملاقة.

استقبله وجهُ المعلم الذي أزاح قماشة الخيمة من مكانه الدائم خلف الكاونتر والخزينة ليومئ له أن الطريق أمان. أحكم المايسترو وضع الجثة الهزيلة فوق كتفه ودخل الخيمة من المُؤخِّرة. سار في الممرّ الطينيّ الضيق وعبرَ بجوار المرحاض البلدي حتى بلغ الغرفة الخلفية. دخل الغرفة الصغيرة ذات النوافذ العالية ووضع الجثمان أرضًا. نزل ليجلس مستندًا إلى الحائط ليلتقطَ أنفاسه. لقد صار عجوزًا وتسللت منه قوته المفرطة، لكنه لا يمكن أن يتوقف، ليس الآن. جال بعينيه في الأرض الطينية باحثًا عن مكانٍ يكفي لدفن هذه الجثة، مكان لا يحتوي جثمانًا آخر.

- دي آخر واحدة؟

جاءه السؤال من عند الباب فالتفتَ ليجد المعلم بجسده الكُرَويّ المكتنز ومعه عامل قويّ البنية في يده مِعْوَل. أطرق مفكرًا قبل أن يقول:

- لا.

أشار المعلم للعامل أن يحفر في بقعةٍ ما وذهب ليُلقي بجسده المكتنز جالسًا على وعاءٍ معدنيٍ مقلوب. ظلّا يراقبان عملية الدفن لوهلةٍ قبل أن يقول المعلم:

- وأخرة الطريق ده أيه يا صاحبي؟

أجابه المايسترو وهو شاردٌ في الطين الذي يخرج من الحفرة ليصبح تلًّا صغيرًا:

- هانت. الحفلة الأخيرة خلاص، قرّبت. بس فيه خيط لازم يتقطع قبل ما أبتدي العزف.

- خيط؟

- راجل وسِتّ.

ثم جلس على ركبتيه وتحسّس الرمال التي غطت جثمان ابن العجوز الأصغر.

وبدأ يرثيه.

عايـدة

ما الذي ينبغي أن أشعر به الآن؟ هل يجب أن أشعر بالامتنان لسليم لأنه أواني في بيته وحماني من خطرٍ لا أفهمه؟ ذلك الخيط الذي أشعر به يصل بيننا، هل هو نتاج لحظة اقتربتُ فيها من الموت حتى كدتُ أن ألمسه؟ هل أسعد لأنني أخيرًا وجدت مَن يشاركني أقوى لحظات حياتي؟ أم لي الحق في أن أشكّ في نواياه بسبب عدم وضوح تصرفاته؟

عدم وضوح تصرفاته؟ مَنْ أخدع؟ إنها واضحة كالشمس. هو يريد الإجابة، لا أعرف عن أي سؤال، لكنه يريدها من شقيقي، وهو على استعداد أن يفعل أي شيء كي يحصل عليها.

هل يجب أن يُصيبني الذعرُ من هذا الموقف المعقد الذي لا أستوعب أبعاده؟ من مصيرٍ مشابهٍ لما حدث لضحايا القطار؟

نفضتُ عن ذهني تلك الأسئلة والنظريات وابتسمتُ لأخي الذي ارتدى منامته وخرج ليلعب مع أليس. تأملتُ ملامحه البريئة وابتسامته الدافئة وأكّدت لنفسي. لا، لست نادمةً على اختياري لك دونًا عن الدنيا كلها. لو تكرّرت اللحظةُ التي وقف فيها ماجد أمامي يُخَيّرني فيها بينك وبينه لاخترتُك أنت يا عيسى.

نظرتُ إلى "دفتر ناعوت" – الذي كان راقدًا بجواري - وتذكّرتُ الحلَّ الذي اقترحه سليم. وحين أمسكت بقلم ووضعته على ورقة كانت مُلقاةً أمامي لم أصدق نفسي وأنا أرى الحرف المنقوش على الورقة. جربتُ القلم على ورقةٍ أخرى ورسمتُ حرفًا آخر ثم انفرجت شفتاي عن ابتسامة طفولية وأنا أراه يمتد أمامي. لقد كان مستر جراي على حق، إنه *الدفتر*. أمسكتُ به وتحسّستُ وُرَيقاته وقد تبدّلت الأسئلة في رأسي ونظرتي له. أدركت الآن السبب في أن أجيال عائلتي قد توارثته أبًا عن جد. هذا الدفتر مختلف. شعرت أن له إرادة خاصة به، لكن ما الذي يسعى إليه؟ ما قصته؟

ثم جاء عيسى ليأخذه مني.

- مش هتعرف تكتب فيه يا ياسو.

- ده مش كتاب.

رفعتُ حاجبي باستغرابٍ وقد لاحظت أنه لا يحمل أقلامه. تابعته وهو يرجع بظهره ليسنده على خلفية الأريكة ثم وضع الدفتر على ركبتيه.

- أومّال أيه يا ياسو؟

فتح الدفتر وتأمل صفحتيه: البيضاء والسوداء ولم يعلق. كررتُ عليه سؤالي لكنه تجاهلني وطفق يُقلّب في صفحاته بسرعة كأنها رزمة أوراق مالية. راقبته بفضولٍ حتى وصل إلى نهايته ثم أغلقه ووضعه على ساقيه مرةً أخرى. كررت عليه سؤالي فما كان منه سوى أن فعل الشيء نفسه: تصفّح أوراقه بسرعة وعيناه تطيران فوقها وعلى وجهه ابتسامةٌ غير مفهومة. وصل لنهايته ثم نظر لي بعينيه الضيقتين فبادلته الابتسامةَ رغمًا عني.

ليس كتابًا؟ إذًا ما هو؟

***

جاءت لي خَضْرَا بمنامتي وأوحت إليّ أنها لا تفهم ما يحدث حولها. أخذتُ منها ملابسي وذابت ابتسامتي وأنا أجيبها:

- معرفش يا خَضْرَا، معرفش. اللي شُفته اليومين اللي فاتوا ڤول مَحدّش يصدقه.

رويتُ لها على عُجالةٍ ما حدث بأقل تفاصيل ممكنة واستمعتُ لي ذاهلة. ربّتُ على كتفها ثم تركتُها تستوعب ما قلته وذهبت للحمّام. في طريقي لفت انتباهي باب الغرفة المغلقة على يسار المدخل. حاولتُ فتحه تحسُّبًا لأي مفاجآت أخرى لكنه كان موصدًا بإحكام. ثم جاء رنين هاتفي المحمول ليثنيَني عن الاستمرار في المحاولة. نظرتُ في شاشته وقرأت "ماجد".

رفضتُ المكالمة بعنفٍ ودخلت الحمّام.

خرجتُ على رنين هاتفي المتواصل فالتقطته وقرأت اسم خطيبي السابق مرةً أخرى. أشارت لي خَضْرَا بأنه لم يتوقف منذ دخولي الحمام فأجبته هاتفةً:

- خير؟؟ ستين مكالمة؟؟ فيه أيه يا ماجد؟

جاءني صوته الناعم المستفز:

- مساء الخيييير. توقعت إنك هتكلميني بعد ما شُفتك النهارده الصبح.

- ما شاء الله على النباهة، وجبتها لوحدك دي؟

- يعني أنا صَح؟

حاولت دخول الغرفة المغلقة مرةً أخرى كي أصبح براحتي لكن الباب ظلّ على عناده، فابتعدتُ قدر استطاعتي لكن توقفتُ قبل أن أدخل غرفة سليم.

- عايز أيه يا ماجد؟؟

قلتها بكل حنق لكنه لم يتوانَ عن الاستظراف.

- بتطفّن عليكي يا فنانة. إنتي كويسة؟

- هيكون مالي يعني؟

- مالك!؟ ده الفيديو بتاعك في كل حتّة على الإنترنت. حتى اكتبي كِدَه "شقراء محطة مصر" وهتشوفي الفيديو.

أنا لا أصدق أي كلمة تخرج من فم هذا المأفون لكني وضعتُه على مُكبّر الصوت وكتبتُ ما قال. وما إنْ بدأت الفيديوهات تظهر حتى شهقت. كتمتُ صوتي بيدي وقمتُ بتشغيل أحدِها. هذه أنا، أنزل من القطار مسرعةً وأترك الرصيف ركضًا. وبعدها بثوانٍ انفتحت أبوابُ جهنّم ثم قرأتُ ما كان مكتوبًا أسفل الفيديوهات.

"شقراء المحطة، هل هي عضو في الجهة المنفذة للمجزرة؟"

"مَنْ هي الشقراء الغامضة التي هربت من مصيرٍ ناريٍّ مُحتّم؟ هل هي خيط يساعدنا في الوصول للمجرمين؟"

"ساعدوا الشرطة وبلّغوا عنها لو تعرفوها".

لا شعوريًا جلست على فراش سليم كي لا يُغشى عليّ. تدريجيًا بدأ الطنين يخفُت في أذنيّ وتعالي هتافات ماجد من مُكبّر الصوت في هاتفي:

- عايدة، خلّيني أساعدك. إنتِ فين؟

- عند سلي...

لم أكمل جملتي وتداركت صائحة:

- بتسأل ليه؟

- خلّيني أوصّل صوتك للناس وأكتب الحقيقة.

لم يَكُن ما رأيته هو سبب ذعري بل ما قرأته في التعليقات، وبالأخص ذلك التعليق الذي يخبر الجميع باسمي:

"سيداتي وسادتي، أحب أقولُكم إن دي عايدة ناعوت؛ خطيبتي السابقة".

هنا صرخت فيه بكل كيانها:

- طول عمرك واطي، بس عمري ما تخيّلت أنك واطي بالصورة دي!! يعني هو ده اللي همّك؟؟؟ تحقيق صحفي؟؟

أنهيتُ المكالمة وألقيتُ بالهاتف أرضًا ثم انهرتُ بالبكاء. أمقتُ جنس الرجال كله الآن. مسحتُ دموعي وتجمّدتُ ملامحي لدقائق طويلة، لا ليس كل الرجال، فهناك عيسى. نهضت ووقفتُ أمام المرآة لأُعدّل هندامي في إباء، لكن قبل أن أخرج لمحت شاشة كمبيوتر محمول عليها اسم "سالم لقمان" بالبنط العريض، وبجوار الاسم طلّت عليّ صورة سليم. لكنني لم أعُد واثقةً من أي شيء؛ خصوصًا بعد الصورة الفوتوغرافية الموضوعة أسفل آينشتاين والتي يحتضن فيها سليم شخصًا يشبهه تمامًا. لو كان توأمه فعلًا فهو تطابُق مذهل، لكن يجب أن أتأكّد من كل شيء.

انتظرتُ حتى هدأتُ قليلًا وتمالكتُ أعصابي ثم اقتربتُ من الشاشة. هَزَزتُ الفأرة ليظهر أمامي ملف به نتائج تقارير طبية وتحقيقات رسمية في واقعة وفاة سالم هذا. رفعت الكمبيوتر المحمول من فوق الكرسي وجلست ببطء مكانه ثم وضعته على فَخِذيّ. بدأت أعبثُ في خُصلات شعري الملتوية وأنا أتصفّح الملفات والصور والفيديوهات بعد أن تمكّن مني فضولي الأنثوي. تدريجيًا تبدّل الحنق من سليم وعاد إليّ شعوري بروحه التائهة. إلى هذا الحدّ كان مرتبطًا بتوأمه؟ كَمْ مسّني هذا!

يحتوي الملف الرئيسي على ملخّص لما حدث ليلة وفاة سالم ويلخص سعي سليم الدؤوب خلف الحقيقة. مما قرأته يتضح لي أن سليم متأكد أن هناك مَنْ أعطب جهاز التنفس الاصطناعي عن عمد، وأنها جريمة قتل لا إهمال. لكن الشرطة لم تجد دليلًا كافيًا على هذا وتم تقييد الحادثة كإهمال لطاقم الصيانة.

وبعد أن نجحت الشئون في قتل أي فرصة للعثور على القاتل؛ خصوصًا مع انعدام الأسباب والدوافع، لم يعُد أمام سليم إلا أن يحاول الوصول لمعنى الحياة نفسها، إلى مغزى المعاناة والآلام. بالملف نظريات عديدة لا أفهم منها شيئًا، لكن كلها تشي بأن سليم هذا لا يبغي من الدنيا سوى أن يعرف مصير أخيه.

مصير أخيه؟ أيُّ مصير هذا؟ لقد مات منذ سنوات.

قرأت ملاحظاته وتساؤلاته:

" هل أصبح أخي جزءًا من العدم؟ هل أصبحت كل هذه الذكريات التي جمعتنا وكأنها لم تكن؟ هل نَسِيت الدنيا كائنًا كان اسمه سالم لقمان؟ أين ذهب وعيه الذي كان يُصيب ويُخطئ؟ أين روحه الخالدة التي كانت تعشق صوت البحر وتتمنى اللحظة التي تُبحر فيها

معًا فوق أمواجه؟ أين وجدانه الذي كان يتوق لملمس الشيكولاته الدافئ على لسانه؟

هل عانى وتألم بلا سبب؟ بلا هدف؟ ألا تنتظره جنة أو تتوعّده نار؟ أم عادت جزيئات جسده، من كربون وماء وأحماض أمينية، إلى الكون مرة أخرى؟ كانت هناك حياة صاخبة اسمها سالم، وفجأة لم تعُد. لو لم يكُن هناك شيء بعدها لكان أمرًا قاسيًا للغاية. فقط من كان قلبه من حجر هو من يؤمن بهذا".

شردت بذهني فيما قرأته. لقد سعى آرثر كونان دويل لإثبات أن الأرواح تظلُّ معنا بعد أن فقدَ ابنه، هل يعاني سليم الجرح ذاته؟

لم أنتبه إلا على صوت خَضرًا تناديني من خارج الغرفة بهمهمتها العالية. خرجت لأجدها أمام جهاز الإنتركوم وأشارت بإصبعيها على كتفها، بما معناه أن هناك ضابطًا يريد أن يتحدث معي.

تقلّصت معدتي وتقدمتُ ببطء حتى أستجمع أعصابي. نظرت في ساعة هاتفي المحمول لأجد أنني قد استغرقت ما يقرب من ساعتين بين أوراق سليم وملفّاته. عدّلت هندامي مرةً أخيرة واتجهتُ لأخرجَ من الغرفة وأرجأتُ التفكير فيه وفي أفكاره؛ حتى أرى المصيبة التي تنتظرني بالخارج.

اللعنة عليك يا ماجد، بالتأكيد هو من أبلغ عني. لكن لا بأس، فلننهِ هذا الموضوع كما يجب. الشرطة هي الأمان الوحيد.

هـو

لا يوجد أمامها الكثير من الوقت. تعلم أنه قد بدأ يشك بها؛ خصوصًا بعد ما حدث بينهما منذ قليل. انتظرت حتى سمعت هدير مُحرك سيارته وهي تغادر ونهضت من رقدتها. استندت على طرف الفراش لتقف وخرجت من غرفتها ثم يممت شطرها يسارًا إلى الممر. وقفت في أوله وتربّصت لثوانٍ تسترجع فيها الخطوات. تعلم أنها تتجه نحو الظلام الدامس لكنه لا يؤثر بها، بل تشعر أنه يعطيها أمانًا ما.

مدّت يدها لتتحسّس الحائط حتى وصلت إلى حافّته ووقفت لتلتقط أنفاسًا حبستها الإثارة والمجهود. استجمعت شجاعتها و... لنبدأ.

الوقت ليس في صالحها، فهي لا تعلم متى سيعود.

كان أول ما أزاحته من طريقها هو الدولاب الصغير، فقط بما يكفي كي تعبُر بجانبه، بما يكفي كي لا تواجه صعوبةً في إعادته مكانه بالضبط في رحلة العودة. بعده كانت العبوات نصف الممتلئة والتي وضعها كي تسدّ الممَر، رَفعت العبوة الأولى ووضعتها خلفها. ثم التي كانت أسفل منها، وضعتها فوق الأولى، وهكذا حتى صارت العبوات كلها خلفها. توقفت مرةً أخرى لتلتقط أنفاسها وتريح مفاصلها، وتُنصت. لا تسمع شيئًا، لكنها ستستمرّ.

هناك كرسيٌ بلاستيكيٌ في مكانٍ ما، نعم ها هو، أمام الألواح الخشبية، أولى العقبات الكبرى. دفعت بالكرسيّ البلاستيكيّ القصير يمينا وتحسّست الألواح. ما كان منها إلا أن أمالت اللوح الأول للناحية الأخرى. الواحد تلو الآخر، أمالتها جميعًا إلى تلك الجهة حتى صار أمامها فتحة مناسبة. التقطت الكرسيّ البلاستيكيّ ووضعته أسفل أبطها وتحسّست طريقها حتى عبرت من حيث كانت الألواح تسد الممر. ما إن فعلت حتى سمعت الأنين.

تسارعت أنفاسها وهي تُرهف السمع. لا تستطيع تمييز الصوت المكتوم لكن قلبها الذي تسارعت نبضاته هو الآخر يخبرها الكثير. مدّت أناملها حتى لمست الجسم المعدني؛ الغسّالة القديمة. وضعت الكرسيّ فوقها ودفعتها في الاتجاه الوحيد الذي تتفق عليه عجلاتُها الأربع المتهالكة. تخشّبت مكانها لثنصت، هل تسمع صوت سيارته؟

أسرعي أيّتُها العجوز، هكذا قالت لنفسها.

ثم جاء دور الحاجز الإسمنتي. تحسّست بأطراف أصابعها أجولةً مليئةً بإسمنت لا يمكنها بأية وسيلة أن تحركها من مكانها. هنا دور الكرسي البلاستيكي. وضعته عند كومة الأجولة وصعدت فوقه. استندت على الغسالة في اتجاهٍ تعلم أنها لن تخونها وتجري فيه ووضعت

قدمها فوق جوال الإسمنت. هتفت بصوتٍ مسموع:

- جايالك. أنا جايالك.

شهقَتْ بصوتٍ منخفضٍ حين ازداد الأنين حدّة. إن من بالداخل يشعر باقترابها.

بحذرٍ شديدٍ خطَتْ فوق الحاجز الإسمنتي قبل أن تستدير وتلتقط الكرسي البلاستيكي وتضعه بعد الأجولة. استخدمته لتنزل وتستقر فوق الأرضية المتربّة وتوقفت مرةً ثالثةً لتلتقط أنفاسها وترحم مفاصلها. ساعدت الرطوبة الخانقة على جعلها مهمة صعبة لكنها ظلت صامدة.

تحسّست الباب الخشبي. سنون مضت دون أن تأتي هنا. تتذكّر غرفة الخزين جيدًا، لكنها لم يغد لديها ما يكفي لتخزينه. اقتربت. وضعت أذنها عليه. لا تسمع صوت الأنين. أخرجت المفتاح من صدرها وتلمّست إطار الباب حتى عثرت على القُفل. وضعت المفتاح وأدارته.

وفي اللحظة التي دفعت الباب ليصدر أزيزه المميز ارتفع صوت الأنين حتى صار كالنحيب المكتوم. تحسّست طريقها بين الأثاث المكسور وسِلَال الملابس القديمة مسترشدة بصوت الأنين. صار أكثر وضوحًا الآن، ينفطر قلبها حين ارتفعت النّهنهة حتى صارت كالعويل المخنوق. وهي لا يمكن أن تُخطئه، مهما مرّ عليها من وقت.

فقلب الأم لا يُخطئ.

حازم

خرجتْ من غرفة التحقيق على مَضَضٍ تلبيةً لتوسلات جِجي، وهذا قبل أن أكسر الطاولة المعدنية على رأس سليم. ملأت الردهة صياحًا وسبابًا وأنا أتوعّد بوضع حبل المشنقة حول رقبته. خرج منعم من مكتبه ليصيح:

- حازم!! تعالالي حالًا.

هتف سليم:

- حازم بيه، الراجل بتاع المانيكان ده هيعمل مصيبة. مراته وعياله في خطر...

بتر جملته حين رأى أنني سأعود لأدقّ عنقه، لكن جِجي حال بيننا واستدار ليُطالع وجه سليم للحظةٍ قبل أن يقول له:

- نصيحة يا دكتور، خلّي الحاجات اللي دبْت فيها الحياة لوحدها دي ليك إنتَ. مَحدّش هنا هيفهمك.

لماذا يعطيه نصائح هذا الأبلَه؟

- طيب ساعدني أقنع الرائد حازم.

- مش شُغلتي.

بصعوبةٍ شديدةٍ نجح منعم في إدخالي غرفته وما إنْ فعلت حتى صحتُ فيه:

- نَجدته من إيدي ليه يا منعم؟؟؟ الراجل ده قاتل ومجنون!!

جلس منعم خلف مكتبه ونظر إلى شاشة المراقبة التي تنقل ما يحدث في غرفة الاستجواب قبل أن يقول:

- اقعد.

انصعتُ وأنا أعضُّ على شفتيّ وانتظرتُ حتى تركّزَ عينا منعم الشاشة لأقول:

- مانيكان أيه اللي جاتله لغاية عنده وميكروفون أيه اللي ناداه في محطة مصر؟

- يعني تفسيرك إنه مجنون؟

قالها منعم ببرودٍ مُستفزٍ فازددتُ حنقًا وهتفت:

- أيوه ومهووس كمان. هو العقل المخطّط اللي ورا عملية القطر. سوّاق الوابور مجرد جندي

نفذ تعليماته وظهوره في القهوة مستحيل يكون بسبب حكاية المانيكان والترزي ده. ده لابس نظارة من غير عدسات. مجنون، والله مجنون.

لم يعلق منعم وإنما أعطاني نظرةً باردةً استفزتني أكثر، لكنني أكملتُ بحماس:

- وعايدة دي، الست اللي كانت معاه في القطر، جت لغاية عنده في المستشفى وبعدها المصابين كلهم يموتوا، وطبعًا سليم هو أسهل واحد يعمل كده. القضية خلصانة يا منعم.

لم يكن منعم منتبهًا إليّ بل إلى الشاشة.

- بيعمل أيه ده؟

هببتُ من جلستي وذرتُ حول المكتب لأنظر إلى الشاشة التي تعرض ما يحدث في غرفة الاستجواب وأصدم بما أراه.

- مش بقولك مجنون.

كان سليم يواجه الحائط. لا، لم يكن ينظر إليه، بل كان وجهه ملتصقًا به، كأنه يتشممه. ظللتُ أتابعه أنا ومنعم وهو يضع أذنه على الجدار كأنه يستمع لشيء. انتبه سليم بغتةً لكاميرا المراقبة وعاد لمكانه. انخفضت ثورتي بمقدار بسيط وتبادلتُ مع منعم نظرةً طويلةً أنهاها قائلًا:

- طب لو هو مجنون، عايدة دي دوافعها أيه؟ مهووسة بالقتل هي كمان؟ يعني اللي تراعي أخ مريض بمتلازمة داون وتحرم نفسها من الحياة الطبيعية ممكن تقتل عشرات بالبشاعة دي؟ لا يا حازم، فيه حاجة مش شايفنها. وبعدين إنت فاكر إني ساكت على سليم ده. اتفضل، أدي كل حاجة عنه. ملفه نضيف زي الفل. ده أحمد زويل لمرة التين يا سيادة الرائد.

التقطتُ الملف لكن لم أفتحه بل هتفت بكلمات ملأنة باللوعة والحرقة:

- منعم، الراجل ده موّت شخص عزيز عليّ أنا وأمي، حرقه هو وعياله ومراته. ومش بس كده، راح كمّل عليه في المستشفى. التحريات دي مش دقيقة. على جثتي لو سليم ده طلع من هنا على رجليه.

رفعتُ يدي بالتحية وخرجتُ كالإعصار.

***

أمضيتُ بضع ساعات أرتب أفكاري وأجهز مسودة لتقريري النهائي قبل أن يدق هاتفي فالتقطته بعنف ونظرتُ فيه لأجد اسم جنّي.

- أيوه. خير؟

لم تأتني إجابة فكررت صائحًا:

- أيوه يا حِجّي!

عضضتُ على شفتيّ وخرج صوتي من مكتبي ليملأ المديرية:

- إنت يا بني آدم!!

هنا جاء صوته:

- أيوه يا حازم.

- هو أيه اللي أيوه يا حازم؟ هو إنت اتصلت بيّا في وقت مش مناسب ليك؟؟

- معلش، معلش، نسيت إني اتصلت. بقولّك، رحت لبيت عايدة دي وملقيتهاش.

- معناه أيه الكلام ده؟ هربت هي كمان؟

قاطعني نداءُ أمين شرطة فُلِخ وهو يقتحم عليّ مكتبي:

- حازم بيه. حازم بيه.

هدرتُ في وجهه:

- عايز أيه يا زفت؟

- المتهم سليم لقمان سعادتك، أعصابه تعبانة وعايز الدَّوَا بتاعه.

ثم جاء صوت حِجّي من هاتفي:

- بقولّك يا حازم، ما تيجي نروح لدكتورة نهلة.

هنا أنهيتُ المكالمة وغادرتُ بكُلّ هدوءٍ قبل أن أفجّر المديرية بمَنْ فيها.

هـو

ستلعب عايدة دورها كما خُطِّط لها، ستعزف معه سيمفونيته التي بدأها في محطة مصر وجاءت هي ومستر جراي ليفسدا عليه تُحفَته الفنية.

هناك دومًا حل، هكذا كان يكرر. ولو كان باب شقة سليم ينفتح بصوته فقط فهناك حالٌ لهذه العقبة أيضًا. يسمعها الآن تفتح الباب. يتقهقر نازلًا السلَّم كي يختفي في ظُلمته دون أن يجعلها تبتعد عن ناظره. خرجت عايدة من باب شقة سليم وبحثت عن ذلك الشرطي الذي خاطبها عبر الإنتركوم وطلب منها أن تفتح له باب العمارة. جالت بعينيها في السلم الهادئ لكنها لم تجده، هزَّت كتفها وعادت للداخل.

همَّت بإغلاق الباب لكنه منعها.

حازم

الدنيا كلها تسير ضدي. وقتي ينفذ وسليم هذا لا أستطيع إحكام قبضتي عليه. يجب أن أتخطى منعم وأذهب للعميد الشناوي لأخبره أننا قد قبضنا على المشتبه الأول في القضية. أخذت مُسوَّدة تقريري وخرجتُ من القيادة العامّة بخطواتٍ سريعة مباشرةً لسيارتي. أخرجت مفتاحي لكني تسمَّرت حين لمحتُ ذلك الوجه الأسمر الدائري يبتسم لي من السيارة المجاورة.

- إزيّك يا حازم؟ أنا قلت أجيلك بنفسي أسلّم عليك.

التفتُّ للباب الذي خرجت منه لأتأكد أن أحدًا لا يراقب هذا اللقاء المشبوه، ثم انحنيتُ لأنظر إلى مَن يقود السيارة بجوار عوني. ذلك الرأس الأصلع والوجه الطفولي الذي لا يتناسب إطلاقًا مع طلّته الإجراميّة. في الكنبة الخلفية جلس ثلاثة مشبوهين ذوي طلّة إجرامية واضحة كالشمس، أسلحتهم النارية ظاهرة في أيديهم. عادت نظراتي لتخترق وجه الغاياتي المبتسم بسماجةٍ واعتصرَتْ يدي إطار الباب. تجاهلني ونظر أمامه فوجّهت كلامي إلى عوني:

- بتعمل أيه هنا يا عوني؟

ابتسم عوني حتى ظهرت أسنانه التي أنهكها التكوتين وقال:

- الوقت خِلِص. الألوسي بيقولّك خلاص، بخّ. الفلوس تبقى عنده بُكرة وإلا...

عضضتُ على أسناني لتُصدر صريرًا واضحًا وأنا أقول:

- إنت جاي تهددني يا عوني؟ وأوضاد مبنى الوزارة؟ وجايبلي دنجل ده معاك وشويّة العيال المُخنّثة دي علشان أخاف؟ إنت عارف أنا لو ندهت مرة واحدة بس أكبر حتّة فيكم هتكون قَدّ أيه؟

اكفهرَّ وجه عوني ولم يُجبني. إشار بإصبعه للغاياتي كي يتحرك حين رأى جِجّي يقترب. هتف الغاياتي وهو يدير المحرك:

- البقاء لله في الغفير بتاعكم. والنبي لو فيه غرَا قولّي علشان أعمل الواجب مع الوالدة. ما هو إحنا خلاص، عرفنا سِكّة بيتكم. سلام.

شعرت بأصابعي تخترقُ صاج السيارة وانتزعتُ زجاج باب عوني في يدي، عاقدًا العزم على قتلهما بيديّ العاريتين وليَكُن ما يكون. أخرج عوني مُسدّسه من أسفل مقعده لكن

الغاياتي تحرك بالسيارة قبل أن يصل زميلي الأبله. ذلك الملعون، إنه يهددني بأمي. أخرج عوني رأسه من نافذته وقال وهما يبتعدان عني:

- ومتنساش إنك السبب يا حازم. كان زمان عيلة الجنايني عايشة.

كدتُ أن أركضَ خلفهما لأكلهما بأسناني لكن حِجّي كان قد وصل عندي وقال:

- مش ده عوني يا حازم؟ الظابط اللي كان مكانك واتفضل من الخدمة؟

لم أُجِبه وظللتُ متخشبًا غير مُصدِّقٍ ما سمعتُه. اللعين، كيف يجرؤ؟

كيف؟؟

لم أكُن السبب في وجود رجب وأسرته على متن القطار؟

أليس كذلك؟

لم يَكُن بسبب مماطلتي وتجاهلي؟ لقد تعجّل رجب، ليس إلّا.

فليجِبني أحد!

انتبهت لحِجّي الذي كان يراقبني بتعبير غير مفهوم، كأنه يبتسم دون أن تتحرك شفتاه، فضغطت زر الريموت لينفتح باب سيارتي. ارتميت خلف المقوَد وأنزلت الزجاج الجانبي لأهتف به:

- جاي ولا هتفضل متنّح كِدَه كتير؟

فتح حِجّي بابه وانضم إليّ قبل أن أنطلق بالسيارة وقال لي:

- أنا شايف إننا نروح لدكتورة نهلة دي، يمكن نلاقي عندها دليل ولّا حاجة.

- حِجّي، الست دي قَدَ أمّك. ارحمني.

- مالك يا غمّ؟ أنا بقول نكمّل استجوابها.

هَزَزْتُ رأسي باشمئزازٍ ولم أعلّق، فقد ذهب ذهني إلى شيءٍ آخر. يبدو لي أن وقتي ينفَدُ بالفعل وهذا "الألوسي" لن يتوانى عن تنفيذ تهديده وهذا واضح من جرأة تصرفاته. يجب أن أنهي قضية محطة مصر هذه قبل أن ينفجرَ كُلُّ شيء في وجهي. لا بُدَّ أن أحكِم القضية حول سليم قبل أن أذهب إلى الشناوي بتقريري النهائي.

- ماشي يا حِجّي. نروح لنهلة.

***

- الكلام ده كان أوصاد عيني يا حازم بيه. وممكن تسأل طاقم التمريض وفنّي الصيانة. أنا مش بكدب. جهاز التنفُّس كان بيشتغل لوحده زَيّ ما يكون مربوط بمريض.

هكذا أكّدت الدكتورة نهلة وهي جالسةٌ خلف مكتبها في المستشفى.

- يعني جهاز التنفُّس اشتغل لوحده في نفس الوقت اللي المصابين كانوا بيموتوا كلهم دفعة واحدة. صُدفة جميلة.

- جميلة؟؟ إزاي تسمح لنفسك تقول كده؟

هكذا صاحت نهلة وانتفخ معها وجهُها المنتفخ بطبيعته. حاولَتِ التظاهر بالبرود لكن احمرار وجهها اللّحِيم كان شاهدًا على الحنق الذي يعتمل بداخلها والشعور بالإهانة من شكّي فيما قالته. أسرع حِجّي قائلًا بصوتٍ يمتلئُ بالحنان:

- إحنا مِصدِّقِينك يا دكتورة بكل تأكيد. حازم مش قصده يشكّك في كلامك بس هو عايز يفهم.

مططتْ شفتيّ ممتعضًا لكني آثرتُ ترك دفّة الحديث للحِجّي الذي استطرد:

- تفسيرك أيه طيب للظاهرة دي يا دكتورتنا؟

نزعتْ عويناتها ودَعكَتْ عينيها المنتفختين وقالت:

- معنديش تفسير، ومش شُغلتي الحقيقة. وبصراحة أنا شايفة إنكم مش مهتمين بالمصيبة الأساسية. إحنا عندنا كارثة في المستشفى هنا. فيه اتنين وعشرين مصاب كانوا في قسم الحروق واتقتلوا أوصاد عينينا.

- طيب ماتوا ازاي يا أستاذتنا؟

ارتعشت شفتاها بطريقةٍ غير ملحوظة وحاولت اصطناع بعض الرقّة، لكن صوتها خرج رفيعًا مثل صفير البط:

- غالبًا بخُفنة هَوَا. الناس مرعوبة وشمعة المستشفى راحت في داهية يا سيادة الرائد...

- حِجّي. وبلاش ألقاب. شكلك تعبانة. إنتي بقالك قَدّ أيه منمتيش يا دكتورة؟

رمته بنظرة خاطفة وارتعشت شفتاها مرةً أخرى وقالت:

- ده اليوم التالت الحقيقة.

- نجِيلك وقت تاني؟

- لأ أنا معاك اتفضل اسأل.

قالتها بنبرةٍ أقلّ حدّةٍ فأسرع جِجّي قائلًا:

- بتَـكْلِي كويس؟ أخلّيهم يجيبولك سندوتش؟

نجحت ابتسامتها في العودة إلى شفتيها التي بهت فوقها أحمر الشفاه وأجابته بصوتٍ أختنف:

- ميرسي.

راقبتُهما مذهولًا قبل أن يهبّ جِجّي واقفًا فأمسكت ذراعه بيديْ القويتين وهتفت:

- إنت رايح فين؟ إنتم هتجنّنوني إنتوا الاتنين؟ اقعد يا جِجّي بيه.

تنحنح الأخير وعاد ليجلس متبادلًا مع نهلة ابتسامةً خجولة. منعًا للمزيد من "التلزيق" تدخلتُ قائلًا:

- التحقيق الأساسي ماشي على قدم وساق واللي ماسكه العميد شناوي شخصيًا، مساعد مدير المباحث. القضية مسمّعة لأعلى جهة في البلد، متقلقيش يا دكتورة ويا ريت متعلقيناش شغلنا. أنا والرائد جِجّي مسئولين على خيط تاني.

- الدكتور سليم برضه؟

- أيوه، الدكتور سليم برضه.

وضعت نهلة نظّارتها الطبيّة السميكة مرةً أخرى على أنفها فجحظت عيناها من ورائها كسمكة في حوض الزينة، قبل أن تسترجع نبرتها الهجومية قائلة:

- يبقى إنتوا الاتنين بتضيّعوا وقتكم.

التقطَت من فوق الطّاوِلَة أمامنا بعض المجلات العلمية ودفعت بها في وجهي قائلة:

- بُص! مفيش واحدة سليم مش فيها. عالم عبقري زَيّ ده ليه يعمل كده؟؟

كظمت غيظي وقلت متعمدًا أن أجعل صوتي الأجَشّ أكثر عمقًا:

- لو معندكيش تفسير للجهاز اللي ابتدى يتنفّس لوحده يبقى مبنضيّعش وقتنا. لأن ببساطة سليم ممكن يكون ورا القصة دي. تشتيت ذكي علشان يوجه الانتباه بعيد ويروح يعمل عملته في قسم الحروق. ولّا ده تفسير مش منطقي برضه؟ الذكاء والنبوغ مش معناهم

البراءة يا دكتورة. القتلة المتسلسلين ومجرمي الحروب كانوا من أذكى البشر.

- وخلّاه يشتغل وهو في بيته؟ سليم مكنش هنا ساعتها.

- سهلة. ده واحد باب بيته بيفتح بصوته مش هيعرف يظبّط حاجة زي دي؟ زي اللي حصل في محطة مصر. ممكن يكون نجح إنه يخترق منظومة الإذاعة الداخلية. أو حدّ من اللي شغّالين معاه.

عضت شفتيها الغليظتين وأشاحت بوجهها بعيدًا فاستطردت:

- دكتورة، إحنا لغاية دلوقتي في منتهى الصبر والتفهُّم؛ مراعاةً للظروف والمصايب اللي حواليكم هنا. لكن متفهميش صبرنا ده غلط. لو الجلم مش هيجيب نتيجة لازم تعرفي إن القانون له وجه تاني.

أطلقت زفيرًا بينما هزّ لها حِجّي رأسه ورفع حاجبيه مشجعًا في بلاهة:

- إحساسك بيقول أيه؟

قالها حِجّي بهيام لكن نهلة مالت للأمام وقالت بنبرةٍ جادةٍ ضخّت الدم في عروقه:

- عايز تعرف إحساسي بيقولّي أيه؟ إحساسي بيقولّي إن كل لحظة بتضيعوها في تكذيب سليم في كارثة جديدة بتحصل. ولو قالّك إن الترزي ده وراه مصيبة يبقى أكيد وصل لحاجة. اسمعوا كلام سليم قبل ما تندموا.

هنا التفت حِجّي إليّ وقطّب حاجبيه كي يظهر بهيئةٍ جادّةٍ قائلًا:

- حازم، هنخسر أيه؟ نروح نشوف حكاية الترزي ده. ممكن يكون سليم عنده حق.

- عنده حق إزاي بس؟ إنت هتجنّني؟ عرف منين إنه هيعمل حاجة لو هُمَّ مش عصابة واحدة؟ أيه، شيرلوك هولمز؟

هتفتُ بها وأنا أكاد أنفجر في وجهيهما فأشار حِجّي للمجلات العلمية التي يظهر فيها وجه سليم بصورة متكررة، هزّ رأسه ورفع حاجبيه كأنه يقول "ليه لا"؟ تأمّلتُ وجه سليم البيضويّ الأسمر وشردتُ للحظةٍ فيما قاله لي عوني منذ أقل من ساعة وتهديد الغاياتي، ثم انتفضت واقفًا وقلتُ بكل حزم:

- للأسف يا دكتورة نهلة كل اللي قلتيه ده ولا يثبت حاجة ولا يفسر أي شيء. سليم هو المايسترو، وده رأيي النهائي اللي هحطّه في التقرير. أنا رايح الوزارة، وهطلّب نقلي للمشروعات تاني. القضية دي انتهت بالنسبة لي.

ثم استدرتُ لأغادر تاركًا حِجْي ونهلة مصدومين. هذا ليس هروبًا وليس سعيًا وراء المال، فقد فات أوان المكسب، ولكن هناك الأهم الذي يمكن خسارته.

سليم

"المايسترو"، هكذا يُسمُّونه، وهناك من أطلق عليه قديمًا "عازف الأقدار". كُليتان ملائمتان تمامًا لذلك المجنون مرهف المشاعر، عاشق الموسيقا. لكني أعلم أنه أكثر من هذا، أعمق من هذا، أخطر من هذا. أعلم أن ما يفعله ليس جنونًا عشوائيًا، ليس شرًا مطلقًا ودموية حيوانية بلا معنى، بل إن معناه هذا، حكمة ما يفعله ويؤمن به التي لا تزال غائبة عني، هي ما يجب أن تثير ذعرهم. فهي تعني أنه لن يتوقف قبل أن يسمعه العالم كله... ويفهمه.

ما الذي دفعك لهذا أيها المايسترو؟ ما الذي رأيته في حياتك ليصنع منك هذا المسخ المخيف؟

تأملت كفَّ يدي. لا أزال أشعر به، حتى بعد كل هذا الوقت، أشعر بتواطئنا الذي تم عبر باب شقة عايدة. لا أزال أشعر بغضبه ويأسه، بالصلة التي نشأت بيننا، كأننا قد تعارفنا لحظتها، وتواعدنا... على العداء.

لماذا تقتلهم؟ لماذا؟ أين يجب أن أبحث حتى أعثر على منطقك؟ حتى أفهمك. وها قد صار عقلي كمحرك توربيني يعمل بأقصى طاقته حتى كاد أن ينشطر وهو يلاحقك.

لا أدري ما الذي يضغط على أعصابي أكثر ويجعل من مهمة ذهني شيئًا مستحيلًا. هذا الحيز الضيق الذي ظللتُ جالسًا فيه لساعات أم احتياجي لدوائي الذي فات على موعده سبعة أيام بالتمام والكمال؟ أو ربما هو هذا الظمأ اللعين، الذي يجيء دون إنذار. رغم أن طعم الماء في فمي يصبح فردوسيًا، لكن مهما شربت لا أرتوي حتى يذهب العطش بنفس الطريقة، دون إنذار.

لكني أعلم ما يؤرّقني أكثر من كل هذا. ما يُؤلمني حتى النُّخاع وينحر في صدري مثل نصل صدئ، هو تلك اللوحة التي رسمها لي عيسى، فقد جعلت عالمي أكثر... رمادية. جعلت الحياة كلها كالسينما الصامتة، بلا صوت، بلا لون. أحاول طرد تفاصيل تلك اللوحة من ذهني بكل ما أوتيت من حيَل، لكنني لا أستطيع.

"مستر جراي"، يا لها من كُنية دقيقة، فلا يوجد في حياتي لونٌ أكثرُ غزارةً من الرَّمادي. ملبسي، فرش بيتي، لون شعري، كل شيء. كيف استطاعت عايدة وشقيقها سبر أغواري بهذه الدقة والسرعة؟ كيف وهي قد رأتني للحظاتٍ وعيسى لم يَرَني قبلها من أساسه؟ أشعر أنني عارٍ تمامًا.

أيها الإدراك، ما حقيقتك؟ ليتك تراني الآن يا ريتشارد ستيفنز، لكنتُ طرتُ من السعادة.

يزداد الظمأ وتميدُ بي الدنيا لجزءٍ من الثانية فأغلق عينيّ وأهزُّ رأسي لأطرد تلك الحالة. ثم أفتحهما حين أسمع صوتًا. أجول بعينيّ في المكان باحثًا عن مصدر تلك التنهيدات، هناك مَن يهمس حولي. أنهض من الكرسي المعدني غير المريح وأعدّل هندامي وأذهب لأتنصّت عبر الباب الموصد بإحكام. لو كنتُ في ظروف أخرى لانهارت أعصابي بكل تأكيد؛ خصوصًا دون دوائي. لا أسمع شيئًا، لا بأس، أعراض انسحاب؟ تفسير صار مُكرّرًا حتى فقد منطقه. حاولتُ طمأنة نفسي، ثم تذكّرت.

باب غرفة العناية المُركّزة المزدوج، صياح الأطباء والممرضين وفنّي الأجهزة الطبية، كابوسي المزمن. لكنها كانت المرة الأولى التي يأتيني وأنا مستيقظ.

مستيقظ؟ يا لها من كلمة مضحكة، فأنا لا أعرف إن كنت واعيًا أم نائمًا أهذي.

درتُ في مكاني كالملسوع. هناك مَن يهمس حولي بكل تأكيد. انزويتُ في أحد الأركان وأعطيتُ له ظهري كي أكشف الغرفة الصغيرة أمامي. تقلّصت عضلاتي فجأةً حين سمعت الكلمات، كلمات بدأت أفهم بعضًا منها.

تلفّتُّ حولي كالمجذوب. من أين تأتي تلك الأصوات؟ لا شيء حولي سوى جدران مصمتة، حوائط باردة شهدت اعترافاتٍ ولحظاتِ ندمٍ لا يمكن وصفها.

هنا خطر ببالي شيء.

تلك الأحداث، لقد انتبهت لتوّي لعاملٍ مشترك بينها. لكنه تفسيرٌ يفوق الخيال.

الإشارات، الرسائل التي يبعثها الجماد، إنه... يتحدث معي.

الجماد يتحدث معي. هل قلت هذا فعلًا؟

في هذه اللحظة دخل المُقدّم منعم.

- أظن إنت مَدِين لينا بتفسير. أيه اللي بيحصل؟

لم أعطِه كُلَّ انتباهي، بل كنت لا أزال شاخصَ البصر أحملق في الحائط.

- دكتور سليم، ساعدني. المايسترو ده هيستمر في قتل الغلابة والمساكين. لو إنت فعلًا مش هو، ساعدني أوصلُه. لأني متأكد إن كل اللي عمله كوم واللي جاي كوم تاني. ساعدني أنقذ ناس ملهاش ذنب.

"الغلابة والمساكين"، تلك نقطة في منتهى الأهمية، فطرتك سليمة أيها الضابط النبيل. باستثناء حادث الحفل النيلي الذي كان ضحيّته أشخاصٌ أصحّاء ومن طبقة غنية. سوف

أستخدمها فيما بعد. لكنه مُحقّ، يجب أن أثق بمنعم أولًا كي يثق بي. بنبرة بطيئة حذرة، ودون أن أدير له وجهي، أجبته:

- ولو قلتلك، توعدني إنك تنفذ اللي هقولّك عليه.

تردد منعم للحظةٍ قبل أن ينظر للجدار مرةً أخيرة ويلتفت إليّ ويومئ برأسه بالموافقة. أسندت شفتيّ على إبهامي وحككتُ شاربي بأسناني، ثم أطرقتُ مفكرًا قبل أن أغمض عينيّ وأنقل ما أسمعه:

- "سامحيني، سامحي أختك يا شهيلة".

"ريحتها مش هتبان، متقلقيش يا كريمة".

"يا نهار أسود، يا نهار أسود. هتفضح... هتفضح"

"يارب يكون كل ده كابوس، إحنا أيه اللي عملناه ده يا شريف؟".

كأنه مُسيَّر مسلوب الإرادة، جذب منعم الكرسي وعيناه ثابتتان عليّ وقد فقدَ القدرة على التعليق. انتظر حتى أنهيتُ تلك الجمل التي تبدو للوهلة الأولى عشوائية لكن يبدو أنه يعرف جيدًا كل كلمة بها.

- إنت.. عرفت منين الأسماء دي؟ ده التحقيق اللي كان لسّه قبلك بدقايق، في الأوضة دي. إنت سمعت حدّ وهو بيتكلم برّه الباب؟

أعطيته ابتسامةً أبويّةً متفهمًا حيرته ثم هَزَزْتُ رأسي برزانةٍ رافضًا تفسيره. لكني لم أجرؤ أن أخبره ما توصلت إليه، فإن ما سمعته ليس له سوى تفسير واحد، وهو ليس مُستعدًا لسماعه.

بَخلَق في وجهي لثوانٍ طويلة فتركته يستجمعُ الخيوط بنفسه قبل أن يُطرِق مفكرًا.

- يعني شريف وكريمة هُمّ اللي قتلوا أختها. مش ممكن!

هبَّ وخرج من الغرفة ليصرخ في أحد الضباط أن يُلقي القبض على كريمة وشريف ويعيدهما إلى هنا، ثم عاد ليجلس أمامي قائلًا:

- أيه المطلوب؟

- تعرفوا توصلوا لبيت زوجة الترزي؟ اللي قعدت فيه بعد ما هربت منه؟

- عندنا المعلومة دي بالفعل.

أستخدمها فيما بعد. لكنه مُحقٌ، يجب أن أثق بمنعم أولًا كي يثق بي. بنبرة بطيئة حذرة، ودون أن أدير له وجهي، أجبتُه:

- ولو قلتلك، توعدني إنك تنفذ اللي هقولك عليه.

تردد منعم للحظةٍ قبل أن ينظر للجدار مرةً أخيرة ويلتفت إليّ ويومئ برأسه بالموافقة. أسندت شفتيّ على إبهامي وحككتُ شاربي بأسناني، ثم أطرقتُ مفكرًا قبل أن أغمض عينيّ وأنقل ما أسمعه:

- "سامحيني، سامحي أختك يا شهيلة".

"ريحتها مش هتبان، متقلقيش يا كريمة".

"يا نهار أسود، يا نهار أسود. هتفضِح... هتفضِح"

"يارب يكون كل ده كابوس، إحنا أيه اللي عملناه ده يا شريف؟".

كأنه مُسَيَّر مسلوب الإرادة، جذب منعم الكرسي وعيناه ثابتتان عليّ وقد فقدَ القدرة على التعليق. انتظر حتى أنهيتُ تلك الجمل التي تبدو للوهلة الأولى عشوائية لكن يبدو أنه يعرف جيدًا كل كلمة بها.

- إنت.. عرفت منين الأسماء دي؟ ده التحقيق اللي كان لسّه قبلك بدقايق، في الأوضة دي. إنت سمعت حَدّ وهو بيتكلم برّه الباب؟

أعطيتُه ابتسامةً أبويَّةً متفهمًا حيرته ثم هَزَزْتُ رأسي برزانةٍ رافضًا تفسيره. لكني لم أجرؤ أن أخبره ما توصلت إليه، فإن ما سمعته ليس له سوى تفسير واحد، وهو ليس مُستعدًا لسماعه.

بَخلَق في وجهي لثوانٍ طويلة فتركتُه يستجمعُ الخيوط بنفسه قبل أن يُطرِق مفكرًا.

- يعني شريف وكريمة هُمَّ اللي قتلوا أختها. مش ممكن!

هبَّ وخرج من الغرفة ليصرخ في أحد الضباط أن يُلقي القبض على كريمة وشريف ويعيدهما إلى هنا، ثم عاد ليجلس أمامي قائلًا:

- أيه المطلوب؟

- تعرفوا توصلوا لبيت زوجة الترزي؟ اللي قعدت فيه بعد ما هربت منه؟

- عندنا المعلومة دي بالفعل.

- حد يروح هناك حالًا. ويارِيت نلحق.

أمسك منعم هاتفه وقام بالاتصال بحازم لكنه لم يُجبه فالتفت إليّ طالبًا المشورة. انحنيتُ للأمام ونزعت نظارتي عديمة العدسات وحاولت أن يخرج الكلام مني في أقوى صُوره:

- إحنا من دلوقتي هنطارد شبح يا سيادة المقدم، شبح مكنش المفروض حد يكتشف وجوده أساسًا. لكن أنا حسّيت به وسيادتك كمان حسيت به، وأنا على أتم استعداد إني أمشي معاك المشوار كله، لغاية ما نمسكه.

- وهتستفيد أيه؟

- غير إني أبرِّأ نفسي، عندي أسبابي الخاصة.

- ممكن أعرفها؟

تأملتُ وجهَه الدائريّ الصغير وملامحه القوية التي ينساب العَرَق حولها وفوق جبهته العريضة ورأسه الحليق رغم برودة الجو. ثم أجبته.

- حاسس إن الراجل ده معاه جزء من إجابة سؤال طول عمري بدوّر عليه. لكن أنا مش قلقان، حتى لو هو شبح فعلًا؛ لإننا مش لوحدنا.

- مين بيساعدنا؟

لم أستطع أن أجيبه، فهو أكثر مما يمكنه الاستيعاب، ولم أكن أريد أن أخسر ولاءه.

كيف يمكنه أن يستوعب أن الجماد قد صار حيًا؟ كيف يمكنه أن يصدق أن من قوة الآلام التي شهدها قد بدأ يشعر بها، صار يمتصُّها كرحيقٍ سامّ، حتى امتلأ بها وتسلّلت من بين شقوقه عائدةً إلى الدنيا مرةً أخرى؟

كيف أخبره أن الحاجزَ الأبديّ بين الأشياء والأشخاص قد انكسر وأن من يساعدنا جماد لا حياة فيه؟

كيف أخبره أن ما سمعته في هذه الغرفة هو "صدى الندم" الذي امتصته الجدران؟

وضع الهاتف في جيبه وهو يُبادلني نظرتي الصامتة. أطرق مفكرًا للحظةٍ قبل أن يُهرع خارج الغرفة، وعاد بعدها بثوانٍ قليلة ومعه سلاحه وسترته وهاتفي. أعاده إليّ قائلًا:

- قولّي. أعمل أيه؟

- مش هتطلب تأمين؟

- مش هجازف بحَدّ من رجّالتي، حازم هو الوحيد اللي كان ينفع. أنا هصدّقك وهمشي ورا كلامك من غير ما أسألك أكتر من كده، وعلى مسئوليتي.

تأملته للحظةٍ مُعجبًا بشجاعته وقمتُ بدفع إطار نظّارتي الفارغ لأُعيدها مكانها فوق أنفي، ثم التقطتُ هاتفي قائلًا:

- رقم تليفون سيادتك كام؟

لمحني أنظرُ لشيءٍ ما يسقط بجواره بطرف عيني لكنه لم يَرَ شيئًا هناك. تجاهلتُ الظاهرة المزعجة وطلبتُ الرقم الذي أعطاه لي فيدقُّ هاتفُه المحمول في نفس اللحظة. تأمَّل الرقم قبل أن يرفع عينين يُظلّلهما حاجبان بارزان ويحدق في وجهي وأنا أُجيبه بكل جدية:

- رُدّ عليّا يا سيادة المقدم. وركّز قوي في المكالمة دي. لأن دي أهم مكالمة تليفون في تاريخك المِهَني، في حياتك كلها. اللي هيحصل كالآتي...

عايـدة

فتحتُ عينيّ بصعوبة وحاولت أن أدعكهما لكنني لم أستطع تحريك يدي. نظرت حولي لأجد أنني لا زلت في صالة شقة سليم، التي كانت مظلمةً إلا من نور الشارع وهو يتسلّل من النافذة العريضة. اكتشفتُ أني جالسة على أحد كراسي الشُفرة الرّماديّة ومعصماي مقيدان خلف ظهري، أمامي النافذة التي فُتِحت ستارتها الرمادية باهظة الثمن على مصراعيها.

صوت همهمة مكتومة تلاها مَن يقول:

- إنتي كويسة يا عايدة؟

أدرتُ رأسي بما يكفي لأرى عيسى بطرف عيني جالسًا على الأريكة ورائي ودفتر أبي في يده. ثم لمحت خُضُرًا على الأرض مقيدةً في أرجُل مائدة السفرة وهي مُكمّمة الفم ومعصوبة العينين. هَزَزْتُ رأسي كي أطردَ تأثير المخدّر وحاولت تذكُّر ما حدث بعد أن فتحت باب الشقة. لكني انتبهت حين جاء صوتٌ هادئٌ عميق.

- أختك كويِّسة يا عيسى، ماتخفش.

كأن هناك مَن صعقني بتيار كهربائي، أدرتُ رأسي للناحية الأخرى حيث مصدر الصوت. يقف عند مكتب سليم، يقلب في الأوراق المتناثرة فوقه مستخدمًا ضوء شاشة محموله. حاولتُ استشفاف ملامحه لكن ضوء هاتفه لا يصل إلى وجهه. يقرأ ملاحظات سليم على عُجالة قبل أن يهزّ رأسه متفهمًا. لا أدري ما الذي فهمه من تلك الطلاسم والألغاز، لكني شعرت أنه عثر على ضالّته.

أطفأ هاتفه وجاء ليقف ورائي. لا زلتُ أجد صعوبةً في تمييز ملامحه فمن ورائه كان يأتي ضوءُ المطبخ الأمريكي ليضيف عليه هالةً من الغموض. ثم ميّزت بطرف عيني هيئة الكلبة أليس وهي راقدةً عند قدميه.

- أنت مين؟

سألته فدلّك فروةَ أليس التي رَفعتْ رأسها وهزّت ذيلها في سعادةٍ قبل أن يقول:

- أعتقد إنتي عارفة.

التفت إليّ ليضيف بنبرةٍ بطيئة، أكثر عمقًا:

- السؤال الأهم: إنتِ، لسه عايشة ليه؟

ثم جلس ورائي، بجوار عيسى على الأريكة، الذي زحف مبتعدًا عنه دون أن ينظر إليه.

وجّه بعدها سؤاله إليّ:

- أيه اللي نَزّلكم من القطر، أيه اللي خلّاكم تسيبوه وتِجزوا؟ إنتِ و... مستر جراي؟

ترددتُ للحظةٍ فاستطرد:

- قولي مَتخفِيش. هصدّقك.

بصوتٍ مرتعشٍ ودموعٍ حبيسة رويتُ له قصة الميكروفون الخرِب وموظفة الاستعلامات والكابينة رقم 5. شعرتُ أنه كان يعرفها فصمتَ للحظةٍ بعد أن انتهيت فبادرني:

- وإنتي؟ أيه اللي نَزّلك وراه؟

استمع بكل تركيز لقصة القلم الذي رفض الانصياع لي، لكني أخفيتُ عنه اكتشافي أن المشكلة كانت في الدفتر نفسه، حفاظًا عليه. غمغم بعدها كأنه يكلم نفسه:

- يعني إنتي كمان؟

حانت مني التفاتةٌ بسيطةٌ ناحيته لأجده يحدّق في الدفتر الذي كان عيسى يمسك به بكلتا يديه وقلت:

- أنا كمان أيه؟ هو أيه اللي بيحصل؟ إنت بتعمل كِدَه ليه؟ استفدت أيه لما قتلت الناس دي كلها؟

لحظة صمت طويلة لم أسمع فيها سوى همهمة خَضْرَا ونحيبها المكتوم. ترك عيسى دفتر ناعوت ونهض ليجلس القُرْفُصاء بجواري ثم أخذ يُربِّت على ساقي ليطمئنني. تركت أليس مكانها عند قدم الغريب ولازَمتْ عيسى مثل ظله.

- بَصّي من الشباك.

هكذا قال الضيف المخيف فحوّلتُ نظري لما يشيرُ إليه، لكني لم أفهم إلامَ يرمي.

- بَصّي على العمارات والشقق. بصي على البيوت والعِشش. اسمعي.

- أسمع؟ أسمع أيه؟

- الموسيقا.

هكذا أجابني وهو يحرك رأسه باستمتاعٍ ويلوّح بيده كأنه مايسترو يقود فرقته. عادت إليه أليس ثم توقفت لتنظر إلى عيسى، كأنها مترددةٌ فيمَن يجبُ عليها ملازمته. حرّكت بُؤبُؤَيْ عينيّ في مقلتيهما باحثةً عن معنى لما يقوله، لكنني لم أجد، خبال مجذوب يريد أن يحرق

الكون. مرّت بعدها لحظة صمت قبل أن يتنهّد ويفتح عينيه قائلًا:

- إزاي مش سمعاها؟ ده إنتي فنانة.

- عايدة دكتونة (دكتورة)، بتصلّح المكسون (المكسور).

هكذا أجاب عيسى بحماس فنظرتُ إليه مستعجبةً ردّ فعله وهدوءه رغم الموقف المرعب. لكني قدّرتُ أنه ربما لا يعي خطورته ثم انتبهتُ إلى الغريب الذي كان يرمقه بنظرةٍ متفحّصة. أطرق للحظةٍ قبل أن يبتسم ويقول له:

- وأنا كمان يا عيسى. بصلّح المكسور.

- لأ. إنت بتكشنه (بتكسّره) خالص. وبعد كِده بتنميه (بترميه).

رغم أني لم أرها، فإني شعرتُ أن خلجات الغريب قد ارتعشت للحظةٍ قبل أن يلتفت لي ويستطرد بصوته الهادئ البارد:

- ولو هي بتصلّح المكسور زيّ ما بتقول، ليه الدنيا معانداها؟ مش يمكن المشكلة في أختك مش في الاقلام اللي بتكتب بيها؟

- يعني أيه؟

سألته فتقدّم ليلتقط دفتر ناعوت الملقى على الأريكة وصمتَ للحظاتٍ قبل أن يغمغم:

- يمكن المفروض تكتبي حاجة معينة.

رفعتُ حاجبيّ وقلت:

- حاجة معينة؟ عن أيه؟

نهض وقال:

- أنا.

لم أعلق هذه المرة. كيف أتحاور مع مجنون؟ لكنه فعل بعدها شيئًا حبس أنفاسي. فقد التقط قلمًا وتحسّس الوجه المحفور على الدفتر قبل أن يفتحه. تأمل للحظاتٍ صفحاته العجيبة وغمغم بكلمات إعجاب لما كان يقرؤه، قبل أن يضع طرف القلم على إحدى الصفحات ويجرّ خطًا. كدت أفقد صوابي من الفضول لمعرفة نتيجة ما فعله. جحظت عيناي وتوقفت حركتي المحمومة. ابتسم متأملًا الصفحة ثم نظر إليّ. بالتأكيد شعر بما يموج به صدري، لكنه لم يزِد ناري، فقط أغلق الدفتر بكل هدوء ووضعه بعيدًا عن مجال رؤيتي. أما

ما قاله بعدها فقد صدمني، هزّ مشاعري كما لم يحدث من قبل.

- فاكراني مجنون، عارف. يمكن فعلًا مجنون. مجنون لما قعدت أتفرّج على الناس وهُمّ بيصرخوا من الألم. مجنون لما استنّيت سنين قبل ما أريّحهم من العذاب، رغم إني كنت عارف إن دي أمنيتهم. مجنون لما افتكرت إن ده مش ضعف مني. كنت عايز أعيش وخلاص، بأي ثمن. لغاية ما أسمع آخر نَفَس وآخر نغمة من آخر آلة، وأنا بنزل تحت التراب. ودلوقتي الجماد نفسه من كُتر الألم اللي بيكون شاهد عليه بدأ يحس.

صمَتَ للحظةٍ شعرتُ فيها أنه يجاهد كي لا تثور مشاعره. التفتُ إليه بطرف عيني لأجده ينحني ليلتقط حقيبة جلدية صغيرة ويضعها على طاولة المكتب بهدوء، قبل أن يستطرد:

- كان أوصادي اختيار. إما أن أتحطّم، أو اتطوّر لكائن أسمَى. وبالفعل، أصبحت أشوف الدنيا بصورة أنقى، أوضح. عرفت دوري. ويقيني به كان من القوة إن الدنيا استجابت لي.

أخرج من حقيبته أربعة تجهيزات بلاستيكية شفّافة استطعت أن ألمح فيها محاقن. جحظَت عيناي ذُعرًا حين أخرج إحدى الحُقَن ووضع الثلاث الأخريات على المكتب بتناسق وهدوء طبيب جرّاح. بدأت أقاوم قيودي. تجاهلني تمامًا وغرز الإبرة في فوهة قِنّينة صغيرة بها محلول بُنّي شفاف. سحب منها مقدارًا بسيطًا ثم أخرج الإبرة وأطلق منها الهواء. عدتُ لأنظر من النافذة مرةً أخرى لعلّني أرى مَن يمكنه إنقاذي. أين أنت يا سليم؟

- عايزك تهدِي خالص، حتى لو حد عرف إنك هنا وجِه ينقذك، مستر جراي بتاعك خلّى الوصول ليكي مستحيل.

هذا صحيح. لقد كان فتح الباب المصفّح سهلًا من الداخل لكن كيف سيمكنهم فتحه من الخارج دون صوت سليم؟ ثم فوجئتُ بكمامةٍ توضع على فمي لتمنعني من الصراخ. أمالني حتى استقرّ ظهر الكرسي على الأرض. تململ عيسى في مكانه وأخذ يراقبه بفضول قبل أن يدرك ما يفعله بي. هبّ محاولًا منعه وأعاد الكرسي لوضعه السليم قائلًا:

- إنت وعدتني. مش هتضايق عايدة.

- مش هنذيها. بالعكس. أنا عايز أرحمها.

هكذا قال وهو يكرّرُ المحاولة ويُميل كرسيّ. تركه عيسى يفعلها لكنه انحنى ليحتضنني. أما أنا فقد كان انتباهي كله على الحقن الثلاث حتى كادت عيناي أن تتركا مقلتيهما من الرعب. ظللتُ أهمهم وأحاولُ أن أصرخ لأحذّر شقيقي دون أن تُمكّنني الكمامة من ذلك.

استدار الغريب، وبهدوء شديد خطا ناحية خَطْرًا التي منعتها العصابةُ أن ترى ما يحدث.

ذهبتْ معه أليس لكنها انتفضت هاربةً وهي تئنُّ وذيلها بين ساقيها حين انحنى ليحقن خَضْرَا بسرعة خاطفة بالمحلول. خرجَتْ من الأخيرة همهماتٌ مكتومةٌ وقاومت لثوانٍ قليلة، قبل أن تخور قُواها وتهمد حركتها تمامًا. تخشَّبتْ أطرافي والتصقت عيني بطرف نظري على جثة خَضْرَا الهامدة والتي جلس بجانبها قاتلُها على ركبتيه وغمغم:

- مسكينة. طول حياتها مَحدُش سامعها.

نظر عيسى إلى خَضْرَا لكنه لم يفهم ما حدث لها فالتفت إليَّ مرةً أخرى حين بدأت في الصراخ المكتوم. كنت أريدُ أن أصيحَ في وجه قاتل خَضْرَا أنني كنت أسمعها، كنت أفهم كل ما كانت توحي به وما كتمته في نفسها. وضع عيسى رأسي على فخذيه وأخذ يربّت عليه ليُهدِّئ من رَوْعي حتى جاءت أليس لتجلس بجواره. لكن هيهات، فقد تخطَّت حالتي الانهيار التام.

بنفس البرود القاتل ألقى الغريبُ بالحقنة التي استخدمها في السلَّة، قبل أن يعود ليأخذ حقنة نظيفة من الثلاثة المتبقية. سحب المحلول من قنِّينة أخرى والتفت إليَّ. صرختُ بكل ما أوتيت من قوة لكن صرختي لم تترك حنجرتي وبدأت قيودي تصيب معصميَّ بجراحٍ غائرة. صاح بي عيسى أن أهدأ وقد دمعت عيناه من شدة خوفه عليَّ، وهذا هو أقصى ما يمكن لمريض متلازمة داون أن يُعبِّر به. استكنتُ وأنا أراقبُ اقتراب القاتل منِّا. هَزَزْتُ رأسي وسالت دموعي أنهارًا.

نزل على ركبتيه وجلس بجوار عيسى:

- عيسى، مش عايز ترتاح؟

همهمتْ مرةً أخرى وهَزَزْتُ رأسي لأخي بكل ما أوتيتُ من قوةٍ وكل ما بي من ذعر كي يرفض ما يسمعه. فما كان منه سوى أن التفت إلى المايسترو دون أن يعرف بما يجيبه.

- مش حاسِس إنك... مختلف؟ مش حاسِس إن في حاجة هنا مش مظبوطة؟

قالها مشيرًا إلى رأس عيسى الذي أبعده عنه تلقائيًا. ازدادت همهماتي وحملت مع الذعر غضبًا لكن الغريب استطرد دون رحمة:

- مش حاسس إنك.. عبء على أختك؟ عبء على الدنيا؟

صرختُ أسفل كمامتي كي يرحمَ أخي. لكن في النهاية، بعد الصراع والنحيب والمقاومة التي لا طائل منها، استسلمتُ لعيسى الذي انكبَّ عليَّ واحتضني وهو يبكي:

- عايدة بتحبني. أنت كِدَه بتضايقها.

- لا مش أنا اللي بضايقها. وانت عارف كويس. أنت عارف هي كان ممكن حياتها تبقى عاملة ازّاي من غيرك. كان ممكن تتجوّز، كان ممكن يبقى عندها عيال. وأنت كمان..

سكت للحظةٍ ومسح بيده على شعر عيسى وانحنى عليه ليهمس:

- مفيش سبب يا عيسى. مفيش معنى للي انت فيه. واللي هي كمان فيه. كله ممكن ينتهي يا عيسى، في لحظة. كل التعب والحزن.

ابتعد عيسى عنه فأردف:

- الكون كله أصله ليل يا عيسى، والنهار دخيل عليه.

- بس عايدة نون (نور). وإنت ضلمة.

هبط الصمتُ ضيفًا ثقيلًا علينا وطال قبل أن يقطعه الغريبُ بعد جملة عيسى، فأدرتُ رأسي بصعوبةٍ لأراه بطرف عيني يتبادل مع شقيقي نظرةً طويلةً قبل أن يقول:

- إنت متأكد إنك مُعاق؟

ثم وضع المحفّن على الطاولة ومال على عيسى ليتكلم معه هامسًا. استمع له أخي لثوانٍ قبل أن يدير له رأسه ليجيبه بشيءٍ ما بدوره. شيءٌ ما كان له تأثيرٌ مخيفٌ على أكثر البشر جنونًا وشرًّا، شيء جعله يقوم بأغرب رد فعل رأيته في حياتي.

سليم

سوف أخبرك بما سيحدث أيها المقدّم منعم، بل سأكون معك لحظةً بلحظة. لكن لا بُدّ أن تسرع، فثوانٍ قليلة قد تكون فارقة بين الحياة والموت. لقد أخبرتني بعنوان زوجة الترزي، وضعت ثقتك بي وبخطتي المجنونة، فلتأخذ معي خطوةً أخرى وثِق في استنتاجي. فأنا لم أكن مع أبو المكارم خطوة بخطوة، لكني أستطيع أن أرى بعقلي ما كان منه وما سيكون.

لا بُدّ أنه قد انتظر في الجهة المقابلة حتى أظلمتِ العمارةُ وهدأتِ الحركةُ في الحارة. أكاد أراه وهو يرفع عينيه إلى طابقٍ بعينه، إلى شقةٍ بعينها، نافذة رفيعة تنفتح على شرفة متناهية الصِّغَر، في شقة متناهية الصغر، من حياة متناهية الصغر. يتحسّس ذلك المقصّ الحادّ في جيبه دون أن يعبأ بالجروح التي يتسبب فيها. توتُّره في قمته. يتلفّت حوله كي يتأكد من عدم ملاحظةِ أحدٍ له قبل أن يتجه إلى العمارة. يقترب من بابها، ليس هناك حارس، فهو قد ظلّ يراقبُ ويدقق ويخطط حتى يصبح وصوله لغايته دون مفاجآت.

أنا معك يا منعم، لا تقلق، فقط اجعل هذه المكالمة مفتوحةً بيننا، وسوف أرشدك. لماذا لم تأتِ بتعزيزات؟ أخبرتني أنك تنفذ ما أقوله على مسئوليتك الخاصة، هذا تصرف نبيل، لكن خُذ حذرَك. فأنت حمايتنا الوحيدة.

لنعود لأبو المكارم.

لا يوجد مصعد بالطبع، سبعة طوابق في سُلّم ضيق غير متقن وإضاءة باهتة. صحته الواهنة لا تحتمل، لكنه سيأخذ وقته. لن يضيء السلّم، يكفيه أن يرتاح بعد كل طابق. يسمع همسات الأبواب وخواطر الساكنين كالرعد في أذنه. الكل نائم الآن، أجساد فقط، إنما العقولُ والهمومُ لا تنام.

ينهضُ ليكمل طريقه، أمامه طابق واحد، استنفَدَ كل طاقته لكنه تحامل على نفسه حتى وقف أمام الباب. وضع أذنه وأنصت، هدوء بارد، لكنه يشعر بدفء أنفاس أبنائه. أخرج الإبرة من جيبه، رفيق حياته التي يعرف طريقه بها جيدًا في أي فتحة. يعالج بها الباب حتى يسمع اللسان ينسحب إلى جوف القُفل، كأن الباب نفسه يلوذ بالصمت وقد ألجمه هولُ ما هو قادم. يدفعه لتصبح الشقة له.

اهدأ يا منعم، أبطئ سرعة قيادتك قليلًا. لا نريدك أن تصبح ضحيةً لحادث سيارة وينقطع الأمل الوحيد لأسرة الترزي.

فهو الآن يقفُ في مدخل الشقة يسترِدّ أنفاسه وعزيمته، يستجمع يقينه الذي أعمته

الكراهية. غرفة نوم إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، بِمَن يبدأ؟ بالأمّ أم بأطفالها؟ أكثر من خانه في حياته قسوة. سيختار غرفةً وليكُن القدَر هو القاضي. خلع نعليه وسار فوق السجّادة البالية حتى باب الغرفة اليسرى ودفعه برفق، فتقع عيناه على ثلاثة أسِرَّة صغار الحجم.

تأمل أجساد أبنائه الثلاثة؛ هادي خمس سنوات، نورا سبع وعبد الله عشر. تقلّصت ملامحه وهو يصارعُ مشاعره، لكنه أخرج مقصّه الحادّ من جيبه بسرعة وضمَّ قبضته عليه في غضب.

لكن كيف يفعلها؟ لو بدأ بأحدهم لأيقظ صياحه الآخرين فهو ليس بالقوة التي تُمكنه من إنهاء الأمر بضربةٍ واحدة. ولو بدأ بالأمّ ستفعل نفس الشيء، يعرفها جيدًا، أنثى دُبٍّ بُنّي بَرّية.

إذًا هو الحل الثاني، الخطة الأساسية التي كان يخشى اللجوء إليها، الطريق الذي أرشده إليه عازف الأقدار منذ البداية، الخطة التي رسمها معه في قهوة الخمسة والعشرين. يضع المقص في جيبه ويتجه للمطبخ ليأتي بأنبوبة البوتاجاز. يُدحرجها بحَذَر كي لا يوقظ أهل البيت ويضعها في الصالة متناهية الصغر، بين الغرفتين.

قِف بسيارتك يا منعم في مدخل الحارة، فلا نعلم ما يمكن أن يقابلك من مُعوِّقات. اتركها وانطلق لثاني بناية على اليمين، الطابق السابع.

فهو هناك، يفتح محبس أنبوبة الغاز ليخرج منه هسيسٌ خافتٌ ويجلس أمامها، ينتقل بعينيه بين الأسِرَّة الثلاثة وفراش الأم. هذا هو الغاز ينطلق ليملأ الصالةَ وتنطلق معه دموعُه. يلتقط من جيبه قدّاحة ويضعها أمامه... وينتظر.

التقط أنفاسك، واهدأ. لا نريده أن يسمعك. قف أمام باب الشقة، أتشمُّ رائحة الغاز؟ تعلم الآن أن ما أقوله صحيح، تتلاشى شكوكك وتتّضح رؤيتك. ترى الآن حقيقة الموقف.

يتململ ابنه الكبير في فراشه فيستعدُّ بالقدّاحة، الولّاعة التي كان يستخدمها في حرق النيكوتين والتي سيستخدمها الآن لحرق من حرق قلبه. سيستخدمها لحرق كل شيء. لحظات أخرى وتصبح الشقة قنبلة.

القرار لك الآن يا منعم، فأنا قد قمتُ بدوري وتخيّلتُ ما حدث وما يحدث بأقصى طاقةٍ لعقلي. جمعت الأدلّة والملابسات حتى خلقت تصورًا لما ينتويه صاحب المانيكان. "سعاد"، الدُّمْية الخشبيّة التي حذّرتني دون أن تنطق. أخبرتني به بكل دقّة عندما كانت أمام البوتجاز في مطبخي، تشير لأنبوبة الغاز. وحين لم أسمعها أحرقت نفسها كي أفهم.

تدرك تمامًا أنك لو اقتحمت الشقة سيكون أمامك مساحة ضئيلة جدًا من الوقت للتصرف، ربما لحركة واحدة، هكذا تستنتج بخبرتك الطويلة، وهو ما أؤيدك فيه.

اضبط تنفُّسك وصفِّ ذهنك، واسمح لي أن أخبرك بخياراتك.

فإما أن تنقضَّ عليه وتحاول اقتناص الولَّاعة منه.

أو تتجه على الفور إلى إحدى الغرفتين، وتغلق بابها.

لكني أعلم مقدمًا ماذا ستختار.

"سليم، قول لزوجتي..."

أستمع إليك للحظةٍ، لكنك لم تكمل جملتك، فأنت تعلم أنني أعلم ما تريد قوله.

شكَّتْ للحظةٍ استيقظَت بعدها الحارةُ النائمةُ وارتجَّت بنيران الانتقام.

دعني أغمض عيني بعد أن انقطع بيننا الاتصال، في لحظة الانفجار، فهي أقوى مما أصبحت أحتمل، بعد أن زال عني درعي وتخلَّت عني مُهدِّئاتي. دعني أرسل إليك يا منعم رسالةً أخيرة، لك وحدك، فلن يصدقني أحدٌ غيرك. فأنت قد عبرت، أنت الآن ترى أفضل منَّا جميعًا. ولهذا فالتفسير الذي سأقوله لك الآن لن تراه خبالًا.

أعلم السبب في تصديقك لحكايتي العجيبة، السبب في إيمانك بي والمجازفة التي أخذتها. في أعماق نفسك أدركت أن الجدران قد سمعت ندم الأخت القاتلة ونقلته لي، حرفًا حرفًا. أنا وأنت ندرك حقيقة ما يحدث الآن، التفسير الوحيد لما يحدث، وهو ما يمكنني أن أؤكد لك أنه ليس في مصر فقط، بل في العالم أجمع. حقيقة قاسية مهما كان بها من الجنون.

أنت الآن تعلم أن الأحزان التي ملأت الدنيا قد صارت من القوة، صارت من القسوة والوحشية، أن أنطَقتِ الحجرَ وحرَّكتِ الدُّمَى. فالمانيكان قد ظلت بجانب الترزي في وحدته، تنهل من حزنه وتستمع لمخططاته الجنونية، حتى امتلأت بها، وأتت إليَّ لأسمعها. والميكروفون كان يبيت ليلةً بعد ليلة، يستمع فيها لهموم الناس، ثم أنقذني من حادث المحطة. وقصة جهاز التنفُّس، لا تحتاج تفسيرًا، فقد لازمَ أخي شهورًا وسنينَ من الألم، الجهاز الذي امتلأ بآهاته حتى نضح بها، وحاول تنبيهنا لما كان يحدث لضحايا الحريق.

أما لماذا اختارتني كل هذه الأشياء لتكلمني، لماذا أنقذتني ومن العدم انتشلتني، لماذا جعلتني أشعر من جديد، فهو شيء لا أراه بعد.

ولعلّك من مكانك الآن، بعد أن زال عنك غطاؤك ونظرت خلف الستار، لعلّك تُخبرني...

أين ذهب أخي.

حازم

تبادلتُ مع زميلي الذي حلّ مكاني في جهاز المشروعات نظرةً طويلةً حاولتُ فيها الاحتفاظ بابتسامتي. لكنه سألني متشككًا:

- مش فاهم إنت عايز أيه يا حازم. ليه بتسأل على العملية دي بالذات؟

- جرى أيه يا طارق؟ عادي يا أخي، شغلي وبتطمّن عليه. أصلي لما أرجع عايز الدنيا تبقى مظبوطة. مش قصدي طبعًا أشكّك في قدراتك بس أنا عارف إنك لسّه منقول ومعندكش فكرة عن التاريخ بتاع العمليات.

- لما ترجع؟ ومين قالّك إنك راجع؟ مَحدّش قالي إني وضعي مؤقت.

أسقط في يدي وجاهدت كي أحتفظ بهدوئي؛ فحياةُ أمي كانت تعتمد على عودتي لمكاني دون جلبة:

- أكيد يا طارق. ما إنت عارف أنا اتنقلت مؤقتًا مع منعم علشان حكاية محطة مصر دي. وأكيد هرجَع تاني.

- أكيد؟ عرفت منين الكلام ده؟

هرشتُ في مُؤخّرة رأسي وبدأت أتململُ من عناد طارق، ليتني رتّبت سيناريو هذا اللقاء ولم أتسرع في المجيء، لكنني زدتُ من ابتسامتي عرضًا، ابتسامة صفراء تكشف عن أنيابي، وقلتُ من بين أسناني:

- مَحدّش قالّي. يمكن منعم لمّح لي بينه وبيني. بس يا سيدي ولا يهمّك، لو مش عايز تقول بلاش، قولّي بس هي لسّه شغالة ولا رِسيت على حد؟

دون أن يرمش له جفن راقبني طارق لثوانٍ طويلة قبل أن يأخذ نَفَسًا عميقًا ويرجع ليستند بظهره على كُرسيه ويقول:

- تقريبًا، الخطا رِسِي على شركة وبنجهّز العقود.

تصلبت عضلاتي تلقائيًا وشعرت أن الدم قد صعد إلى وجهي. أحاولُ الحفاظ على رَباطَة جأشي وأن أُبقِي ملامحي جامدة. قطّب طارق حاجبيه بعد أن عاد إليه الشك.

- حازم، فيه أيه؟ الكلام اللي سمعته وسؤالك ده بصراحة...

لم أستطع أن أعلق بعد أن انهالت على مُخيّلتي سيناريوهات مخيفة. ثم جاء وجهُ أُمي

وفوّهة مسدس الغاياتي لأهبّ واقفًا. استغللتُ شعوري بالخوف عليها وعلى كل ما بنيته لأجعل أدائي صادقًا.

- كلام أيه؟ فيه اتهام واضح؟ فيه دليل على حاجة؟ ولّا هي إشاعات بتطلّعوها عليّا وخلاص؟

هرب الدم من وجه طارق بعد أن رأى هجوم زميله العملاق وتراجع قائلًا:

- ده مش كلامي.. خلاص ما تزعلش. كل اللي قصدي إن...

لم يكمل طارق جملته لأن هناك مَن اقتحمَ الغرفة. التفتنا لنجد حِجّي بالباب والصدمة متجلية على وجهه المثلث الرفيع بأعتى صورها.

- حازم... كنت عارف إني هلاقيك هنا. فيه حاجة حصلت لمنعم يا حازم.

telegram: @alanbyawardmsr

انقلبت الدنيا في حَيّ عين شمس. نقلت سيارات إسعاف أبناء أبو المكارم للمستشفى بعد أن أُصيبوا بحروق وجروح جرّاء انفجار أنبوبة الغاز، لكنهم سينجون. تُوفّيت الأم التي كانت سيئة الحظ ولم يتمكّن منعم من إغلاق باب غرفتها كما فعل مع غرفة أبنائها. بينما لم يبقَ في زوجها المجنون شيءٌ يُذكر. انهارت الأرضية ليُصاب جيرانهم في الطابق الأسفل وتعرض المبنى بأكمله لصدمة سوف تؤدي إلى انهياره قريبًا. أما من قام باقتحام الشقة والقفز كالنِّمر ليغلق الباب على الأطفال فقد مات شهيدًا.

في وسط هذه الأحداث، وقفت أنا مذهولًا. كان يجب أن أكون أنا مَن يرقد أسفل تلك الملاءة الملطّخة بالدماء والتي يتصاعد منها الدخان، وليس منعم. لم أُنصِت لسليم ولم أُعطِ لتهديده أهمية، وهذا هو الثمن.

ما الذي فعلته؟ كيف كنت أنانيًا لهذه الدرجة؟ مَنْ أيضًا سيموت بسببي؟

راقبتُهم وهم يصعدون بجثمان منعم لسيارة الإسعاف، لم أقوَ على الاقتراب منه ولا توديعه.

لا لست أنانيًا فقط، بل خائن.

اسودّت الدنيا أمامي. يجب أن أعترف بكل شيء، لَعلّي أنقذُ أُمّي وما تبقّى لي من كبرياء وشرف. صعدت وسط طوفان البشر معزولًا تمامًا عما يحدث حولي حتى بلغت الطابق السابع. تجاهلت تحذيرات رجال الإطفاء والدفاع المدني بأن المكان ليس آمنًا ودخلت مسرح الجريمة. لم يتبقَّ فيه الكثير بعد أن انهار معظمه، لكنني شعرت أنه يجب عليّ أن أرى تفاصيله، أن أحفظها عن ظهر قلب، فهي ستكون وقودي للرحلة القادمة.

هكذا عقدتُ العزم وأنا أنحني لالتقطَ نجومَ أكتافِ منعم التي تفحّمت.

كيف سأواجه زوجته؟ كيف سأخبرها أنه مات بدلًا مني؟

ثم انتبهت لمشهدٍ شعرتُ أنه تكرّر أمامي قبلها: حِجّي واضعًا يده في وسطه وهو يدقق النظر في ذلك الخيال المحترق على الحائط الذي كان يحتوي على باب غرفة الأطفال، في منتصفه تمامًا.

خيالٌ لجناحين عملاقين تركا مكانًا خاويًا من السواد بعد الانفجار.

نظرت مرةً أخرى للنجوم التي كدتُ أن أسحقها بين أصابعي.

يا عازف الأقدار، سأكون أنا مَن يقتلك، ولو كان آخر شيء أفعله في حياتي.

سليم

وبينما كانت المديرية كخليّة النحلِ منذ انتشار خبر وفاة المقدم منعم، كنت جالسًا بين مساعد الوزير والعميد الشناوي، صامتًا، شاردًا، أفكر في منعم، رحمه الله، وفيما قاله، الخيط الذي تركه لي دون أن يشعر.

بيقتل الغلابة والمساكين.

لو كان ما استنتجه صحيحًا فإن هذا لقاتلٌ ذُو فلسفة مخيفة.

انتبهت إلى جليسيّ لأجدهما يحدجانني بنظراتٍ خارقةٍ للدروع، يحاولان سبر أغواري. ظلّ شرودي عائقًا بيننا، ولم تُزِدهم ثقتي المفرطةُ في نفسي وفي براءتي إلّا شكًّا فيّ.

- يعني مش عايز تقول عرفت منين حكاية الترزي، عرفت منين خطته؟

لم أُجِب العميد الشناوي. وكيف أفعل، وبِمَ أجيبُ وأنا نفسي لا زلتُ أحاول استيعاب التفسير الذي وصلتُ إليه؟ وظلت كلمة حِجّي هذا ترنُّ في ذهني: *نصيحة يا دكتور، خلّي الحاجات اللي دبّت فيها الحياة لوحدها دي ليك إنت. مَحدّش هنا هيفهمك.*

هنا ضرب الشناوي بكفّه الضخمة على الطّاولَة الصغيرة التي تفصلُه عني، وصاح بصوته الجهور:

- انطِقْ!! أقول لزوجة منعم أيه؟؟ قتلته ليه؟؟

احتفظ مساعد الوزير بهدوءٍ يُحسَد عليه وبادرَهُ قائلًا:

- استنّى يا شناوي. دكتور سليم، هل إحنا محتاجين نقولّك وضعك أيه؟ هل أنا محتاج أقولك كَمّ الاتهامات اللي كلها بتشير إليك؟

- لأ مش محتاجين. أنا عارف تمامًا إن كل الملابسات بتحُطّني أنا في دايرة الاتهام. بس للأسف معنديش تفسير أقدر أقوله لسيادتك. يمكن...

مال العميد الشناوي عليّ بجسده الممتلئ الضخم وقال:

- يمكن أيه؟ اعترف. إنت المايسترو، مش كده؟ والترزي المساعد بتاعك.

حان مني شبحُ ابتسامةٍ فصرخ الشناوي:

- شوف ابن الـ...

ضيّق مساعد الوزير عينيه وأشار للشناوي أن يتركني أتكلم دون ضغط. ثم دق هاتفه

ليخفف عني الضغط.

- ألو، أيوه يا ربيع.

استمع مساعد الوزير بكل تركيز لما يقوله العميد ربيع بينما شردتُ أنا في هذا "المايسترو". هل كان هو أبو المكارم؟ هل كانت تلك جريمته الأخيرة؟ شيء ما يخبرني بعكس ذلك، يخبرني أن هناك كارثةً أكبر في الطريق، معزوفة أخيرة يختتم بها حياته "الفنيّة"، كما قال منعم. وحتمًا سيسعى أن يسمعها العالم كله. ولو كان هو أبو المكارم، فكيف سينهيها الآن بعد أن تلاشى من الوجود؟

كلّا. إن عازف الأقدار خرّ طليق.

هنا تحوّل قلقي لجهةٍ أخرى، تُرى، هل عايدة بعيدة عن متناول يده؟ ولماذا جئتُ بها إلى شقتي من الأساس؟ أكي أوفرّ لها الأمان كما أخبرتها أم لأضع شقيقها ودفتر ناعوت تحت الاختبار؟ هل أنا على استعداد أن أضحّي بأي شيء كي أصل إلى إجابةٍ أهمّ سؤالٍ في حياتي؟ هل حقًّا اقتربت منها كما أظن؟

تصرخ حولي المحاذير وتتراقص الأدلّة.

ثم انتبهت لمساعد الوزير الذي أنهى المكالمة ونهض ليرتدي سترته قائلًا:

- هنعرف دلوقت يا دكتور لو كنت إنت فعلًا المايسترو ولّا لأ.

***

عند غرفة الاجتماعات الكبيرة وقفتُ ببابها للحظةٍ، أنظر إلى تلك العجوز الجالسة بالمائدة الطويلة. رَفعتِ المرأةُ رأسَها، كأنها شعرت بي، وحركته يمينًا، جهة الباب. راقب مساعد الوزير الموقف للحظةٍ قبل أن يشير للأمين أن يُدخلني الغرفة، لكن قبل أن ينفذ الأمر رجّت الرَّدهةَ صيحةٌ هادرة:

- سلييييم!!!

جفل جميعُ من بالممرّ الطويلِ وخرج بعضُهم من مكاتبهم إثر سماع هذه الصيحة، ليجدوا حازم ينطلق كالصاروخ من المصعد، مباشرةً إليّ. تراجع الأمين مذعورًا وتسمّر الجميع على أبواب غرفهم بينما تحفّزتُ للقاءٍ لم أظنه سيكون مسالمًا. لم ينجح أحد في الوقوف أمام حازم إلا مساعد الوزير الذي خرج من غرفة الاجتماعات ليقف بينه وبيني.

- حازم! ثابت!

هكذا أمره فيتوقف حازم مثل سيارة نقل عملاقة ضُغطت مكابحها في آخر لحظة، ويضمُّ قبضتيه بقوةٍ وهو يصرخ:

- سيادتك سيبهولي. لو تسمح سيادتك! ده قتل منعم سيادتك، صديق عمري، أشرف وأشجع ظابط عرفته.

- منعم مات علشان أنت مسمعتش الكلام!

هكذا قلتها في تحدٍّ فضرب حازم الباب بقدمه بعنف ولكمه بكل قوته ليتسبَّب في انبعاجٍ واضحٍ ثم تقدم إليَّ، لكن مساعد الوزير تدخَّل قائلًا:

- مَحدّش بيموت مكان حَدّ يا دكتور. اهدأ وادخل يا حازم.

هكذا قالها مساعد الوزير ليَعضَّ حازم على شفتيه وتتلألأ عيناه بدموع الغضب وهو يحدِّقُ في وجهي. أشار مساعد الوزير له أن يدخل الغرفة، ففعلها على مضضٍ وهو يكاد يحرقني بنظراته.

***

بعد أن استقرَّ الموقف في غرفة الاجتماعات قال مساعد الوزير:

- دكتور سليم، ممكن تقرَّب وشَّك من الست دي؟

ترددتُ للحظةٍ قبل أن أدور حول العجوز لأجد عينين بيضاوين تطلَّان من وجهٍ مليءٍ بالتجاعيد والدموع الجافة، ففهمت على الفور. اقتربتُ منها وانحنيتُ عليها لأسمح لها بتمرير أناملها فوق ملامحي، قبل أن ترفعها وتربِّت على وجهي في حنان.

- مالك يابني؟ حزين ليه كده؟

تبادلت مع مساعد الوزير نظرةً خاطفةً قبل أن أعتدل واقفًا بملامح جامدة. أنا لست حزينًا يا هذه، قلتها لعايدة قبل هذا وسأصرخُ بها في وجه العالم كله.

هنا قال العميد الشناوي:

- هو ده الراجل اللي بتقولي عليه؟

هزت المرأة رأسها بالنفي ومنعت نفسها من البكاء بصعوبةٍ وهي تقول:

- نفس الحزن، لكن التاني كان عايز يحرَق العالم. أيْنَعم كان بيحنّ عليًّا، بس كنت بشعر إنه بيحاول يعوِّض ذنوبه. وده...

ربّتت على ساقيّ فافترّتْ شفتي عن ابتسامةٍ لم تكتمل قبل أن تردف:

- وده عايز يفهم يا كبدي، محتار، تايه... يتيم.

ابتلعتُ غُصّةً كانت عالقةً في حلقي قبل أن يزمجر حازم قائلًا:

- ده مش دليل سيادتك. مش هنستند على شهادة واحدة...

- حازم!! كفاية.

هكذا هتف مساعد الوزير قبل أن يلتفت إلى العجوز التي استمرّت وكأنها تكلم نفسها، تنظر إلى مكاني لكن لا تراني:

- التاني خَبَط على بابي في يوم، وقالّي إنه سمع صوت البيانو، مع إن آخر مرة عزفت عليه لما كان عندي نظر. لقاني لوحدي، ولادي رموني، نسيوني. قالّي إنه هيعوضني عنهم، وإنهم هيلاقوا جزاؤهم. قلت له المثل بيقول: "أدعي على ابني وأكره اللي يقول آمين". بس هو راح وعمل فيهم...

اختنقت كلماتُها وسالت دموعُها في صمت وكذلك سكت الجميع، حتى حازم. هنا أشار مساعد الوزير للأمين أن يأخذ بيدها ويقتادها لمكتب العميد الشناوي؛ لاستكمال أقوالها والاستعانة بها في رسم صورة تقريبية لملامح المايسترو. بعد أن خرجوا التفت مساعد الوزير لي قائلًا:

- كُلّي آذان صاغية.

ترددتُ للحظةٍ ونقلتُ بصري بين مُحدّثي وبين حازم، قبل أن أحسم قراري وأقول:

- أنا عارف المايسترو فين دلوقتي.

***

في مكتب مساعد الوزير كنا نستمع معًا للحوار الذي دار همسًا عبر جهاز اللاسلكي بين حازم والعميد الشناوي. سمحوا لي بالاستماع فقط لأن باب شقتي لا ينفتح إلا بصوتي، وحين يكون حازم أمامه سآمَرُه أن ينفتح له. خُطّة عقيمة، لكنهم لم يَكُن ليسمحوا لي بالذهاب معه، ليس بعد أن أخبرتهم بمحاولة المايسترو لاقتحام شقة عايدة ولا بُدّ أنه الآن يحوم حول شقتي. كان لهم عذرُهم، فلو كنتُ مكانهم لشككتُ بكل ما أفعله وأقوله.

خرج أزيزٌ استاتيكيٌ من الجهاز ثم صوت حازم هامسًا: "السيد 3 ميم، الإفادة عن قوة الإشارة".

أزيز ثم صوت الشناوي: "أسمعك بوضوح، ابدأ".

حازم: "إحنا في المركز صفر. الجهاز أمام الباب. جاهز لتلقّي الأمر بصوت الدكتور".

أشار لي مساعد الوزير فأمسكت الجهاز الذي أصدر أزيزه الاستاتيكي، وضغطتُ على زر الإرسال قبل أن أتنحنح لأقول: "آرثر كونان دويل".

تفاديت نظرة مساعد الوزير التي أعطاني إياها وهو يمطّ شفتيه متعجبًا. تلا ذلك صمتٌ مُطبِق قبل أن يقطعه صوت العميد الشناوي: "حازم، الباب فتح ولّا لأ؟".

جاء همس حازم: "مَفتَحش يا فندم. أطلب الإذن بالاقتحام".

الشناوي: "خلّيك مكانك يا حازم، انتظر الدعم".

- قلتلكم إنه مش هينفع.

هكذا قلت لمساعد الوزير الذي رمقني بنظرةٍ حياديةٍ ولم يعلّق. استمرّ الحوار الخارج من الجهاز:

حازم: "استعجال، استعجال. أنا سامع صوت صريخ مكتوم جوّه".

الشناوي: "لحظات يا حازم. الزَم مكانك. مفيش تغطية".

حازم: "سيادتك إحنا بقالنا عشر دقايق على السلم، كان زمانّا اقتحمنا".

الشناوي: "نفّذ التعليمات ومتخاطرش بالمجموعة".

حازم: "مفيش وقت يا فندم هقتحم على مسئوليتي".

جاء صوته مشحونًا بالغضب، شعرتُ أنه على وشك الانفجار.

الشناوي: "هتدخل إزاي؟ استنّى لما مجموعة تلاتة تطلع بالرام علشان يكسروا الباب".

لم يُجِبه حازم وبعد ثوانٍ من الصمت المثير للأعصاب سمعنا دقّة قوية ثم الأزيز الاستاتيكي، وبعده جاء صوت الشناوي مرةً أخرى:

"حازم! أيه اللي بيحصل عندك؟ أيه الصوت ده؟؟".

صمت بعده صوت حازم همسًا: "تم الاقتحام وجاري المسح".

ما كان منّي سوى أن همست لمساعد الوزير:

- دخلوا إزاي؟

الشناوي: "ماشي يا حازم. مجموعة التغطية، مكانك فين؟".

أزيز استاتيكي ثم صوت مختلف: "تمام وصول وتغطية".

الشناوي: "الإفادة عن الموقف، شايف حازم من عندك؟".

قائد الدعم: "تمام ومفيش تعامل مع مجموعة الاقتحام. جميع المنافذ تحت السيطرة".

الشناوي: "الوضع أيه يا حازم؟ قادر تحدد مكان الدخيل؟".

- دخلوا ازاي؟

لم أستطع أن أمنع نفسي من تكرار هذا السؤال فزجرني مساعدُ الوزير بنظرةٍ حادّة، ومدَّ يدَه ليغلق الإرسال ويمنع صوتنا من أن ينتقل إلى باقي عناصر العملية.

الشناوي: "على مهلك يا حازم إنت ورجّالتك ومشّط الشقة واديني تمام أول بأول".

لحظات صمت طويلة تخيّلت فيها عناصر الاقتحام وهم ينتقلون من غرفةٍ إلى أخرى، وفوّهات بنادقهم تسبقهم وأنوار الكشّافات تتراقص على الحوائط والأبواب. خرج الأزيز من الجهاز ثم جاء صوتُ حازم الهامس ليؤكّد ظنوني:

"الطُرقة اليمين، تمام. المطبخ، تمام. الحمّام، تمام. غرفة النوم الرئيسية، تمام. كل الغرف حتى الآن تمام.... جاري البحث عن عايدة وأخوها".

ثم تخيّلتهم وقد توقفوا أمام الغرفة المغلقة وسددوا أسلحتهم إلى بابها. تصاعدت ضرباتُ قلبي وأنا أتخيّلهم يقتربون من بابها الموصد بإحكام فتسقط أشعّة الكشافات عليه. انتظرت أن يقتحموا الغرفة لكن لسببٍ ما هذا لم يحدث، بل لم يذكروها من الأساس.

كيف لم يَرَوْها؟

الشناوي: "هل تم العثور على مصدر الصريخ المكتوم؟".

حازم: "تمام. لقينا سيدتين وشاب في الصالة. واحدة منهم مربوطة سيادتك".

الشناوي: "إفادة عن الدخيل".

لحظةُ صمتٍ رمقني فيها مساعد الوزير بنظرة شك. هَزَزْتُ له كتفي بلا معنى، فقد كان عقلي يعمل بكل طاقته. تمنيت بكل وجداني أن يكونوا على قيد الحياة، فلم يَكُن لديَّ دفاع آخر، ولو كان المايسترو قد أنهى ما بدأه في محطة مصر وقتل عايدة فلن يصبح لديَّ ما يُنجيني من حبل المشنقة.

"متخافيش. أنا أهوه. أنا أهوه".

كان صوت حازم الهامس. تنفَّست الصُعدَاء، هم أحياء إذًا. لكن، صوته، نبرته كانت مختنقة. صورة ارتسمت في ذهني، مشهد لحازم الذي انكبَّ بجسده العملاق ليحتوي عايدة وعيسى، يعطيهم الأمان الذي فشلت أنا أن أمدّهم به. الصمت الذي خرج من الجهاز يوحي إليّ أن أفراد الفرقة يقفون الآن في سكون، يراقبون المشهد مشدوهين من ذلك الضابط صعب المِراس، الذي كان وحشًا هائجًا قبلها بثوانٍ وهو يذوب بين ذراعي امرأةٍ رآها لتوّه.

بدلًا مني.

تسلَّل شيءٌ إلى قلبي، شعور جديد عليّ، شعور مخيف تسلق صاعدًا حتى كاد أن يخنقني. غَيرَة؟

نفضت الفكرة والمشهد من ذهني، حين صرخَت أسئلةٌ أخرى، أين المايسترو؟ ولماذا لم يقتحموا الغرفة المغلقة؟ سمعنا صياح حازم:

"أمّنوا المكان، عايز تقرير حالًا. واحدة لسّه على قيد الحياة سيادتك. والتانية..."

الشناوي: "التانية أيه؟ انطق!".

حازم: "للأسف لا".

سقط قلبي في قدمي مرةً أخرى. مَن التي ماتت؟

"الشغّالة هي اللي ماتت".

تنفَّستُ الصُعدَاء مرةً أخرى قبل أن أنتبه إلى مساعد الوزير الذي استاء من رد فعلي هذا، قبل أن يضغط زِرّ التحدُّث ليقول: "والشاب، أخو عايدة؟".

حازم: "عايش سيادتك...".

قاطعه صياخ قائدِ الدعم: "حازم! خلّي بالك!... فيه حد واقف وراك".

سمعنا بعدها أصواتًا متباينةً قبل أن يأتي صوتُ قائد الدعم: "عند الحيطة شمال المدخل".

يا إلهي. إن المايسترو يقف أمام الغرفة المغلقة. هل دخلها؟؟

الشناوي: "حازم، شايف اللي بيقول عليه ده؟".

لحظةُ صمتٍ ثم همس حازم: "تمام سيادتك. شخص واقف مش بيتحرّك سيادتك. باصص

للحيطة".

الشناوي: "تعامل مع الهدف بحذر يا حازم ويتم القبض والإخطار".

والغرفة المغلقة، لماذا لا يذكُرها أحد؟

حبستُ أنفاسي من فرط الإثارة ولم أنطق بتساؤلاتي تلك، لكني كنتُ موقنًا أن هناك شيئًا في هذا المشهد الذي ينتقل إلينا عبر الجهاز ليس كما يبدو. شيءٌ ما يحدثُ هناك لا يدركه حازم وفرقته. نظرتُ لمساعد الوزير فوجدت التوتر جليًا على وجهه قبل أن يصدر الأزيز الاستاتيكي ثم صياح حازم:

"ثابت محلّك!".

هذا غير مفهوم. لماذا لم يغادر؟ كيف سمح لهم بالقبض عليه؟

لحظة صمت ثم أصدر الجهاز أزيزه قبل أن نسمع صوت حازم:

"ارقُد مكانك بقولّك!".

صوتُ حركةٍ تصاعدت معها نبضاتُ قلبي حتى كاد يقفزُ من صدري، حركة شعرت معها أن حازم قد اشتبك مع المايسترو.

ثوانٍ طويلةً احتبست فيها أنفاس كل مَن يستمع للنقل الحي للأحداث تلاها صوت حازم:

"ده... تمثال".

الشناوي محتقنًا: "تمثال؟ فين المايسترو؟".

أزيز ثم صوت حازم الهادئ:

"مش موجود سيادتك. ده مانيكان، مانيكان محروقة".

صمت حازم للحظةٍ قبل أن يُردف:

"مانيكان لابسة فستان أزرق".

***

أغلق مساعد الوزير الجهاز وضم أصابعه أمام شفتيه المزمومة وهو يُحدّق بي. أعلم أن وضعي لم يتحسن، أتمنى أن تفيدني شهادةُ كُلٍّ من عايدة وعيسى ونهلة. لكن كيف اقتحم حازم الشقة ببابها المُصفَّح؟ وما الذي منعهم من اقتحام الغرفة المغلقة؟ وأين أليس؟

أرجأتُ التفكير في هذه التساؤلات، وشعرتُ أن مساعد الوزير قد فعل نفس الشيء، فقد انتهى هذا المشهد المثير بسؤالٍ أخطر من كل ما سبق. لقد تركهم المايسترو أحياء، ترك عيسى وعايدة والعجوز العمياء، ترك شهودًا يمكنهم وصفه، ولو بأقلّ الرتوش، لماذا؟ ما الذي يُخطّط له؟

ما هي سيمفونيته الأخيرة؟

وقبل نهاية اليوم كان في غرفة مساعد الوزير أكبرُ خيط تركه لنا: "دفتر ناعوت". تم وضعه في صندوق زجاجي، كأنه قطعةٌ أثريّةٌ معروضة في متحف وقد فُتح على صفحة بعينها مكتوب فيها، بخط عازف الأقدار:

يأتيك القدَر ببشرى أن موعدك بعد حين

بعد لحظة، بعد يومٍ أو بضعِ من السنين

لكني سأرحفك من الحيرة، من جحيم الاختيار

سآخُذ بيدك إلى الجنّة، وأذهب بنفسي... إلى النار

توقَّف بسيارته في مكانها المعتاد أمام عمارة العجوز. جلس خلف المقوِد دقائق طويلة، عابسًا، لا يُخيفه ما سمعه من الغاياتي عن مقتل منعم الكاشف، ولا عن الدنيا التي انقلبت بسببه وعدد أعدائه الذي تضاعف، فكُلُّ هذا يسير في الاتجاه الذي يريده.

لكن بعد ما حدث بينه وبين ذلك الشاب المريض بمتلازمة داون، فقد بدأ مخزونه من الحكمة يتحول تدريجيًا إلى غضبٍ يتضاعفُ كُلَّ لحظةٍ حتى صار بركانًا محبوسًا أسفل طبقة هشَّة من الصبر. وحين ينفدُ مخزونُه من هذه الحكمة وهذا الصبر سينفجر ليذيب كل ما يقابله في طريقه. لا بُدَّ أن يسرع؛ لأنه يَعِي أن ما كان ينتظرُ قدومَه بفارغ الصبر قد بات قاب قوسين أو أدنى. يعني أن العدَّ التنازُليَّ قد بدأ.

ترجَّل وأغلق باب سيارته بهدوء قبل أن يدلف من باب العمارة ومنه إلى البدروم مباشرةً. لم يأبه بمسح المنطقة كعادته، لقد تفادى الشرطة وخدع الجميع بما يكفي على مدار السنين دون أن يترك وراءه أثرًا. لكن فليَرهُ الآن مَن يراه، فما هو قادم لن يستطيعَ أحدٌ أن يوقفه. ما هو قادمٌ هو الفصل الأخير، ولم يعُد يهمه سوى أن تصل أنغام رسالته للعالم كله.

دخل الشقة وترك بابها مفتوحًا ثم توجه مباشرةً إلى غرفته التي يقع بابها بجوار البيانو القديم. أخرج حقيبةً سوداءَ كبيرةً ووضعها أمام باب الشقة، قبل أن يتوقف ويستدير لينظر إلى غرفة العجوز. لماذا لم تُنادِهِ لترحب به كعادتها؟

تقدم ليحدِّق في محتواها. هل من الممكن أن تكون...؟

ذهب إليها وأضاء نور غرفتها. نظرة سريعة إلى الدولاب المفتوح الفارغ وأخرى إلى الممر الذي يقود إلى الغرفة الداخلية، غرفة التعذيب، التي وجد بابها مفتوحًا هو الآخر، كل هذا جعله يبتسم.

كم أنتِ فَطِنةٌ يا أمِّي! فلتنعمي بحريَّتك ولتهنئي بابنك، فهو الآن طاهرٌ كما وَلَدتِه.

استدار بعدها ليلتقط الحقيبة وينظر للشقة مرةً أخيرة، بيت الناجية الوحيدة من موسيقا العقاب، قبل أن يرحل إلى حيث يبدأ في عزف السيمفونية الختامية.

***

لسعةُ بردٍ خفيفةٌ بدأت تفرضُ نفسها بعد منتصف الليل. من بعيدٍ تقترب السيارة الفيات البيضاء من قصرٍ هائلٍ على أطراف القاهرة. أسوار عالية وكلاب مُدرَّبة يمسك لجامَها رجالٌ لا يعرفون الرحمة. لا يوجد حولها عمران، فقط أراضٍ خاوية وبنايات غير مكتملة مثل هياكل

عظمية لأفيال عملاقة ماتت واقفة. يعلم جيدًا أن نسبة خروجه حيًا من هذا القصر تتناسب طرديًا مع ثقل العرض الذي جاء به، وقيمته.

توقف بسيارته أمام البوّابة الخشبية العريضة وتأملها ببرود وهي تنفتح ببطء ليظهر من ورائها الحديقة الهائلة. وضع يديه على المقود بحيث يراها الحرّاس، فهو يعرف القواعد، يعرف أنه فقديم على أكبر تحدٍ في حياته. لكنه شرٌ لا بُدّ منه، شيطان آخر لا بُدّ أن يتحالف معه. لا، بل هو أكبر شيطان قابله.

اقترب منه العملاق وانحنى لينظر داخل السيارة. هيئة الزائر وعمره لا يوحيان بالخطر. دار حولها بالكلب المدرّب قبلَ أن يشير لزملائه عند البوابة كي يسمحوا للزائر بالدخول.

تقدم بسيارته عبر نفقٍ طويلٍ من نباتات متسلقة تُخفي الحديقة خلفها تمامًا قبل أن يستقر في نهايته. مسافةٌ لا بأس بها لا تزال تفصله عن القصر الهائل، لكنها التعليمات. المزيد من العمالقة. فتح له أحد الحراس باب السيارة لكنه ظلّ في حالة تركيزٍ شديدة، يبحث عن شيءٍ ما. هناك صوت خافت، نداء يأتيه من مكانٍ لا يستطيع تحديده. زجره الحارس كي ينتبه إليه فرماه بنظرةٍ جعلت الدم يهرب منه.

- يا هلا بالرجل الغامض.

صرف بصره إلى قائل تلك الجملة ليجد الفاياتي يهلّ عليه من داخل الحديقة برأسه الحليق الذي تنعكس عليه الأنوار، ووجهه الطفولي كثير الندبات وجسده المكتنز باللحم والعضلات. أطفأ المحرك والتقط شيئًا من فوق الكرسي بجواره. كالبرق أمسك الحارس بيده بقوة وأدار كفّه كي يرى ما الذي أمسك به: زجاجة عطر. تشقم عطرها، رخيص لكن لا ضير. سحب المايسترو يده ووضع الكثير من العطر ثم نزل من السيارة ليجول بنظره في المكان. اقترب منه الفاياتي حتى صار ملاصقًا له وهمس:

- أرجو إن الموضوع يكون يستاهل وإلّا رقبتي ورقبتك هيطيروا.

- يستاهل.

قالها المايسترو قبل أن يلتفت لينظر في عمق الحديقة، بالتحديد إلى البرجولة الخشبية الأنيقة التي تكتنفها النباتات وتحيط بها الشّجيرات المزهرة. هناك يجلس صاحب القصر.

- طيب تعال علشان تقابل الـ "boss".

تراقص شبح ابتسامة على وجه المايسترو بعد كلمة "boss". الأوسي، أصعب رجل يمكنك مقابلته، حتى اسمه نفسه لا يعرفه إلا قلّة من عمالقة المجتمع. هو من يتحرك خلف

الستار ويقوم بأقذر الأعمال وأكثرها وحشيةً بالنيابة عنهم. أما كيف فعلها، كيف جعل الألوسي يوافق على مقابلته بل وينتظره بفارغ الصبر، فكانت بطريقة لا تخطر على بال أحد، خطة راح ضحيّتها غرقًا العشرات من رجال الصف الثاني وقلة من الصف الأول في عالم العصابات والأعمال المشبوهة.

بعد أن فحصه الغاياتي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبعد أن أبدى امتعاضه من فظاعة عطره، تقدمه ليسيرا معًا فوق الممر الرخامي بين الحشائش حتى بلغا سلم البرجولة. هناك كان ينتظرهما رجلٌ خمسينيٌ بادي الطول حتى في جلسته، رياضي البنية ذو شعر أشقر ناعم يتخلله الشّيب، مُصفّف بعناية. بسيط للغاية في مظهره، هكذا ظن المايسترو، وهذا يستحق الاهتمام، هو ليس وعاءً خاويًا من الكبرياء والمال إذًا. قوقازي حليق الوجه نقي البشرة ذو مسحة حمراء تشي بأصولٍ غير مصرية، ربما من سحيق الزمن. يتابع باهتمام ما تعرضه شاشة الكمبيوتر المحمول الرابض أمامه على المائدة الخشبية. تداعبُ أناملُه شفتَه السُفلى بينما يدلّك بيده الأخرى فرو كلب بانجال تركي هائل الحجم. رفع الكلب رأسه ليحدقَ في الغريب دون أن يُصدر صوتًا.

تركه الألوسي واقفًا دون أن يُعيره اهتمامًا، لكن هذا لم يأتِ بالنتيجة المرجوّة ولم يبثّ التوتر في ضيفه. وهذا لأن المايسترو كانت حواسُه كلها مع تلك الهمسات، يعرفها قلبه ولا تُخطئها أذنه. رماه الألوسي بنظرةٍ خاطفةٍ متوقعًا أن يرى رجلًا مهزوزًا قلقًا، لكنه وجد ضيفه ينظرُ إلى بقعةٍ ما أبعد منه. أخرج الغاياتي علبة السجائر لكنه أدخلها بسرعة حين رمقه صاحبُ القصرِ بنظرةٍ خاطفة.

- نسيانك ده بيقلقني يا غاياتي.

هرب الدم من وجه الأخير وهَمّ بالاعتذار لكن الألوسي وجّه كلامَه إلى الضيف:

- منعم الكاشف، أحييك. موته مكسب كبير لينا. شوكة كانت...

بتر الألوسيُ جملته لأن الزائرَ الغامضَ كان في وادٍ آخر، كأنه لا يسمعه. دون أن يستأذن أو يعطي إنذارا، أعطاه المايسترو ظهره ودار حول البرجولة. هنا زمجر الكلبُ العملاقُ ونهض ليتبع هذا الغريب الذي يسير في منطقة نفوذه دون دعوة.

- بتعمل أيه؟

هتف الغاياتي وهو يلحق به بينما استلَّ الحراس أسلحتهم وصوّبوها تجاه الغريب. لكنّ إشارةً واحدةً من الألوسي كانت كافيةً كي يتحول المشهد إلى لوحة صمّاء لا يتحرك فيها إلا المايسترو. أخفض الحراس أسلحتهم وأغلق الألوسي الكمبيوتر المحمول ليتابع ضيفَه المثير

للفضول. حتى كلب البانجال العملاق، تخلّى عن هجومه في منتصف الطريق وجلس يراقبه.

توقف المايسترو ليرهف السمع.

الهمس، إنه قادم من هناك، هو متأكّد، من ذلك المبنى الصغير النائي في أطراف الحديقة. مبنى مكوّن من طابقٍ واحدٍ يبدو عليه الإهمال وهناك قضبانٌ تسدُّ نوافذه. تقدم ليقف أمامه في حين تبادل الحراس مع كبيرهم الغاياتي نظراتٍ حائرة.

ما الذي يفعله هذا المجنون؟ هكذا تساءل الأخير محاولًا السيطرة على قلقه.

دفع المايسترو الباب وانحنى ليدخل من فتحة الباب القصير. لحظات قليلة وكانت عيناه قد اعتادتا على الإضاءة الضعيفة التي تسلّلت من النوافذ المعتمة. أرض طينية وجدران جيرية يظهر منها الإسمنت في أماكن متفرقة. وهناك المنضدة. تقدم إليها. تحسّس سطحها الخشبي الخشن وخدش بأظفاره تلك الطبقة الجافة، طبقة الدماء.

ثم أغمضَ عينيه واستمع.

الأنين. إنه هادر.

- أنا مش هسألك إنت عرفت منين مكان الأوضة دي، واضح إنك متعوّد على الموت وعارف طريقه. أنا هسألك هل إنت عارف أنا عملت فيهم كِدَه ليه؟

هكذا جاء سؤال الألوسي من خلفه.

- علشان ضيّعوا وقتك؟

أجابه المايسترو ببرودٍ دون أن يلتفتَ إليه.

- ويا ترى إنت هتضيّع وقتي برضه؟ يا ترى إنت عارف الخسائر اللي اتسبّبت فيها إمبارح؟

- عارف.

تقدم الألوسي ليصبحَ داخل المبني وكذلك فعل حرّاسه وكلابهم، أحاطوا بالمايسترو لكنه لم يعبأ بهم.

- أيه السبب؟ ليه قتلتهم؟ علشان تبهرني وتخلّيني أقابلك؟ أديني قابلتك أهوه، بس علشان أشوفك بعيني قبل ما أنهيك بنفسي.

- زدّ على الباشا.

هكذا قال غاياتي بنبرةٍ بدأ التوتر يظهر فيها. وما كان من المايسترو إلا أن تحسَّس السطح وأغمض عينيه للحظةٍ حرك فيها يده الأخرى بحركةٍ انسيابية، كأنه منسجمٌ مع نغمةٍ ما غير مسموعة. ثم فتح عينيه وقال:

- علشان أظبط النغمة، علشان أعدل الكفّة.

هنا احتقن وجه الألوسي مما جعل حراسه يهجمون بكلابهم على الضيف المستفز لكن المايسترو التفت بغتةً إليهم وصرخ:

- يلّا! مستنّي أيه إنت وهو؟؟ اضرب النار!

تراجعت الكلابُ المتوحشةُ وذيولُها بين أرجلها بينما تسمَّر أسيادهم في أماكنهم وفوّهات بنادقهم مُصوَّبة لصدر المايسترو. التفتوا بعدها إلى الألوسي الذي ظل محدقًا في وجه ضيفه، يحاول استيعابه. ثم دون أن ينظر إليهم، لوَّح لرجاله كي يتراجعوا وهو يقول بنفاذ صبر:

- فسّر كلامك وكفاية ألغاز.

تقدم الغاياتي حتى أصبح ملتصقًا بالضيف وغمغم هامسًا:

- أيه اللي بتعمله ده؟ لو مَلَمّتش نفسك هنشرف أنا وإنت فوق ترابيزة التعذيب دي. واتفضل جِيب من الآخر.

قالها وتراجع قائلًا للألوسي الذي تقدم ليدور حول المنضدة ويصبح في مواجهة زائره المريب:

- المايسترو كان عايز يتفق مع جنابك على عملية جديدة.

telegram: @alanbyawardmsr

رفع الأخير عينيه عن المنضدة ليحدّق مباشرةً في وجه الألوسي الذي كان يتأمل ملامحه هو الآخر. وهلةٌ قصيرةٌ مرَّت قبل أن يأمر حراسه كي يأتوا بكرسيَّين. ما إن وضعوهما حول المنضدة حتى اتخذ الألوسي مجلسه على أحدهما، الذي يواجه الباب وأشار للمايسترو كي يجلس على الآخر وهو يقول:

- المركب، قتلت فيها نُص رجالتي وأصدقائي وزبايني. وحادثة القطر، قوية، مؤثرة، دقيقة، بس ضحاياها كلهم ناس غلابة. كل ده ليه؟ كفّة أيه اللي بتتكلم عنها؟

تحسَّس المايسترو المنضدة مرةً أخرى وقطّب حاجبيه بقوة مرةً واحدة، كأنه أصيب بألمٍ مفاجئ. صوت الأنين رهيب. بين هذه الجدران لا تزالُ الصرخاتُ والتوسُّلات تصدِي. فتح

عينيه لينظر إلى مُضيفه وجذب الكرسيّ ليجلس أمامه عبر المنضدة.

- الأولى رحمة والتانية عدل.

خرجَتْ من الغاياتي ضحكةُ استخفافٍ قصيرةٌ بترها بسرعة حين رمقه المايسترو بجدّية. لكن الألوسي هز رأسه الذي كاد ينفجر من الغيظ قائلًا:

- هو إنت هتعمل فيها نبي؟ أنا مبحبّش حد يستغفلني.

ضيّق المايسترو عينيه وابتسمَ نصفَ ابتسامةٍ قائلًا:

- ومين مجنون يعمل كده؟

- إنت شغّال لحساب مين؟

سأله الألوسي وهو يضع ساقًا فوق الأخرى ويشير للغاياتي، الذي أسرع بإعطائه دفترًا ونظارةَ قراءةٍ وعاد ليقفَ وراءه. فتح الألوسي الدفتر ووضع النظّارة الأنيقة على أنفه ليقرأ.

- واحد وعشرين قتيل واتنين وخمسين جريح. عشر عبوات وقود نقاوة عالية من الأهبل اللي واقف ورايا ده. ورميتله ميّة ألف جنيه. وإمبارح سبعة وعشرين راجل وسيدة أعمال راحوا نتيجة عملية غاية في الإتقان.

وضع الدفتر جانبًا والنظّارة في جيب قميصه العلويّ ثم قال:

- من ساعة ما أخدت مني الوقود وحرقت بيه الناس وأنا بقيت جزء من العملية زيّي زيّك. ولازم أعرف أنا جزء من أيه؟

أطرق المايسترو للحظةٍ ابتسمَ فيها قبل أن يرفع رأسه ويقول:

- ما هو أنا جاي علشان أعرض عليك تبقى جزء من حاجة أكبر.

تحسّس الألوسي بدوره المنضدة وقام بخدش بعض الدماء الجافة، قبل أن يرفع وجهَه لينظر في عينَي ضيفه ويبادله الابتسامة قائلًا:

- اتفضل. قُول.

أخرج المايسترو ورقةً ودفع بها في اتجاه الألوسي الذي التقطها بأطراف أنامله دون أن يرفع عينيه عن جليسه. فتحها برفقٍ ورمى الغاياتي بنظرةٍ خاطفةٍ كانت كافيةً لقلب الأخير أن تتسارع دقّاته وتتصلّب أطرافه في تأهُب. لو كان محتوى الورقة غير مُرضٍ لسيده فسيكون مصيره فوق هذه المنضدة يقضي ساعاته الأخيرة في الصراخ كالنساء. أخرج

الألوسي نظارته الرفيعة من جيب قميصه مرة أخرى ووضعها على طرف أنفه ليقرأ.

بعد توانٍ قليلةٍ تركت عيناه الورقة ليرمق جليسه من فوق نظارته قبل أن تستقر مجددًا على الورقة. عكف على قراءتها لدقيقة طويلة ثم ابتسم وطواها.

- إنت عارف أيه اللي إنت طالبه؟

هز المايسترو رأسه وقال:

- وعارف ثمنه.

دفع الألوسي الورقة إليه مجددًا فوق المنضدة المتسخة وقال:

- معتقدش. ثمنه مش بست أصفار ولا بسبعة ولا حتى بتمانية.

- ... ولا ألف صفر.

قالها المايسترو ليرجع كامل بظهره ويعقد حاجبيه الرفيعين المنمقين ويحدّق به.

- أومال أيه؟ عندك أيه ممكن تدّهولي أوضاد مهمة بالخطورة دي؟ مهمة ممكن تضرني أنا شخصيًا. وبعدين أنا مش بشتغل بزه مصر.

أخرج الضيف ورقةً أخرى ودفع بها إلى الألوسي. فتشككًا التقط الأخير الورقة، وما إن قرأ محتواها حتى احمرّ وجهه وجحظت عيناه ليقع قلب الغاياتي في قدمه. ألقى الألوسي الورقة في وجه ضيفه وصاح:

- إنت بتهددني؟! جاي للألوسي تهدده في بيته؟؟

ثم وضع يده على أنفه والتفت إلى غاياتي الذي ظل مُحدقًا في سيده غير مصدق ما يسمعه:

- إنت جايبلي واحد يهددني في بيتي يا حيوان!!

هنا رفع الحراس أسلحتهم وصوّبوها إلى المايسترو بعد أن استوعبوا ما يحدث. نهض الألوسي مبتعدًا عنه دون أن يرفع يده عن أنفه بينما وضع الأخير ساقًا فوق الأخرى وقال بمنتهى الهدوء:

- ألوسي بيه، الميكروب خلاص دخل في جسمك وجسم كل اللي شمّوا الريحة اللي رَشّتها على نفسي. متقلقش، العلاج معايا، ومعايا أنا بس. لو مش مصدقني اقتلني. بس لو مصدقني...

انحنى للأمام وفي عينيه الجاحظة رأى الألوسي وجوه ضحاياه، تصرخ لتحذره، وقال بصوتٍ عميقٍ كأنه قادمٌ من باطن الأرض:

- يبقى هتنفذ اللي طلبته، وفي أسرع وقت. لأن اللي فات كوم، كل اللي عرفته عني وشُفته مني كوم، واللي جاي حاجة تانية خالص.

رسالته واضحة. حتى الفستان الذي لا يُقدَّر بثمن، رداء الأميرات، لا يمكنه أن يُصلح ما حدث للمانيكان، لا يمكنه أن يستعيد ما سلبته النار.

كلّا. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، لا يمكن أن تكون الدنيا بهذه القسوة، لا يمكن أن تكون كل هذه الآلام بلا هدف، صبر بلا طائل. لا يمكن ألّا يكون هناك أمل في إصلاح كل شيء ومداواة كل هذه الجراح. كل خلية مني ترفض هذه النظرة السوداوية القاتمة، لا يمكن أن يكون اليأس هو الأصل والأمل مجرد دخيل عليه. ربما كان هذا هو حال الموت، ليلٌ يتخلّله ضياءٌ كما قال، لكن ليس هذا هو حالنا.

أتذكّر أني قرأت خاطرةً لأبي في دفتر ناعوت، في صفحة بيضاء:

لو رأى كُلُّ أبٍ وكل أمٍّ مصائر الخلائق لما وُجِد أيّ منّا.

لو كل ما رأوه هو الأمراض والحروب والشرور فقط لما جاءوا بنا لهذه الدنيا، لرحمونا من مصيرٍ يرونه كل يوم.

ثم أنهى خاطرته في الصفحة السوداء بالحبر الأبيض:

لولا الأمل.

لا أدري ما الذي قاله عيسى لذلك القاتل المجنون، لكنه كان بمثابة السحر. لم ألحّ على أخي في السؤال ولم أخبر الشرطة بما دار بينهما، فمن المؤكّد أنهم لن يتركوا عيسى في حاله. سوف أحتفظ بهذا السرّ لنفسي، يكفيني أنه كان السبب في نجاتنا، يكفيني أن ما قاله عيسى للمايسترو كان السبب في أنه تركنا أحياء.

أما ذلك العملاق الذي ظهر من العدم كفارس أسطوري، ذلك الذي خلع الباب من إطاره بركلةٍ من قدمه، الباب المصفّح الذي لا ينفتح إلا بصوت سليم، فلم يَكُن بي طاقة لأفزع منه، استسلمتُ ليديه وهو يرفعني من فوق الأرض كدُمية صغيرة وينزع عني كمامتي قائلًا: "متخافيش".

كانت أول كلمة قالها لي، الكلمة الوحيدة التي كنتُ أحتاج أن أسمعها بشدّة، طيلة حياتي. وحين سمعتُها لم أستطع أن أمنع نفسي من الانهيار، ففعلت، غرقت في طوفان من الدموع والنُّواح والنحيب. خارت قُواي بين ذراعيه الهائلتين، طوّقني بهما، بل غلّفني بهما، حَصَّنني من الدنيا كلها، ثم بكى معي.

أنا حالةٌ ميئوس منها من الشاعرية، حتى في أحلَك لحظات حياتي أبحث فيها عن المعاني، عن الجمال بين الحُطام. لقد انتظرتُ الدفءَ من مستر جراي، أكثر مَن قابلت في حياتي بروداً، صاحب التمثال الثلجيّ. انتظرتُ أن يبوحَ بما أشعر به يموج بداخله، أن يملأ الدنيا صراخًا ووعيدًا، أن ينهار بين أحضاني ويدعني أحتويه، أن يلوم الدنيا ويبكي أخاهُ.

لكن هذا الضابط فعل كل ما كنت أتمنى أن يفعله سليم، كل ما كنتُ أتوق إليه بكل وجداني. صدمني بكاؤه، استيقظت بداخلي أمومةُ الدُبّة الأمّ، شعرتُ أنه دوري كي أربّتَ على كتفه التي أسندت عليها رأسي، وأستقبل دموعه الصامتة على شعري الذهبي الثائر، أحتويه بذراعيّ الدقيقتين وهما لا تصلان لبعضهما وراء ظهره.

لحظتُها تأكدت أن المظاهر خادعة، وأننا جميعًا جرحى، ولو اقترب أحدٌ منّا بما يكفي لانهارت دفاعاتنا ولسقطت أقنعتنا.

تركته يُخرج شحنةَ المشاعر الجيّاشة التي كانت جاثمةً على صدره بينما وقف زملاؤه يراقبوننا في خشوع، وقد أنزلوا أسلحتهم احترامًا للحظة. ظللتُ أشكرُه وأهمسُ له مرارًا وتكرارًا أننا بخير فرمقني بابتسامةٍ حانيةٍ لا أجدُ وصفًا لدفئها، ثم تدارك نفسه واستردَّ هالته الرسمية. ما الذي مر به هذا الرجل الخشن كي يختزنَ هذا الكَمّ من الحزن. ليس كل الرجال حمقى مثل ماجد إذًا، ولا عديمي الإحساس مثل سليم.

***

فجأة لم تعُد حياتي كما كانت.

رغم أن الجهات الأمنية قد أغلقوا الملف بموت الترزي، فإني لم أشعر أن الكابوس قد انتهى. وَصف الترزي لا يتماشى إطلاقًا مع ذلك الذي كان معنا في شقة سليم، شكلًا ومضمونًا. وقد عزّز شعوري هذا قرارُ الرائد حازم أن يتولى حمايتنا بنفسه. وبما أن كُلًا منّا قد تعرّى تمامًا أمام الآخر بعد أن بكينا على أكتاف بعضنا، وبما أنني قد صرتُ أفزعُ من أقلّ صوتٍ بعد تجربة المايسترو ومحطة مصر من قبلها، فقد فكّرت جديًا في الاستجابة لدعوته. هذا رغم أنني شعرت من شدّة إلحاحه أنه فعلها ليكفّر عن ذنبٍ ما لم أعرفه في حينها.

جاءتني تيسير، ستينيّة كستنائيّة الشعر، دقيقة الهيئة شديدة الهيبة، عرفتُ أنها أمُ الرائد حازم، ودّعتني بنفسها. كانت رقيقةً متواضعةً تفيضُ بالحنان، بها ذات الحزن الدفين الذي شعرت به في ابنها، الألم الذي جعل عيسى يحتضنها في اللحظة التي رآها فيها. وحين رأيت هذا التفاعل وافقت على الفور. عرفت فيما بعد سبب هذا الحزن، أخبرتني بما حدث لذلك الأسوانيّ الطيّب وأسرته في محطة مصر. تذكّرت الطفلين الأسمرين ووالدهما الشجاع،

تذكّرت لحظتهم الأخيرة، والقماشة البيضاء المتناهية الصِّغَر الملطخة بالدماء. ازدادت حياتي بعدها وحشةً ودنياي قسوة. لكني لم أخبرها بما رأيت.

وجدتُ نفسي أنتقل للمعيشة في فيلّا بالتجمع، كي أصبح وأمسي على مشهد بيت رجب وأطفاله، كي تحفر الذكرى نفسها في ذهني بمخالب من نار. في البداية احتوتني ماما تيسير، كما طلبتْ منّي أن أناديها، واحتوت شقيقي كأنها أمّنا. لكن مع مرور الأيام نفدَ مخزونها حتى صارت خاوية منكمشة في أحزانها. لم أستسلم. خارت قُواي الجسدية وتضاءلت شجاعتي في مواجهة ذلك الخطر الذي لا أراه، لكن هذا لم يَزِد قلبي إلّا اتساعًا. أصبحت أنا مَن يُراعي الجميع، الطبيبة التي تداويهم، كما ظلّ عيسى ينعتني.

أعلم أنه لو كان المايسترو يريد بنا شرًّا لما وقف شيء أمامه حين انفرد بنا في شقة سليم، لكني قضيت الأسابيع الأولى في ترقُّب، وقد انتقل إليّ قلق حازم، بعد أن سكن الجزء الخلفي من الفيلّا كي يتركني بخريطتي. ظل في حالة تأهُّب دائم، يحيطنا – أنا وأمه وعيسى – بحمايةٍ من حديد، حماية مُبالَغ فيها لا تفسير لها إلا ما ظننته ندمًا على فعلٍ ما ورغبةً في الغفران.

لا أفهمه، ذلك العملاق الحزين، ينتظر وقوع مصيبة جلبها على نفسه، كما قالت لي ماما تيسير، لكنها لا تأتي. نبتت لِحيتُه وتدهورت حالته النفسية فأعطوه إجازةً قضى لياليها الطويلة في انتظارِ انتقامِ شخصٍ ما. سمعت اسمًا نطقه همسًا عبر الهاتف: "الألوسي"، خرجت معه الحروف من بين أسنانٍ تكاد تنسحق من الكراهية.

ظل حَذِرًا، يختلس النظر من وراء الستائر ويتابع تسجيل كاميرات المراقبة وتقارير أفراد الحراسة الموكلين بحمايتنا، حتى كاد أن يفقد صوابه. انخرط في تدريباتٍ قتاليةٍ عنيفة كنتُ أرتجف حين أسمع صيحاته أثناءها، كأن من يقاتله هو عدوٌّ حقيقي وليست دُمية. لم يُعِنه على الاحتفاظ بعقله سوى الحنان الذي أعطيته إيّاه، في تلك الأوقات القليلة التي كان ينضمُّ فيها إلينا على وجبةٍ ما أو يظهر في الحديقة كالطيف الشارد في أمسية باردة. لكن هذا الانتقام لم يأتِ، ولهذا فقد ظل في حالةِ تأهُّبٍ دائم حتى كاد أن يُصيبنا بالجنون.

أخبرتني ماما تيسير أن حازم لم يَكُن على هذا الحال عندما بدأ عمله في الداخلية، لم يَكُن عنيفًا أو متسلطًا هكذا، بل كان فارسًا بكل معاني الكلمة. لكن هذا تَغَيَّر حين عاد من إحدى المهمّات السرِّيّة، آخر عهده بالعمل الميداني. طلب نقله بعدها حتى استقر به الحال في جهاز المشروعات لما عُرف عنه من غيرة شديدة على الحق، إرث انتقل إليه من عائلة عريقة من الضباط. لكنه فقدَ إيمانه تدريجيًا بكل ما هو خير في هذه الدنيا، أصبح يراها بنظارة سوداء.

حين سمعت كلامها هذا تغيرت نظرتي إليه. لم ألفهُ - لأنني لا أعلم بالضبط ما الذي حدث في تلك المهمة الأخيرة - بل صرتُ أشفق عليه. كنت أرى فيه خوفًا، وحزنًا، ندمًا توَحّش حتى كاد أن يلتهمه. شعرتُ فيه ببركانٍ جاهز للثورة في أيّة لحظة، فبقيتُ على مسافةٍ آمنةٍ منه. ظل ينعي زميله الذي تُوفّي إثر جريمة الترزي، المقدم منعم، والذي كان يلوم نفسه على ما حدث له.

فهمت حينها سبب ندمه وأفعاله معي وعلى هذا أيضًا لم ألفه.

قال لي ذاتَ ليلةٍ ونحن على السطح، نتأمل ليلَ القاهرة بينما كان يقلب نجوم أكتاف بذلة منعم بين أصابعه، إنه مُوقنٌ أن الأخير كان على حق، أن المايسترو يعدُّ العدة لسيمفونيته الكبرى والأخيرة. وبالتأكيد لن تكون أقلَّ من معزوفةٍ يسمعها العالم كله. مصطنعةُ الجهل، سألته ألَم يحترق في الحادث مع منعم؟ أجابني أن الترزي ليس هو "عازف الأقدار"، كما أطلق عليه. لم أسأله عن سبب هذا اليقين لأنني كنت أعلم أنه مؤمن تمامًا أن سليم هو المجرم الحقيقي، ولن يزحزحه شيء عن هذا الاعتقاد.

جاءنا ضابط اسمه غريبٌ وهيئته أغرب، هزيل قصير له ذوق عجيب في الملبس. أخبرني أنه جاء ليطمئنَّ علينا، لم أفهم السبب لكن كل ما كان يحيط بذلك الضابط كان عجيبًا، فتجاهلت غرابة سبب زيارته. قال إن سليم بالفعل لا يزال في دائرة الشبهات وأن مساعد الوزير قد أغلق الملف ظاهريًا فقط، وأن هذا هو السبب الوحيد الذي جعلهم يوافقون على حراستنا بهذا الشكل.

أخبرني أن هناك الآن غرفةً بأكملها في مديرية الأمن خاصة بـ "عازف الأقدار". غرفة وُضع فيها المانيكان والفستان الأزرق، يقف منتصبًا في منتصف الحائط العريض الذي يواجه الباب، تحت إضاءة قوية، كأنه في بوتيك أزياء مَلَكيّ. البيانو الذي كان يعزف عليه وأدواته التي كان يستخدمها في تعذيب ولدَي العجوز الكفيفة، كلها محفوظة هناك ويتم تحليلها بأعلى التقنيات. وفي منتصف الغرفة، في مركز الاهتمام، قائمٌ قصيرٌ عليه صندوقٌ زجاجيّ يحتوي على "دفتر ناعوت"، جوهرة التاج. الدفتر الذي يرفض الكتابة عليه مهما حاولوا، بالرغم من أن المايسترو قد نجح في أن يفعل بكل سهولة.

كان يجب عليّ أن أحاول إقناع حِجّي هذا أن سليم ليس المايسترو، بل هو نقيضه، لكني لم أجادله. كنتُ حانقةً على سليم، حانقة لدرجة أني تمنيت أن ينال عقابًا ما. فهو ليس بارد المشاعر فقط، بل إن ما فعله معي ومع أخي أضاف الأنانية والقسوة على الخليط الذي هو سليم لقمان، مستر جراي الذي يسعى خلف سر الأسرار مهما كان الثمن.

أعطاني جِجي هذا ابتسامةً لم أفهمها وغادرَ بعد أن جعلني أتأكد أن هناك فصلًا آخر لم يُكتب في حكاية "عازف الأقدار".

***

كلّما طال الشتاءُ زادت سماكةُ جدرانه.

الأحزان والمصائب تغيّر الإنسان، تضربه بإزميلٍ قاسٍ لتُعيد تشكيله. يخرج من تحته في هيئةٍ أخرى، وقد وُلد من جديد. البعض يزداد قسوة، يظلُّ يرتفع بأسوار قلعته، يتحصّن بها؛ حتى يصير منعزلًا عن الدنيا، لا تحركه عاصفةٌ ولا يؤثر به رعد.

هكذا قرأتُ ذاتَ مرةٍ في دفتر ناعوت، خاطرةً لأبي في الصفحة البيضاء، وفي الصفحة السوداء المقابلة كتب:

والبعض الآخر يخرج من تجربته الأليمة أكثرَ رقّةً وهشاشة، أعمَق فكرًا وأكثر تفهُّمًا. يتصالح مع الدنيا، يغفر لها، ويغفر لنفسه، حتى تصير قلعته بين ضلوعه. وحين يُربت على المكلوم والمجروح يكون يُطَيِّب جراحه هو، ويداوي نفسه.

***

ربما كانت المرة الأولى التي أتكلم فيها مع عيسى عمّا تعرضنا له في شقة سليم، بعد مرور شهور.

- قلت للمايسترو أيه يا عيسى؟ أيه اللي خلّاه يسيبنا عايشين؟

ابتسم بملء فِيهِ واحتضنني لوهلةٍ كالطيفِ قبل أن ينتزعَ نفسَه قائلًا:

- سألني سؤال وسألته سؤال، قالّي إنه لما يعنَف (يعرَف) يجاوب هيجيلي.

توترَتْ أحشائي حين سمعتُ جملته الأخيرة فبادرته:

- ومش خايف منه؟

- لا. مِشَن (مِشَر) جناي (جراي) هيحاربه، هيدافع عنّا.

شردت بعيدًا وقد انقبض قلبي حين سمعته ينطق بكُنية سليم. لا أدري لماذا تذكّرتُ يدي التي أمسك بها في المستشفى، تذكّرتُ اللحظة التي انسابت أناملي من قبضته. لحظتها نسيت غضبي منه، ضممتُ كفّي إلى صدري... واحتضنتُها.

تُرى، أين أنت يا سليم؟ كَمْ ابتعدت عنّا؟

ثم جاء اليوم الذي عرفت فيه أنهم قد أطلقوا سراحه، نفس اليوم الذي خرج فيه حازم من البيت.

ومعه سلاحه.

سليم

في حبسي المظلم، نبتت لِحيتي وظل الظمأ رفيقي، فيما لازمتني تلك الأشياء التي كانت تتساقط حولي، في طرف نظري، حتى ألِفتُها.

تحت ضوء القمر الذي تسلَّل من النافذة العالية، وجدتُ نفسي أضُمُّ كفَّيّ إلى صدري. اليُسرى التي احتوت كفَّ عايدة، واليُمنى التي التقت بكفِّ المايسترو عبر الباب.

ثم ضربت صدري بقوة.

أحاول أن أشعر بهما.

في اللحظة نفسها فُتح باب الزنزانة وظلَّ عليّ الرائد حِجّي مبتسمًا.

هــو

في مكانٍ قَصيٍ بحديقة قصر الألوسي يوجد حاجزٌ من الأشجار العملاقة. بين تلك الأشجار مساحة مربعة لا تتعدى الخمسين متر طولًا ملآنة بشواهد قبور عبارة عن عِصِيّ مغروزة في الأرض الطينية.

عند غروب شمس أحد الأيام الباردة، في تلك المساحة المستترة من قصره، وقف الألوسي مرتديًا قناعًا طبيًا، الإرهاق والمرض جليٌ على ما يظهر من ملامحه. أمامه كان الغاياتي يُشرف على عملية دفن لاثنين آخرَيْن من رجال الحراسة الذين كانوا متواجدين وقت زيارة المايسترو الأولى. التفت بعدها الغاياتي ودعك أنفه الملتهب وسعل بشدّة وهو ينظر لسيده مستجديًا، جسده صار هزيلًا بعد أن كان في قوة الثور.

فرك الألوسي شعره الأشعث الذي فقدَ بريقه ورونقه ثم التفت لينظر من بين خط الأشجار إلى جانب الحديقة الشرقي. أطال النظرَ إلى الغرفة المنعزلة كأنه يريد أن يحرقَها بنظراته، يحرقُها بمَن يقبعُ فيها، قبل أن يهزَّ رأسه مستسلمًا ويومئ للغاياتي بالموافقة.

فتح الغاياتي باب الغرفة المنعزلة وسلط الضوء على ذلك المُقيَّد فوق المنضدة الملطّخة بالدماء الجافة. تردد للحظةٍ قبل أن يقترب من المايسترو متوجسًا وكأن الأخير ليس مقيدًا بأطرافه الأربعة، ثم التفت للألوسي الذي توقف عند باب الغرفة. أومأ الأخير للغاياتي كي يُحرر المايسترو ففعل وهو في قمّة حذَرِه ثم تقهقر مبتعدًا. فتح المايسترو عينيه وابتسم ثم نهض بهدوء متحاملًا على جراحه. فتح ذراعيه ليستقبل الألوسي الذي خَطَا داخل الغرفة نازلًا درجة السلم الطيني. بخنوعٍ انحنى الألوسي راكعًا وكذلك فعل الغاياتي من ورائه والعشرات من رجال الأشدّاء المنتشرين في الحديقة.

تقدم المايسترو ليربّت على كتف الألوسي كأنه يُدلّل كلبه الوفيّ، كأنه يخبره أنه يغفر له ما فعله به. خرج بعدها في شموخٍ وهو يشمُّ هواء الحرية بعد شهورٍ من السجن والتعذيب. والآن بعد أن استسلم له الألوسي أصبح لديه من القوة والمال والسلطة ما يتيح له تنفيذ معزوفته الأخيرة.

والتي ستسمعها الدنيا بأكملها.

وكما خرج سليم من سجنه وحازم من معزله، خرج عازفُ الأقدار.

صعد على المسرح... وانحنى للجمهور.

سليم

أنا قطارٌ بلا محطات، يسير إلى وجهةٍ واحدة، يحركه وقودٌ واحد، قطار لراكب واحد. لو صعد إليه أحد لتاه معي بين قمم جبال لم يطأها بشرٌ قبلنا، بين صفحات حكاية غامضة لا أعرف لها بداية ولا نهاية. لو رافقتني عايدة في هذه الرحلة لوجدتْ نفسها في وحدةٍ أكثر قسوةً مما كانت فيه. هي أضعفنا وأقوانا، الوحيدة التي يجب أن نتجمّل لها، الكوينات التي يجب أن نرى الدنيا منها. لم أرِدْ أن أخدعها أكثر من هذا، فابتعدت. على الأقل هي مع حازم آمنة، وهي تستحق.

فأمامي رحلةٌ يجبُ أن أذهبَ فيها وحدي.

أما بالنسبة إليك أيها المايسترو، يا مَن تدّعي نبوّة الرحمة، فأنا أدرك تمامًا مغزى رسالتك. أنت تخبرني – بكل غرور وثقة – أننا مجرد أجساد، مهما علا شأننا ووسع نفوذنا. تقول إننا مادةٌ لا إرادة لها ولا شعور مثل مانيكان محترقة في رداء الأميرات، فهي لا تستطيع حماية نفسها من النار ولا علاج لحروقها، لا تملك سوى تغطيتها لتحميها من العيون.

وأنا موقنٌ أنك لم تنتهِ من عملك، من سعيك الدؤوب لإثبات هذا للعالم كله. أنت تسير في نفس الدرب الذي أسير فيه، تسعى للوصول لنهايته، لكن بينما لا زلت أسعى خلف الحقيقة، تدّعي أنت أنك تسبقني بخطوة، تقول إنك قد عثرت عليها، إنك تعلم مصير الطاقة التي تحرك أجسادنا بعد أن تفنى. تقول إننا من العدم وإلى العدم سنئول.

telegram: @alanbyawardmsr

تقول إن مصير سالم النسيان، أن يذوب في الكون ويتلاشى كما تنحسرُ الموجةُ للبحرِ مرةً أخرى.

لكني أعلم يقينًا أنها ليست الحقيقة. لم أصل إليها بعد، لكني سأثبتُ لك أنك مخطئ. سأخبرك يا عازف الأقدار أن الأقدار ليست عشوائية، سأخبرك أننا لا نفنى بعد أن نفنى. سأصلُ لحقيقةِ ما آل إليه سالم، حقيقة ما آل إليه موتانا جميعًا، حتى لو كان آخر شيء أفعله في حياتي. ولو كانت الدنيا قد صارت من القتامة أن الجماد نفسه قد بدأ يبكي بعد أن توقفنا نحن عن البكاء، بعد أن نَفِدَ مخزونُنا منه وقست قلوبنا، سأستمع إليه، وسوف يرشدني إلى الإجابة.

سوف يرشدني إليك.

ولهذا فقد ذهبت إلى المكان الوحيد الذي به خيطٌ لم ينقطع، كي أواجهك.

***

سمحوا لي أخيرًا بالخروج من الحبس، وهذا لأنه ليس لديهم دليلٌ ماديٌ واحدٌ يُدينني، لكنهم لن يتركوني أغيب لحظةً عن أعينهم. و بـ "هُم" فإني أعني حازم وهبة، هو على رأسهم، الضابط العملاق الذي خلع الباب الفصفّح بركلةٍ واحدة، والذي صار أكثر من يُبغضني. أدرك أنه لن يتركني أهنأ بثانيةٍ واحدةٍ من الخصوصية، أعلم هذا وأتوقعه، بل وأعتمد عليه. منذ اللحظة الأولى شعرت به خلف أذني، مراقبته لصيقة تكاد أن تصيبني بالحكّة. وهو لا يبذل جهدًا في سترها، بل يتعمّد أن تتلاقى أعيننا، يخبرني أنه يراني، يعدُّ أنفاسي. ولهذا فقد استدرجته لقضاء أمسية مثيرة، رحلة قصيرة إلى أغرب مكان في الحكاية كلها، وهذا بعد خروجي من المديرية مباشرةً.

وقفت أمام مقهى الخمسة وعشرين، الذي مهما تدور الأحداث وتتشابك خيوطها فهي تلتقي عنده. لكن هذه المرة ليست لديّ شكوك. في هذا المكان يتخذُ عازفُ الأقدارِ مقرّه، أنا موقنٌ من ذلك. من الرصيف المقابل وعبر الطريق السريع، طفقتُ أراقب المقهى المريب، وأراقب مَن يراقبني. لا أعرف ما الذي ينتظرُني هناك أو إن كان صاحبه المخيفُ سيسمحُ لي بالبقاء فيه لما بعد منتصف الليل، لكنني يجب أن أحاول. فهناك تختبئ الإجابات. وإلا فما معنى أنها تقدم خدماتها طوال "الخمسة وعشرين" ساعة لكنها تغلق في تمام الثانية عشرة؟ نظرتُ في ساعتي، إنها الحادية عشرة والنصف. نصف ساعة وينكشف لي سرٌّ راحَ المئاتُ ضحيةً لصاحبه.

تجاهلتُ السيارةَ التي جلس بها حازم كذئبٍ يلاحق فريسته. مُحارِب ومُفكّر، مُداوِيَة ومُدمّر، هذا هو حالنا نحن الأربعة، حازم وأنا وعايدة والمايسترو، في تلك الملحمة المشحونة بالدم والفكر والإحساس.

تُرى، لمن ستكون الغلبة في النهاية؟ مَن منّا سينتصر منطقُه؟

تلفّتُ يمينًا ويسارًا وانتظرتُ حتى أصبح الطريق السريع خاويًا وعبرتُ متفاديًا سيارات النقل. أبطأتُ من سرعتي حين بلغت الرصيف الثاني وجُلتُ بعيني داخل الخيمة باحثًا عن راضي، صاحب المقهى، فوجدته يعطي أوامره لصبيانه كي يجمعوا الكراسي والطاولات البعيدة ويكدّسوها داخل الخيمة. اجتمع الزبائنُ عنده أمام الخزينة ولم تمرّ ثوانٍ حتى انفضّوا من حوله بعد دفعهم الحساب. لم يبقَ سوى طاولتين على كُلٍّ منهما يجلس رجلٌ منفردًا بينما بدأ العمال يُسدلون القماشة ليسدُّوا مداخل الخيمة.

الآن وإلّا فلا.

حسمت تردُّدي وتقدمتُ لأجلس على طاولةٍ عند طرف الخيمة، أسفل اللافتة التي تقول

"مفتوح خمسة وعشرين ساعة". لاحظتْ بطرف عينيّ ارتباك العمال ونظراتهم التي أخذت تقفز من ناحيتي إلى معلمهم. لوّح الأخير بيده لأحدهم فاتجه إليّ بينما جهزتُ أجوبةً وسيناريوهات مختلفة للحوار.

- الساعة داخلة على اتناشر يا بيه، وإنت عارف القوانين الجديدة.

أشرتُ للافتة التي أجلس تحتها وقلت:

- واليافطة دي بتعمل أيه أومّال؟

- معرفش. اسألها.

قالها بكُلّ سماجةٍ وجاءت إجابتي له بصوتٍ مرتعِش من فرط الإثارة، طبقًا للسيناريو الذي خططتُ له طيلة شهور حبسي:

- والله فكرة. ما هو أنا أصل الجماد بيكلّمني.

نهت النادلُ والتفت إلى معلمه الذي تخلّل ذقنه الشعثاء بأصابعه، وهو يراقب الحوار قبل أن يهزّ رأسه لِضبِّيه. أخرج العامل نوتة من جيبه الأمامي وقال:

- تؤمر بأيه؟

سيطرتُ على الإثارة بصعوبةٍ وحمدتُ ربي أن اختياري الجلوس على تلك الطاولة بالذات أتى بثماره. فقد منعت الإضاءةُ التي جاءت من ورائي أن يقرأ النادل ملامحي ويرى التوتر عليها.

هذا العطش اللعين، سينتهي الآن.

- بيتهوفن.

قلتُها بصوتٍ مرتعِش وأنا أعيد نظارتي عديمة العدسات لمكانها بعد أن كادت أن تنزلق وتترك وجهي. لم أدرِ لماذا هذا الاسم بالذات، ولا مغزاه، لكنه ذلك الحَدس. كُنيّة المايسترو والموسيقا التي كانت تنساب من الإذاعة الداخلية للمحطة أرشداني إليه، وما إنْ قرأت تعبير وجه النادل حتى شعرتُ أنني قد أصبتُ عين الهدف. تيبّست يدهُ الممسكةُ بالقلم والتفت إلى راضي مرةً أخرى. أومأ له معلمه برأسه فالتفت العامل إليّ ليسألني بعد أن وضع الدفتر في جيبه وأعطاني أكثر النظرات حملًا للشك:

- بقالك قَدّ أيه من غير أدوية؟

لم أصدّق نفسي حين سمعتُ هذا السؤال لكني تماسكتُ وأبقيتُ ملامحي جامدةً لأجيبه:

- من فبراير اللي فات.

نظر العامل لراضي وأومأ برأسه قبل أن يشير له الأخيرُ أن يذهب ليأتي بطلبي.

ثُرى ما سيكون؟

ثبّتُ نظري على الطريق السريع أمامي، والذي صار ملكًا خاصًا لسيارات النقل العملاقة واختفت من فوقه الملّاكي، ورأيت سيارة حازم تتحرك لتقترب من المقهى وهي تطحن الحصى. بصعوبةٍ بالغةٍ منعتُ نفسي من الالتفاف إلى راضي، الذي شعرت بعينه تكاد تخترق جبهتي وتصل إلى عقلي، وظللتُ على وضعي كي لا ينتبه للشرطي الخارق الذي جاء لتكسير عظامي. نظرتُ في ساعتي، الحادية عشرة وخمس وخمسون دقيقة، في نفس اللحظة التي توقف فيها حازم أمام المقهى مباشرةً.

بدأت ساقي تهتزُّ من التوتر وحككتُ لحيتي التي نبتت في الحبس بعصبية، ثم حانت مني التفاتةٌ إلى راضي لأجد عينيه تلمعان ووجهه يضيء بنور أحمر في الظلام. اهدأ يا سليم، إنها فقط نيران الجوزة التي يسحب منها الأنفاس كأنه قاطرة تعمل بالفحم. انتفضتُ مذعورًا حين أطلقتْ حافلةٌ عملاقةٌ نفيرها الهادر أمام المقهى مباشرةً. ثم انتفضتُ مرةً أخرى حين وضع النادل صينيّته المعدنية بعنف على الطاولة الحديدية. رمقته بغيظ، فابتسم.

- بيتهوفن، يا مزاجك.

- شكرًا يا سيدي.

أخفضتُ عينيّ لأنظر بفضولٍ إلى الكوب لأجده ممتلئًا بسائلٍ شفّاف. هل جاء لي بماء؟ أهو اختبار ما؟ ثم انتبهت إلى أن كلا الرجلين الباقيين قد وُضع أمامهما كوبٌ مماثل.

- أهلك عارفين إنك هنا؟

سألني العامل قبل أن أمدَّ يدي للكوب.

- ماليش أهل.

كانت الإجابة النموذجية التي قررت أن أعطيها. هنا التفت العامل لراضي وهزَّ رأسه بالإيجاب. استمر الحوار الصامت بينهما وأومأ راضي له ولبقية الصبيان كي يُسدِلوا القماشةَ على فتحة الخيمة. نظرة سريعة على سيارة حازم لأجده قد تَرَجّلَ منها بطوله الفارع واستند على سقفها بمرفقه. ظل يراقب ستارة الخيمة وهي تنسدل على مراحل، ثم التقت أعيننا وأنا أتقهقرُ بالكرسي خطوتين وفي يدي الكوب حتى ابتلعتني الخيمة.

ليس أمامي الكثير، فقد لاحظت أن حازم قد ترك مكانه ليقترب من فتحة الخيمة قبل أن تغلق، سلاحه واضح في جنبه. التفتُ إلى الرجلين، جليسيّ الغريبين، لأجدهما يجترعان محتوى الكوبِ دفعةً واحدة ثم يضعان الأكواب على الطاولة أمامهما ويلتفتان إليّ. نظرات زجاجية لا حياةَ فيها، كأنهما ينتظران مني شيئًا.

- لو هتشرب يا بيه يبقى لازم دلوقت.

قالها العامل الذي أسدل القماشة ليختطفَ الظلامُ ما بقي من ضوء في الخيمة ويختفي حازم من المشهد، لحظات قبل أن يصل للفتحة. جُلْتُ بنظري في المكان المعتم إلا من ضوء جوزة راضي الذي كان يراقبني كأنه مارِدٌ من نارٍ وبصيص بسيطٌ من الضوء يتسلَّل من أسفل قماشة الخيمة قبل أن يقطعه ظِلُّ حازم.

نظرتُ إلى ساعتي. 23:59. ثوانٍ قليلة وأعرف ما الذي يحدث هنا.

هيَّا يا مستر جراي، افتح الباب.

جفلتُ حين لمحتُ بطرف عيني تلك الأشياء التي تساقطت حولي كشلَّال خَفِيّ، أعدادها أضعافُ المرات السابقة، كأنها تحفَّست لشيءٍ ما.

تصرخُ حولي المحاذير وتتراقص الأدلَّة.

تجاهلتُها ورفعتُ الكوب بسرعة لأفرغَ محتواه في جوفي قبل أن يلتهمني التردُّد.

وقبل أن ينجح حازم في فتق فتحة الخيمة بكل ما به من غضب وهو شاهرٌ سلاحه.

من أين جئتُ بهذه الشجاعة؟

كَم أفتقدك يا أليس!

وضعتُ الكوبَ الفارغَ ونظرتُ إلى ساعة يدي.

24:01.

الثانية الأولى.

من الساعة الخامسة والعشرين.

الثاني والثلاثون... من ديسمبر.

يتبع الجزء الثاني والأخير...